ناصر

سنوات التحدي والكبرياء

(1952 - 1970)

دار الحسام

- ملف بالصور ومجموعة من الشهادات والابحاث والدراسات لـ: محمد حسنين هيكل، محمد فايق، امين هويدي، احمد بهاء الدين، كامل الزهيري، انتوني ناتنج، روبرت ستيفنز، د. منصور فايز، محمود فهيم، د. علي الدين هلال، د. محمد انيس، محمود السعدني، جمال سليم، محمد عودة، د. سامي منصور

- من أقوال وخطب ومذكرات الرئيس جمال عبد الناصر
- محطات حاسمة في مسيرة الثورة
- شعر: نزار قباني ومحمود درويش
- اعداد واشراف: تركي ضاهر

ناصر

سنوات التحدي والكبرياء

1952

1970

ثورة تموز
50 عاماً

ناصر

سنوات التحدي والكبرياء

1952
1970

- مجموعة من الشهادات والابحاث والدراسات وملف بالصور
- من أقوال وخطب ومذكرات الرئيس جمال عبد الناصر
- شعر: نزار قباني ومحمود درويش
- محطات حاسمة في مسيرة الثورة
- اعداد واشراف : تركي ضاهر

دار
الحسام
للطباعة والنشر والتوزيع

● ناصر... سنوات التحدي والكبرياء
(دراسات وشهادات ومحطات حاسمة وملف بالصور)
● مجموعة من المؤلفين والباحثين.

● الطبعة الأولى 2002 - 2003
● جميع الحقوق محفوظة.

دار الحسام
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب ١٤/٥٣٩٢
هاتف وفاكس: ٣٧٨٧٤٦
بيروت - لبنان

الإهداء

من جيلنا الذي ذاق حلاوة الانتصار، ومرارة الهزيمة والنكسة وبقي محارباً تحت راياته.

إلى الجيل الحاضر الذي لم يشهد إلاّ عصر الذل والهوان والاستسلام، لولا فتية آمنت بربِّها وبالحجر والشهادة في فلسطين وجنوب لبنان.

إلى الأجيال المقبلة علَّه يخرج ناصر جديد من بين صفوفها ليقول: «إرفع رأسك يا أخي لقد ولّى عهد الاستعباد».

* * *

الشكر والتقدير

كل الشكر والتقدير لكل من سعى ليخرج هذا الكتاب إلى يدي القارىء العربي، بعد أن كان منذ خمسة أعوام مجرَّد فكرة، فقدَّموا الرأي والملاحظة والدعم بكل أشكاله وأنواعه وفتحوا أرشيفهم الخاص والعام ليكون تحت تصرف هذا الإنجاز وواظبوا بالتالي على مواكبة إنجاز هذا العمل طوال الأعوام السابقة وأخص بالتنويه: الأخ مروان الأيوبي الذي كان أول المبادرين والداعمين، والسادة: حسان الزين، بشار القوتلي، عوض شعبان وإياد عبد الودود الشيخ.

(ت. ض.)

المقـدمة

الله. . ما أروعها شهادة أن يوجد الإنسان في زمان جمال عبد الناصر.

. . . ما أعظم ذاك العصر، أمبراطوريات عاتية غازية تتدحرج وتسقط في جبال الأوراس وفي مياه القنال وفي صحارى وروابي الشام. وبلاد الرافدين وفي جنوبنا العربي.

. . . ما أكبر أن يكون العربي عزيزاً، كريماً، شامخاً رأسه راكعاً لله وحده، مسبِّحاً بحمد الله وحده لا شريك له لا في الشرق ولا في الغرب.

أحلى الساعات وأهمها أن نتحلَّق جميعاً حول مذياع «صوت العرب» فالموعد حان مع الزعيم والقائد ليبدأ خطابه بـ :

«أيها الإخوة المواطنون»

. . . ما أعذب وأمتع أناشيد وأغاني ذاك العصر وكلها تعبِّر عن العزة والكرامة والوحدة:

الله أكبر، دع سمائي، وحدة ما يغلبها غلاَّب، الوطن العربي، أحلف بسماها، بالأحضان، المارد العربي، ناصر يا حرية. . والعشرات بل المئات.

وما أبعد اليوم عن الأمس.

. . . ما أروع التحدِّي والانتصار في الجلاء ودحر العدوان الثلاثي وفي كسر احتكار السلاح وتأميم القناة وإعلان الوحدة بين مصر وسورية وبناء السد العالي وتوزيع الثروة على الفلاحين «الغلابة» وأبواب الجامعات والدولة كلها مشرَّعة لهم بعد أن أقفلوها أمامهم.

. . . ما أجمل البلاغ رقم واحد ومارشاته العسكرية في طرابلس الغرب ودمشق وبغداد وصنعاء والخرطوم وهو يعلن الإطاحة بالحكم البائد باسم الجماهير والحرية والوحدة وفلسطين دعماً وسنداً لجمال عبد الناصر.

. . . ما أحلى انتصار ثورة الجزائر ولبنان وجنوب اليمن وجلاء الفرنسيين عن بنزرت في تونس واستقلال المغرب ودول الخليج العربي ووضع البترول العربي السعودي في خدمة المعركة ضد إسرائيل والغرب الاستعماري.

. . . ما أجملها من لوحة مشرفة في الضمير والوجدان العربيين عندما التحمت جيوش الأمة العربية كلها من المحيط إلى الخليج على جبهات القتال ضد العدو الصهيوني، فهبَّت جيوش المشرق والمغرب العربي لتذود عن قلب الوطن العربي في العام ١٩٦٧م.

. . . ما أعظم عصر الكبار: ناصر ولومومبا ونكروما وتيتو ونهرو وسوكارنو وسيكوتوري وغيفارا وشوان لاي والملك فيصل وهم يقودون حركة الحرية والحياد لكل شعوب العالم رفضاً للانحياز لأحد المعسكرين.

ذلك كله كان في عصر عبد الناصر، كان حلماً جميلاً وكان تاريخاً مجيداً.

ثمانية عشر عاماً والثورة تنتقل من انتصار إلى انتصار، والأمل يكبر والعنفوان والكرامة تكبران أيضاً معه.

حتى في عز النكسة ومرارة الهزيمة خيانة كانت لأي عربي حتى بالتفكير بالتفاوض مع العدو الصهيوني، حلمنا وعزتنا وكرامتنا وانتصاراتنا حتى دماء شهدائنا لم تكن كلها تسمح لنا بذلك.

حتى هزيمة الـ ٦٧ والاحتلال الصهيوني لأجزاء واسعة من أرضنا العربية لم نكن نعترف بها ولا بآثارها.

بل معه وخلفه سرنا نردِّد «لا صلح، لا اعتراف، لا مفاوضة».

الله. . . ما أروعها شهادة أن نحيا في عصر عبد الناصر.

تركي ضاهر

لقد أعطيت لهذه الثورة عمري..
وسيبقى لهذه الثورة العربية عمري
ولسوف أبقى هنا ما أراد الله لي أن أبقى
أقاتل بجهدي كله من أجل مطالب
الشعب... وأعطي حياتي
كلها لحق الجماهير في الحياة
.. لقد أعطتني هذه الأمة من
تأييدها ما لم يكن يخطر بأحلامي..
وليس عندي ما أعطيه غير كل
قطرة من دمي..

جمال عبد الناصر

1

دراسات وشهادات ومحطات حاسمة

الباب الأول

جمال عبد الناصر...

البطل التاريخي، الإنسان والرئيس

البطل التاريخي

محمد حسنين هيكل

«إنه، بكل عظمته، لم يصنع مصر، ولكن مصر، بكل عظمتها، هي التي صنعته، ولو ولد في غير مصر لما ظهر، ولو ظهر في غير مصر لما استطاع... دوره كله جزء من قدرها التاريخي.

إن دور البطل ظاهرة مؤقتة في التاريخ، ويجب أن يكون كذلك، لأن الأصل والأساس، الباقي والخالد، هو الشعب.

وأن يكون دور البطل ظاهرة مؤقتة في التاريخ، فذلك لا يعني أنه فلتة أو صدفة، وإنما البطل في الأمة الحيَّة ظاهرة طبيعية، وإن لم تكن كظواهر الشروق والغروب، تتكرَّر كل يوم.

إن البطل إنسان تتسع همته لآمال أمته، وهي في فترة خطر، تستودعه كل سرها، وتعطيه كل طاقاتها، لكي يتقدَّم باسمها، ويواجه ويقتحم، وهي بعد الخطر تسترد سرها، وتأخذ طاقتها، لأن مسيرتها تصبح بالضرورة أعرض من دور البطل.

كان البطل في التاريخ جسر عبور لأمته، من القلق إلى الشجاعة... من الحيرة إلى التقدم... مما كان إلى ما يجب أن يكون أو في اتجاهه على الأقل».

ولقد يُقال إنه كانت في دور جمال عبد الناصر بقية.

كنا نتمنَّى على الله أن يتركه بيننا، حتى يقود زحف التحرير ويشهد يومه.

كنا نتمنَّى ذلك لنا وله على الأقل، يرى النتيجة التي عمل من أجلها، لكن مشيئة الله فوق كل الأمنيات.

ثم نتذكَّر أن جمال عبد الناصر أدَّى في الحقيقة، كل دوره أو معظمه.

وعندما نسأل أنفسنا: ما هو الدور الذي حقَّقه عبد الناصر؟.. فإننا يجب أن نستشرف أفقاً واسعاً، ذلك أن المعركة التي نخوضها الآن، أزمة سوف تمر، وحدتها في وجداننا تجيء من أننا ما زلنا فيها، لكنها سوف تمضي، كما مضت قبلها الأزمات في تاريخ الأمم الحية، ودور جمال

عبد الناصر ـ عندما نستشرف الأفق الواسع ـ نتجاوزها في الحقيقة.

إن هناك إنجازين بارزين في دور عبد الناصر، من وجهة نظر الحركة العامة للتاريخ:

أولهما: أنه وصل مصر بأمتها العربية.

ثانيهما: أنه وصل أمته العربية بالعالم وبالعصر.

هذا، وتحته تندرج كل التفاصيل، وتتعدَّد معارك حربه التي لم تتوقف يوماً قبل رحيله، ولا أظنها سوف تتوقَّف بعد الرحيل.

إن جمال عبد الناصر كان نتيجة تحديات كثيرة وكبيرة، خاضها ونجح فيها شخصية البطل التاريخي وكان اتصاله بجماهير الأمة العربية مباشراً ولم تكن الجماهير تفرِّق بين وجودها ووجوده، بين انتصارها وانتصاره وبين هزيمتها وهزيمته.

إن جمال عبد الناصر كان شخصية عالمية كاملة وكان تأثيره قادراً على اقتحام حدود وحواجز بعيدة يصل وراءها إلى أكبر مما تصل إليه سلطة الدولة التي كان يحكم فيها.

كان عبد الناصر أمام العالم الخارجي تعبيراً ظاهراً عن الرأي الغالب في أمة عربية بأسرها.

وكان جمال عبد الناصر داخل الأمة العربية تعبيراً ظاهراً عن الرأي الغالب لهذه الأمة.

كان ناصر في وجوده وبطبيعة دوره التاريخي، يستطيع أن يكون وحده دائرة الحوار، وقد أثبت ذلك فعلاً في مواقف حاسمة في قصة نضاله وأعماله، ويجب أن تكون هذه النقطة أيضاً موضع دراسة مستفيضة عندما يحين الوقت لاستكشاف الأبعاد الرحيبة لهذه الشخصية الضخمة.

كان جمال عبد الناصر هو التجسيد لسلطة الشعب وبعد رحيله فإن تجسيد هذه السلطة لا يكفلها غير ضمان الدستور والقانون.

أن عبد الناصر، كان شخصية تاريخية ومن بعده فليس هناك أشخاص تاريخيون .

مذكراتي

بقلم: جمال عبد الناصر

«أنا جمال عبد الناصر أفخر بأن عائلتي لا تزال في بني مر مثلكم.. تعمل وتزرع وتقلع من أجل عزة هذا الوطن وحريته.

إنني أفخر دائماً بأنني واحد من أهالي بني مر، وأنا أقول هذا لأسجّل أن جمال عبد الناصر نشأ في عائلة فقيرة؛ وأعاهدكم أن جمال عبد الناصر سيستمر حتى يموت فقيراً في هذا الوطن».

إنني الإبن الأكبر لأسرة مصرية.. من الطبقة المتوسطة الصغيرة.. كان أبي موظفاً صغيراً في مصلحة البريد.. مرتبه الشهري حوالي عشرين جنيهاً، وهو مرتب يكفي بصعوبة لسد ضرورات الحياة.

وُلِدتُ في الإسكندرية.. لكن ذكرياتي الأولى كلها في قرية «الخطاطبة» وهي قرية تقع بين القاهرة والإسكندرية حيث كان أبي يعمل وكيلاً للبريد.

كنَّا دائماً أسرة سعيدة.. يحكمها أبي.. وأمي، كنا نتفانى في حبها.. أنا وإخوتي.

وظللتُ مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيراً ما هتفت بها، طفلاً صغيراً حينما كنت أرى الطائرات في السماء:

«يا ربنا يا عزيز داهية تاخد الإنجليز».

إكتشفتُ فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك ولم تكن يومها منصبَّة على الإنجليز.. تغيَّر إسم الظالم.. كان أجدادنا يقولون:

«يا رب يا متجلّي.. أهلك العثملّي».

في سنة ١٩٣٣.. كنت تلميذاً في الإسكندرية، لم أبلغ بعد الخامسة عشرة من عمري. وكنت أعبر ميدان المنشية في الإسكندرية، حين وجدت اشتباكاً بين مظاهرة لبعض التلاميذ، وبين قوات البوليس. ولم أتردَّد في تقرير موقفي.. فلقد انضممت على الفور إلى المتظاهرين دون

أن أعرف أي شيء عن السبب الذي كانوا يتظاهرون من أجله..

ومرّت لحظات، سيطرت فيها المظاهرة على الموقف، لكن سرعان ما جاءت إلى المكان الإمدادات. لوريين من رجال البوليس لتعزيز القوة، وهجمت علينا جماعتهم..

لكني حين التفتّ هوت على رأسي عصا من عصي البوليس تلتها ضربة ثانية، سقطت. ثم سحبت إلى الحجز، والدم يسيل من رأسي.

ولما كنت في قسم البوليس، وأخذوا يعالجون جراح رأسي، سألت عن سبب المظاهرة فعرفت أنها مظاهرة.. للإحتجاج على سياسة الحكومة.

وقد مضى بعد ذلك زمن طويل، قبل أن تتبلور أفكاري ومعتقداتي وخططي. ولكن حتى في هذه المرحلة الباكرة كنت أعلم أن وطني يخوض صراعاً متصلاً من أجل حريته..

بعد اشتراكي في المظاهرة السياسية الأولى.. دخلت الميدان بكل جوارحي، وأصبحت رئيس لجنة لتنظيم المقاومة ولا سيما مقاومة السيطرة الساخطة. ولقد كان ذلك تنفّساً لعواطفنا الحادة ولشعورنا بالكبت الذي يضغط على وطننا.

في نهاية الأمر ضاق المسؤولون في المدرسة ذرعاً بنشاطي، ونبَّهوا أبي. وأرسلني أبي إلى القاهرة، لأعيش مع عمّي، وألتحق بمدرسة أخرى هناك.

أعجبتُ بسيدنا محمد ﷺ وبغاندي

أذكر أنني أعجبتُ في طفولتي بعدد كبير من الأبطال.. لقد أعجبني غاندي كثيراً، وعندما كنت صبياً أتلقّى دروس الديانة في المدرسة.. استحوذ سيدنا محمد عليه السلام كل إعجابي وتقديري، فقد كان قائداً وزعيماً، كرَّس حياته لخدمة قومه وتحريرهم من ظلمة الجاهلية وظلامها.

ومنذ عام ١٩٣٤.. بدأت أقرأ الكثير عن مصطفى كامل.. قرأت تاريخ حياته ومقالاته الوطنية الحماسية، ثم شرعت في قراءة مؤلفات توفيق الحكيم والدكتور طه حسين.

كنت أهتم إهتماماً خاصاً بقراءة كل ما يتصل بتاريخ مصر منذ القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى ذلك، قرأت مجموعة كبيرة من القصص والتراجم والأسفار.

كنت أجد متعة عند قراءة الكتب عن الثورة الفرنسية.. أعجبني فولتير وقرأت لشارلز ديكنز، وعندما كنت طالباً بالمدرسة الإبتدائية ساءني أن أقرأ في كتاب التاريخ، أن نابليون قد غزا مصر وأنه قد وضع مدافعه فوق تلال المقطم، وأمطر القاهرة بوابل من القنابل..

إني فلاح.. وما زالت عائلتي تشتغل بالزراعة في الصعيد، وإني لأذكر كيف كان الفلاحون

يشحنون في اللوريات أيام الإنتخابات. . إذ كان ملاّك الأرض يرسلون بهم إلى مراكز الإقتراع، والويل للقرية التي كان يجرأ واحد من أهلها على إعطاء صوته للمرشح المنافس لسيد المنطقة. وإزاء هذا المشهد. . لم أكن أعتقد مطلقاً أن ما أراه مظهر من مظاهر الديمقراطية.

وبدأت طلائع الوعي العربي. . تتسلّل إلى تفكيري. . وأنا طالب في المدرسة الثانوية، عندما كانت مشاعري تهتز وإحساساتي تتفاعل مع كل ما يدور في الوطن العربي من أحداث. . وكانت أهم الأحداث التي ملكت عليّ تفكيري في ذلك الوقت، هي ثورة العرب في فلسطين، ثم الفظائع التي كان يرتكبها الفرنسيون في سوريا.

كثيراً ما سئلت هذا السؤال: «متى أصبحت ثورياً لأول مرة؟» وهو سؤال تستحيل الإجابة عليه. . فهذا الشعور أملته ظروف تكويني وتنشئتي، وغذّاه شعور عام بالسخط والتحدّي، اجتاح كل أبناء جيلي في المدارس والجامعات، ثم انتقل إلى القوات المسلّحة.

في سنوات التكوين هذه. . شغلت اهتمامي كل الأحزاب السياسية التي كان هدفها الأول، أن تردّ للشعب المصري حريته، وقد انضممت إلى جماعة مصر الفتاة ولكني تركتها بعد أن اكتشفت أنها رغم دعواها العالية، لا تحقّق شيئاً واضحاً. وقد فوتحت في عدة مناسبات للإنضمام للحزب الشيوعي.

وقد كان لي اتصالات متعدّدة بالإخوان المسلمين رغم أني لم أكن قط عضواً في هذه الجماعة. . فقد كان في تصرّف الإخوان المسلمين ضرباً من التعصب الديني، وما كنت أرضى لا بإنكار عقيدي. . ولا بأن تحكم بلادي طائفة متعصبة. . كنت واثقاً من أن التسامح الديني لا بدّ وأن يكون ركناً أساسياً من أركان المجتمع الجديد الذي كنت أرجو أن أراه قائماً في بلادي.

وتبلورت مشروعاتي لمستقبلي، بعد عقد المعاهدة المصرية الإنجليزية عام ١٩٣٦ التي نجم عنها أن حكومة الوفد أصدرت مرسوماً يقضي بفتح الكلية الحربية للشبان، بصرف النظر عن طبقتهم الإجتماعية أو ثروتهم. وكنت أنا، مع نفر من الآخرين، الذين ظلّوا فيما بعد رفاقاً حميمين، من بين أول من استطاعوا الإنتفاع من هذا الوضع. . فالتحقت بالجيش بعد أن كنت أدرس في كلية الحقوق.

التخرج من الكلية الحربية

وتخرّجت بعد سنتين، في عام ١٩٣٨ من الكلية الحربية بالعباسية، برتبة ملازم ثان.

وعُيِّنتُ في حامية منقباد - وهي حامية بعيدة - بالقرب من أسيوط في الصّعيد. وذهبنا إلى منقباد، تملؤنا المثل العليا، ولكن سرعان ما أصبنا بخيبة الأمل. . فقد كان أكثر الضباط عديمي الكفاءة وفاسدين. وقد دفعت الصدمة بعض زملائي من الضباط إلى حدّ الإستقالة. أما أنا فلم

أرَ جدوى من الإستقالة رغم أن سخطي كان لا يقل عن سخط الآخرين. واتجه تفكيري بدلاً من ذلك إلى إصلاح الجيش وتطهيره من الفساد.

في عام ١٩٣٩ نقلت إلى الإسكندرية.

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية بزمن وجيز، نقلت إلى كتيبة بريطانية تعسكر خلف خطوط القتال، بالقرب من العلمين. وكان ذلك بقصد التدريب لعدة أشهر. وكانت هذه أول مرة أحتك فيها احتكاكاً حقيقياً بالبريطانيين كجنود وكأشخاص.

.. كان شعوري العميق بضرورة التخلّص من السيطرة البريطانية ومن النفوذ البريطاني.. بأي ثمن.

ترسيخ فكرة الثورة

في هذه الفترة.. رسخت فكرة الثورة في ذهني رسوخاً تاماً. أما السبيل إلى تحقيقها، فكانت لا تزال بحاجة إلى دراسة. وكنت يومئذ ما أزال أتحسّس طريقي إلى ذلك، وكان معظم جهدي في ذلك الوقت، يتجه إلى تجميع عدد من الضباط الشبّان الذين أشعر أنهم يؤمنون في قراراتهم بصالح الوطن.. فبهذا وحده كنا نستطيع أن نتحرّك حول محور واحد، هو خدمة هذه القضية المشتركة.

وفي عام ١٩٤٢، كانت بريطانيا تقاتل وظهرها للحائط وكانت في الصحراء الغربية الحرب تمر في مرحلة حيوية، وكان البريطانيون مصمّمين على أن تقوم في مصر حكومة تؤازرهم. وذهب السفير البريطاني «السير مايلز لامبسون» ليقابل الملك فاروق، بعد أن حاصر القصر بالدبابات البريطانية، وسلّم الملك إنذاراً يخيّره فيه بين إسناد رئاسة الوزارة إلى مصطفى النحاس مع إعطائه الحق في تشكيل مجلس وزراء متعاون مع بريطانيا، وبين الخلع..

وقد سلّم الملك بلا قيد ولا شرط.. كان ذلك في ٤ فبراير (شباط) ١٩٤٢.

ومنذ ذلك التاريخ.. لم يعد شيئاً كما كان أبداً.. وحين جاءني هذا النبأ في العلمين وما زلت أذكر انفعالي الشديد.. كتبت رسالة إلى صديق أقول: «ترى ماذا نحن فاعلون بعد هذا الحادث التعيس الذي قبلناه بتسليم قوامه الخنوع والمهانة الحقيقية... إن حوادث ٤ فبراير قد ألحقت العار بمصر، لكنها رغم ذلك ألهمتنا بروح جديدة، فقد أيقظت هذه الحوادث كثيرين وعلّمتهم أن هناك كرامة تستحق أن يدافع عنها الإنسان.. بأي ثمن».

كان عام ١٩٤٥ بالنسبة لي أكثر من مجرّد عام إنتهاء الحرب.. فقد شهد بداية حركة الضباط الأحرار.. تلك الحركة التي أشعلت فيما بعد شعلة الحرب في مصر، ليتحوّل استياؤنا وسخطنا المتزايد.. إلى خطة ملموسة للثورة.

وحتى سنة ١٩٤٨ . . ركّزت على تأليف نواة من الناس الذين بلغ استياؤهم من مجرى الأمور في مصر مبلغ استيائي . . والذين توافرت لديهم الشجاعة الكافية، والتصميم الكافي للإقدام على التغيير اللازم. وكنا يومئذٍ جماعة صغيرة من الأصدقاء المخلصين، تحاول أن تخرج مثلنا العليا في هدف مشترك وفي خطة مشتركة. . في تلك الفترة قرأت هارولد لاسلكي، ونهرو. . بل وانورين بيفان.

في مايو ١٩٤٨ أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين، وأحسسنا جميعاً بأن اللحظة جاءت للدفاع عن حقوق العرب ضد ما اعتبرناه انتهاكاً صارخاً لا للعدالة الدولية وحدها، ولكن للكرامة الإنسانية جميعاً.

إلى القدس متطوِّعاً

وفي دمشق - كان يجري تأليف فرقة من المتطوعين. ذهبت إلى مفتي القدس، الذي كان لاجئاً، يقيم في مصر الجديدة، وعرضت عليه خدماتي وخدمات جماعتي الصغيرة، كمدرّبين لفرقة المتطوعين وكمقاتلين معاً - فأجابني المفتي بأنه لا يستطيع أن يقبل العرض دون موافقة الحكومة المصرية، وبعد بضعة أيام، رفض العرض.

تضايقت، فقد كان هذا يتيح الفرصة أمام الضباط المصريين الشبان، ليثبتوا قدرتهم على العمل. وتقدمت بطلب إجازة حتى أتمكّن من الإنضمام إلى المتطوعين. . لكن قبل أن يبتّ في طلبي، أمرت الحكومة المصرية الجيش رسمياً بالإشتراك في الحرب.

لم يكن هناك تنسيق بين الجيوش العربية، وكان عمل القيادة على أعلى مستوى في حكم المعدوم، وتبيّن أن أسلحتنا في كثير من الحالات أسلحة فاسدة وفي أوج القتال صدرت الأوامر لسلاح المهندسين ببناء شاليه للإستحمام في غزة للملك فاروق. كنت شديد الإستياء من ضباط الفوتيلات أو محاربي المكاتب الذين لم تكن لديهم أية فكرة عن ميدان القتال أو عن آلام المقاتلين.

وصدرت الأوامر إليّ بأن أقود قوة من كتيبة المشاة السادسة إلى عراق سويدان، التي كان الإسرائيليون يهاجمونها، وقبل أن أبدأ في التحرك، نشرت تحركاتنا في صحف القاهرة. ثم كان حصار الفالوجا الذي عشت معاركه حيث ظلّت القوات المصرية تقاوم رغم أن القوات الإسرائيلية كانت تفوقها كثيراً من ناحية العدد.

الحرب في فلسطين والأحلام في مصر

وحين أحاول أن أستعرض تفاصيل تجاربنا في فلسطين، أجد شيئاً غريباً. . فقد كنا نحارب في فلسطين، ولكن أحلامنا كلها كانت في مصر. كان رصاصنا يتجه إلى العدو الرابض أمامنا في خنادقه، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب.

لم ألتقِ في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من أجل مصر، وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التي أنارت أمامي السبيل. وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني إلى مشاكلنا. . هذا هو وطننا هناك إنه فالوجا أخرى على نطاق كبير. إن الذي يحدث لنا صورة من الذي يحدث هناك، وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء وغرَّر به ودفع إلى معركة لم يعدّ لها. ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات. . وترك هناك تحت النيران بغير سلاح.

وقتل القائمقام أحمد عبد العزيز الذي كان قائداً للمتطوعين حين هوجمت سيارته وهو في طريقه إلى إجتماع في القدس. وكان أحمد عبد العزيز يقول دائماً: «إن المعركة الحقيقية في مصر».

كذلك أوشكت أنا أيضاً أن أقتل في الحرب. فقد جرحت مرتين وفي المرة الثانية مرّت الرصاصة بما لا يزيد عن خمسة سنتيمترات تحت قلبي، وبينما كنت طريح الفراش في المستشفى كانت أفكار كثيرة وتأملات تمرّ في خواطري.

ولقد اتضح لي عندئذ، أن المعركة الحقيقية هي بالفعل في مصر. . فبينما كنت ورفاقي نحارب في فلسطين، كان السياسيون المصريون يكدّسون الأموال من أرباح الأسلحة الفاسدة التي اشتروها رخيصة، وباعوها للجيش.

وأقمنا تنظيماً ونسَّقنا نشاطنا ببطء ونشبت في منطقة القتال حرب عصابات لتدمير المنشآت البريطانية وكنت أعلم أن عدم قيامنا بأية محاولة كبرى للإستيلاء على السلطة، قبل أن نستعدّ تماماً، أمر حيوي لنا وكان في نيتي أن نحاول القيام بثورتنا في ١٩٥٥.

وإزاء تطورات الحوادث العنيفة المتوالية في بداية سنة ١٩٥٢. . هنا نبتت فكرة ترى أن الحل الوحيد هو اغتيال أقطاب النظام القديم. وأذكر ليلة حاسمة في مجرى أفكاري، كنا قد أعددنا العدة للعمل واخترنا واحداً قلنا أنه يجب أن يزول من الطريق، وهو أحد قواد الجيش الذين تورَّطوا تورّطاً خطيراً في خدمة مصالح القصر. . ومع أن ميولي الطبيعية كلها كانت معارضة لهذه السياسة. .

أيمكن حقاً أن يتغيَّر مستقبل بلدنا إذا خلَّصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره، أم المسألة أعمق من هذا. .؟ المسألة أعمق. إننا نحلم بمجد أمة. إذن يجب أن يتغيَّر طريقنا. وغمرتني روح الإرتياح عندما قرأت في صحف الصباح أنه لم يصب حتى برصاصة واحدة. وقد وافقني الجميع على العدول عن هذا الإتجاه، وصرف الجهود إلى تغيير ثوري إيجابي. . وبدأنا نرسم الخطوط الأولى للثورة.

ولقد بدأ الحديث بسؤالين:

أولهما: ما الذي نريد أن نصنعه..؟

ثانيهما: ما هو طريقنا إليه..؟

الضباط الأحرار

وكان السؤال كيف السبيل إلى العمل. وكان السبيل إلى العمل، هو الثورة الشاملة. واشتدّ التوتر حتى بلغ قمّته.

وهنا بدأت معركة التعبئة الثورية وبدأنا نوالي إصدار منشورات «الضباط الأحرار» وكنا نطبعها ونوزّعها سراً.

كان السياسيون يتراشقون بالإتهامات، والأحداث تتطور بسرعة لا نملك السيطرة عليها.. والجماهير تعبّر عن غضبها وسخطها.

في العام السابق للثورة، عام ١٩٥١، تبلورت في ذهني القومية العربية، كمذهب سياسي، كنا ندرس في كلية أركان الحرب المشكلات الإستراتيجية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط، كنت قد قرأت تاريخ العرب منذ أقدم العصور، وعرفت أنه عندما كان العرب وحدة متماسكة استطاعوا رد المعتدين على أعقابهم كما حدث أيام الحروب الصليبية، ولكن بعد أن فرّق المستعمرون بين العرب أصبحوا عرضة للهزيمة وفريسة للسيطرة الأجنبية. وكانت هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني طوال فترة المناقشة في العام السابق للثورة سنة ١٩٥١ ـ التي كانت تدور حول وسائل الدفاع عن مصر ـ ولأول وهلة اتضح لنا أن مصر مثلها في ذلك مثل كل جزء من أجزاء الوطن العربي لا يمكن أن تضمن سلامتها إلا مجتمعة مع كل شقيقاتها في العروبة، في وحدة متماسكة قوية. والشيء الثاني هو أن موقع مصر الجغرافي والإستراتيجي الهام كان دائماً هو نقطة الضعف بالنسبة لها وأنه بالنسبة لهذا الموقع الممتاز تسابقت الدول إلى احتلالها. ففي عام ١٥١٧ احتلها الأتراك، لأنها كانت تسيطر على طريق التجارة والمواصلات إلى الشرق. ولنفس هذا السبب احتلها نابليون في عام ١٧٩٨ ثم بريطانيا عام ١٨٨٢. لذلك كان هدفنا هو أن نجعل من هذا الضعف قوة.

وقمنا بعد ذلك بدراسة ثروات العرب، وخاصة البترول، وعرفنا أن هذا البترول يمكن إستخدامه لصالح العرب وهذا هو نفس الذي حدث في القنال. وفي ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ حدثت مأساة حريق القاهرة ولم تتخذ السلطات المصرية أي إجراء، النحاس رئيس الوزراء لزم داره في جاردن سيتي، وظلّ فاروق في قصر عابدين. ولم تصدر الأوامر للجيش بالنزول إلا في العصر بعد أن دمّرت النار ٤٠٠ مبنى أنزلت بها خسائر فادحة وتركت ١٢,٠٠٠ شخص بلا مأوى وقد بلغت الخسائر ٢٣ مليون جنيه.

ولقد أحسست أن تأخير محاولتنا القيام بثورتنا حتى ١٩٥٥ مسألة مستحيلة . . فإن الحوادث تتحرَّك بسرعة والإستعداد الثوري أصبح متحفِّزاً. ثم أن هيبة فاروق كانت في الحضيض. لقد قدّرت أن الموقف ساعتها مناسباً.

إراقة الدماء تؤدي إلى المزيد من الدماء

وفي منتصف شهر يوليو دعوت الموجودين في القاهرة من أعضاء الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، إلى إجتماع وأبلغتهم بأن احتمالات القيام بالثورة مفتوحة للنجاح. ولم يكن رأيي إعدام الملك. فقد كنت أحسّ أن إراقة الدماء تؤدي إلى مزيد من الدماء، وكنت أريد للثورة أن تضع المقاييس التي ستحاسب دائماً بها.

ولم يكن في القاهرة إلا ثلاثمائة ضابط يمكن أن يناصرونا وبصورة محقَّقة. ولقد قرَّرت ألا أشرك الكثيرين من هؤلاء إشراكاً إيجابياً، فقد كان الإحتياط أمراً جوهرياً لنجاحنا. ومن ناحية أخرى، فلقد تصوَّرت أنه ربما كان خيراً لو تركنا قوة أخرى من زملائنا تغلي قلوبها بالثورة لتواصل العمل إذا ما أخفقت محاولتنا ورسمت الخطة الأساسية بعد إجتماعات عقدناها في بيوت عدد منا. كنا نريد أن نبدأ في التنفيذ بعد ٢٤ ساعة أي في ليلة ٢١ يوليو، لكن كان من المحال استكمال خطتنا على هذا الأساس. وبناء عليه أجّلت ساعة الصفر إلى الساعة الواحدة من صباح ٢٣ يوليو.

في نحو العاشرة من مساء ٢٢ يوليو جاء إلى بيتي ضابط من ضباط المخابرات، وعضو من جماعتنا وإن كنا لم نخطره بما اعتزمنا القيام به لتحذيري بأن القصر قد تسرَّب إليه نبأ استعداد الضباط الأحرار للتحرك وأنه قد اتصل برئيس أركان حرب الجيش الذي دعا إلى عقد إجتماع عاجل في الساعة الحادية عشرة لاتخاذ الإجراءات ضدنا. وكان لا بد من اتخاذ قرار فوري. فقد يدركوننا قبل أن ندركهم. وكان من أصعب الأمور الإتصال بكل من له صلة بالموضوع أن خطتنا كلها في خطر ولم يبق على ساعة الصفر إلا تسعون دقيقة، إن خطة الثورة كلها تدخل في مرحلة من تلك المراحل الخطيرة في التاريخ عندما تدخل قوى أكبر منا لتوجيه الحوادث ولقد تأكد لي من تطورات الأمور أن عناية الله كانت تلك الليلة معنا. فقد انطلقنا لنتوجّه إلى ثكنات ألماظة كحل أخير.

وفي طريقنا التقينا بطابور من الجنود قادمين من نفس الطريق تحت الظلام، وأخرجنا الجنود من السيارة وألقوا القبض علينا.

لكن الجنود كانوا في الحقيقة من قوات الثورة، وكانوا ينفّذون أوامري بالقبض على كل ضابط فوق رتبة قائمقام دون مناقشة ولم يكن الجنود يعرفون من أكون، فتجاهلوا كل كلامنا لمدة عشرين دقيقة تقريباً، كل دقيقة منها أثمن ما يكون. ولم تصدر الأوامر فوراً بإطلاق سراحي إلا

حين تقدَّم البكباشي قائد المجموعة وأحد زملائي المقرَّبين ليستطلع سر الضجة.

ولم أسعد برؤية أحد في حياتي، كما سعدت حين رأيته يخرج من الظلام، قلنا له ما الذى حرَّكك بدري؟ قال الميعاد الساعة ١٢. قلنا له الميعاد الساعة الواحدة. قال على العموم أنا أتحرَّكت الساعة ١٢. وانضممنا إلى الطابور وقرَّرنا ألاَّ ننتظر واتجهنا فوراً إلى القيادة. وكانت قواتنا لا تزيد عن قوة سرية، لكن عنصر المفاجأة كان في جانبنا.

ثورة ٢٣ يوليو

يوم ٢٢ يوليو كنت أتحرَّك بالعربية من كوبري القبة إلى الروضة وإلى الجيزة وإلى مصر الجديدة أو إلى سراي القبة.. كانت كل ذرّة من إحساسي تشعر بالحال التي كنا وصلنا إليها. كانت الوزارات تباع وتشترى، كانت الأحزاب والقصر والسفارة البريطانية بتحكم.

بعد الحرب العالمية الثانية خرجت الشعوب تقاتل من أجل حريتها ومن أجل استقلالها وكنا نحن نصدر البيانات ونتفرَّج نقول مفاوضات. مفاوضات صدقي بيفن. تصريحات وبيانات وكلام إن دلَّ على شيء فعلى أن الإنجليز سيبقون في بلادنا إلى الأبد. وكان السؤال كيف السبيل إلى العمل؟ وكان السبيل إلى العمل هو الثورة الشاملة.

وفي الطريق اعتقلنا عدداً من قادة الجيش، الذين كانوا يحضرون الإجتماع في القيادة لتوجيه الضربة ضدنا. وحدثت مقاومة قصيرة خارج القيادة ثم اقتحمنا مبنى القيادة نفسه ووجدنا رئيس هيئة أركان حرب وكان على رأس المائدة يضع مع مساعديه خطة الإجراءات التي ستتخذ ضد الضباط الأحرار وقبضنا عليهم جميعاً. وفي الثالثة صباحاً التقت نفس مجموعة الضباط الذي كانوا التقوا قبل ذلك بعدة أيام. التقوا من جديد، لكن التقاءهم هذه المرة.. كان في حجرة الإجتماعات بالقيادة العامة.

وفي السابعة صباحاً أعلنَّا على الشعب المصري من محطة الإذاعة نبأ عزل الوزارة المصرية، وأن البلاد أصبحت أمانة في يد الجيش، وأن الجيش أصبح الآن تحت إشراف رجال يستطيع الشعب أن يثق ثقة تامة في كفاحهم ووطنيتهم.

ووقع الملك وثيقة التنازل عن العرش مرتين، بعد أن قرأها وقَّعها أوَّل مرة ويده ترتعش، فاضطرَّ إلى توقيعها من جديد.

لقد نجحت العملية الأولى للثورة.

وبقي علينا أن نجعل المستقبل يستحق كل هذا العناء..

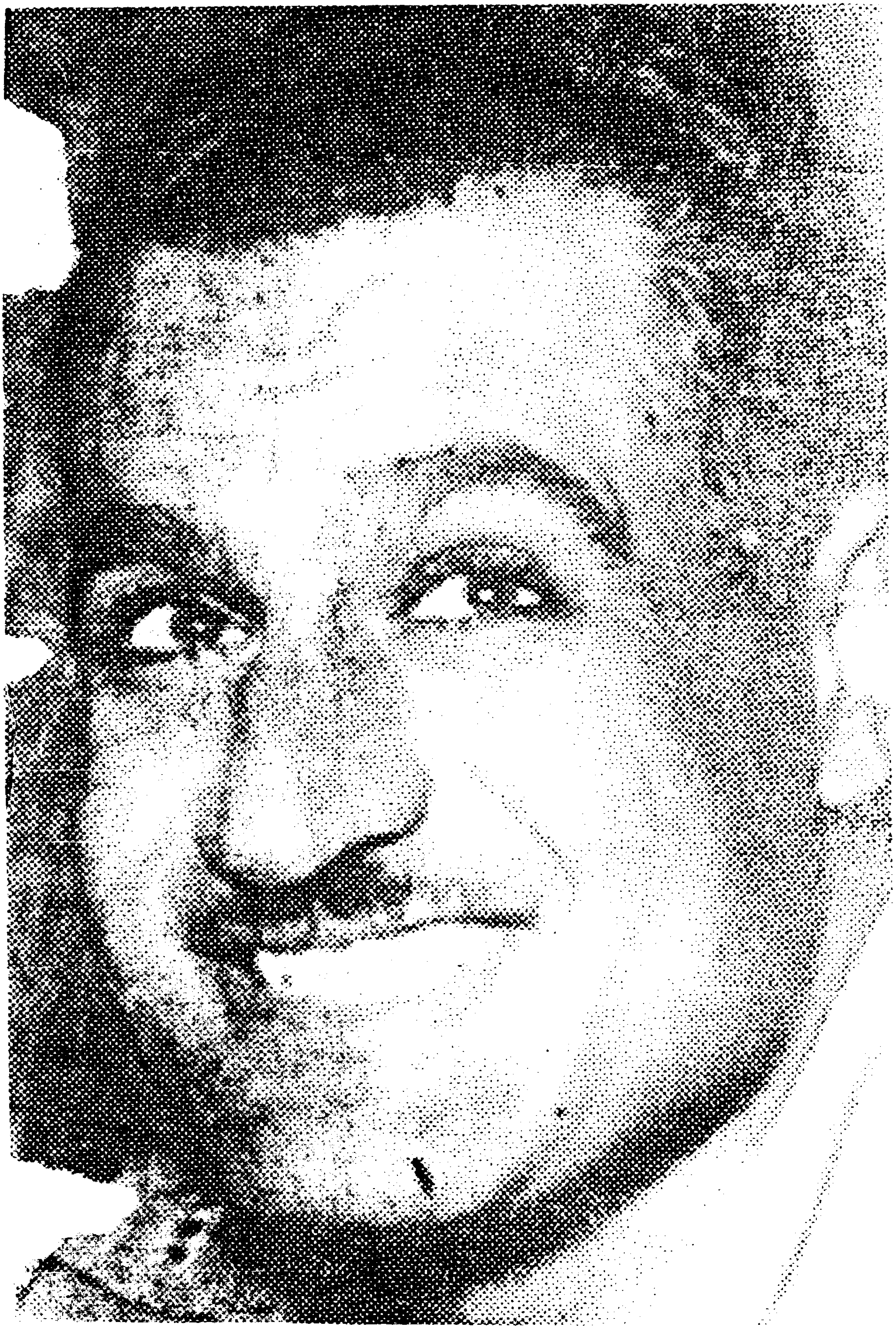

الصورة الأولى لقائد الثورة جمال عبد الناصر

السجل الحافل: حياته ونضالاته

ولد بالإسكندرية من أسرة تنتمي إلى بلدة بني مر بأسيوط، نشأ وتعلّم بالإسكندرية وبالقاهرة. التحق بالكلية الحربية عام ١٩٣٧ ورقّي ضابطاً (١٩٣٨). عُيِّن بسلاح المشاة بأسيوط، ثم نقل إلى الإسكندرية. عمل بالعلمين وبالسودان، ثم عُيِّن مدرساً بالكلية الحربية والتحق دارساً بكلية الأركان وعُيِّن مدرساً بها ثم اشترك في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨. حوصر مع رفاقه في الفالوجة، وبدأ يخطط للتنفيذ العملي للثورة المصرية ضد الفساد والخيانة. أخذ ينظّم جماعة «الضباط الأحرار» الذين قاموا في ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ بالثورة. في حزيران (يونيو) ١٩٥٤ تقلّد منصب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، وفي شباط (فبراير) ١٩٥٤ عُيِّن رئيساً للوزارة. أصدر كتاب «فلسفة الثورة». وفي عام ١٩٥٥ لعب دوراً هاماً في مؤتمر باندونغ، حيث انطلقت دعوة الحياد الإيجابي من دول آسيا وإفريقيا وتطوّرت إلى مبدأ عدم الإنحياز، فكان له دور بارز فيها. وفي العام نفسه، كسر احتكار السلاح بعقد أول صفقة أسلحة مع الكتلة الشرقية. رفض سياسة الأحلاف: حلف بغداد ومشروع أيزنهاور. وفي عام ١٩٥٤ وقّع معاهدة مع إنكلترا لجلاء القوات البريطانية من قاعدة القنال بعد استعمار ثلاثة أرباع قرن (١٨٨٢ ـ ١٩٥٦).

وتمّ الجلاء عام ١٩٥٦. وفي هذا العام أصدر مشروع دستور جديد وتمّ استفتاء شعبي على الدستور وعلى رئيس الجمهورية، واجتمع (١٩٥٧) أول مجلس أمة بعد الثورة. وفي ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦ أمّم قناة السويس على أثر انسحاب البنك الدولي وأميركا وإنكلترا من تمويل بناء السد العالي. وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٦ اعتدت إسرائيل وفرنسا وإنكلترا على مصر كرد فعل على تأميم القناة، فرفض الإنذار النهائي الذي قدّمته إنكلترا وفرنسا، ودعا إلى مقاومة الغزو في بور سعيد. آزرته حركة التحرر العربي، ولما صدر قرار من هيئة الأمم المتحدة بانسحاب الجيوش المعتدية كانت زعامته العربيّة قد تأكّدت. وفي شباط (فبراير) ١٩٥٨ قامت أول وحدة عربية متحدة بين مصر وسوريا. ثم قام إتحاد فيدرالي بين الجمهورية الجديدة واليمن. وفي ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٦٣ وقع ميثاق الوحدة بين العراق وسوريا ومصر. وفي ٢٦ تموز (يوليو) عام ١٩٦١ أصدر قرارات اشتراكية واسعة النطاق أنزلت الحد الأعلى للملكية الزراعية

على مائة فدان وأممت المؤسسات الكبيرة إكمالاً لعملية التأميم والتمصير التي سارت بسرعة منذ فشل العدوان الثلاثي (١٩٥٦) وتحللت مصر من كل اتفاقاتها السابقة مع انكلترا وفرنسا خاصة، كما حدّدت ملكية الأسهم وأصبح للعمال والفلاحين نصف المقاعد في المجالس المنتخبة على الأقل، ودخلوا مجالس إدارات الشركات. وفي أيار (مايو) ١٩٦٢ صدر الميثاق الذي أقره المؤتمر الوطني لقوى الشعب العاملة وفيه التزام بالخط الثوري الذي يقوم على الإشتراكية العلمية والقومية العربية. وفي هذا المؤتمر أعلن نظام الإتحاد الإشتراكي العربي ليحل محل الإتحاد القومي سنة ١٩٥٧ وهيئة التحرير سنة ١٩٥٢. وفي المجال العربي ساند ثورة الجزائر (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢) على الإستعمار الفرنسي بالعتاد والرجال. كما ساند ودعم في عام ١٩٥٨ ثورة لبنان ضد حكم كميل شمعون المرتبط حينها بحلف بغداد. كما ساند بالعتاد والجيش ثورة اليمن على حكم الإمامة سنة ١٩٦٢ حتى تثبيت حكم الجمهورية. وفي المجال الإفريقي شارك الرئيس في مؤتمرات دول الدار البيضاء سنة ١٩٦٢، وأديس أبابا سنة ١٩٦٤، حيث وضع ميثاق الوحدة الإفريقية. وشارك في مؤتمر بلغراد عام ١٩٦١. ووقّع اتفاقيات اقتصادية وثقافية مع كثير من البلدان الحديثة الإستقلال سافر إلى الهند وإلى يوغوسلافيا وروسيا، وشارك بشكل بارز في دورة هيئة الأمم المتحدة (١٥) سنة ١٩٦٠. وفي حزيران (يونيو) ١٩٦٧ أصيبت مصر بهزيمة عسكرية قدّم على أثرها استقالته[١]، فرفضتها جماهير الشعب في مصر والوطن العربي في يومي ٩ و ١٠ حزيران (يونيو). شن حرب الإستنزاف من ١٩٦٨ حتى أيار ١٩٧٠. توفي فجأة في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ بعد إنتهاء مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في القاهرة خلال أحداث أيلول في عمّان.

---

١ ـ خطاب الاستقالة والعودة عنها في مكان آخر.

عبد الناصر .. الإنسان I

الدكتور منصور فايز (*)

الطبيب الخاص للرئيس عبد الناصر

لا يكتمل عن عبد الناصر حديث، ما لم يتعرَّض لجانب أساسي، وهو صورة جمال عبد الناصر بعيداً عن السياسة. وربما لا أتجاوز إن قلت إن ذلك، هو المدخل الصحيح لفهم الكثير من شخصية جمال عبد الناصر.

فمن لم يعرف جمال عبد الناصر من قرب، لا يرى فيه سوى زعيم قوي، وإرادة حديدية، وقائد يتحدث من وراء مكبر الصوت تلك هي الصورة الشائعة عن جمال عبد الناصر عند من لم يعرفوه، مؤيدين كانوا أم معارضين.

فمؤيدوه يرون فيه القوة والحسم. يعجبون بولائه للجماهير العريضة في وطنه، وإخلاصه في العمل من أجلهم، والتزامه بقضاياهم، يضربون المثل بوطنيته، ويشيدون بابتعاده، في حياته الشخصية عن الترف، وحصانته ضد الزلل.

ومعارضوه يرونه دكتاتوراً قوياً وحاكماً بأمره. ويدفعون إلى آخر المدى بمقولة إن الحاكم مسؤول عن جميع الأخطاء التي تقع في عهده، متغاضين عن أن الحاكم بشر. وأن في عالم السياسة دائماً، واقعاً يحكم وظروفاً تتحكم، وتوازنات تراعى.

ولست هنا بصدد تقييم عبد الناصر حاكماً. ولكن مما لا شك فيه أن المقارنة بين إنجازات عبد الناصر على الخريطة السياسية والإجتماعية في مصر والوطن العربي، وبين أخطاء عهده، ترجح كفة الأولى. وتؤكد أن الرجل كان علماً من أعلام عصره.

فحديثي، في هذا المقام، سوف يقتصر على البعد الغائب في الصورة الشائعة لجمال عبد الناصر. وأظن هذه الصورة ناقصة عند مؤيديه، خاطئة عند معارضيه. فهي، في الحالين، تنقصها الحياة، وتفتقد نبض عبد الناصر الإنسان. وأستطيع القول إنني رأيت عن قرب هذا البعد الأساسي في جمال عبد الناصر، بحكم مهنتي كطبيب لازمته لفترات طويلة.

كان عبد الناصر قوياً في إرادته، قاسياً على نفسه، ملتزماً بمبادئه في تصرفه وفي حياته

الشخصية. فقد كان يعمل ليلاً ونهاراً، دون أن يعرف طعماً للراحة أو يشعر بمرور الوقت.

كانت حجرة نومه مكدّسة بالملفات، والأوراق في كل مكان. ولكنهما كانت دائماً منظّمة، منسّقة بفعل انضباطه وعسكريته. وبجوار سريره، كان الراديو يذيع طوال النهار وحتى الساعات المتأخرة من الليل نشرات الأخبار التي كان يتابعها باهتمام، سواء بالإنجليزية أم بالعربية.

وكان عبد الناصر لا يعترف بنظام عطلة نهاية الأسبوع. وإن كان يقول لي إنه معجب بالرئيس تيتو، لأنه مواظب على منح نفسه إجازة من العمل، في نهاية الأسبوع، مهما كانت الظروف.

وكان يذهب، من آنٍ لآخر، للإستجمام، إلى استراحة القناطر الخيرية التي كانت في الأصل تابعة لتفتيش الري. وبقيت في عهد عبد الناصر دون أن يدخل عليها تغيير يذكر. ولكنه لم يكن ينقطع عن العمل هناك، وإنما كان يروّح عن نفسه لساعة أو بعض الساعات بأن يتمشى في حدائق القناطر بعد الظهر.

كما كان يذهب إلى استراحة المعمورة، في الإسكندرية، في فصل الصيف. ولكنه أيضاً كان يقضي وقته في العمل المستمر. وحتى خلال الرحلات الخارجية، كان لا يغادر إلا لحضور الإجتماعات الرسمية.

وحتى إثر إصابته بالأزمة القلبية الأولى أوصيناه بالراحة وبعدم إجهاد العقل. فقال: «يمكنكم أن تمنعوني من الحركة، ولكن لا يمكنني أن أوقف عقلي عن التفكير فيما حولي من مشاكل». وحين تماثل للشفاء، اقترحت عليه أن يأخذ إجازة من العمل، وأن يسافر إلى جزيرة بريوني في يوغسلافيا للإستجمام، لكن ظروفه لم تسمح بذلك؛ فلقد كان يسابق الزمن لبدء معركة التحرير في العام التالي.

وكان ذهن عبد الناصر مشغولاً دائماً بالمشكلات. وكان يقول لي ضاحكاً: «ربنا خلقني للمشاكل». وأذكر قوله يوم أن علّقت على كمية ما يفكر فيه من قضايا ومشكلات في وقت واحد. «أنا برتب المشاكل إلى آجلة وعاجلة. وبالطريقة دي لا أجعل المشاكل الآجلة تقلقني كثيراً أو تلح على ذهني طول الوقت، لتترك لي مجالاً لأفكر في المشاكل العاجلة التي تبقى ضاغطة على تفكيري حتى أتخذ فيها القرار المناسب».

ونتيجة ضغط العمل المستمر، لم يكن لدى عبد الناصر الوقت، لهوايات يروّح بها عن نفسة. ولكنه كان حريصاً على سماع السيدة أم كلثوم التي كان يقدّرها، ويسألني دائماً عن صحتها.

وكان عبد الناصر حريصاً على متابعة الصحف اليومية، وإبداء ملاحظات عليها لرؤساء التحرير. وأذكر أنه لاحظ إثر ثورة السودان عام ١٩٦٩، أن إحدى الصحف اليومية نشرت خبراً عن الرئيس نميري في صفحة داخلية، فطلب من رئيس التحرير، المزيد من الإهتمام بالسودان، ونشر أخباره في الصفحة الأولى.

ومن أبرز ما لمست في جمال عبد الناصر، أنه كان رب أسرة مثالياً، برغم مشاغله الجمة التي كانت تستغرق معظم وقته. وكان يقول لي أن أسعد أوقاته، هي تلك التي يقضيها مع السيدة حرمه وأولاده. وكان يحرص، بقدر ما تسمح الظروف، على أن يجتمعوا معاً على الغداء. وكان عبد الناصر يفضّل الطعام الذي تقوم السيدة حرمه بطهيه بنفسها.

وكان جمال عبد الناصر شديد الحب لأولاده، حريصاً على مراعاة مشاعرهم. وأذكر أنه كان مريضاً، في الوقت الذي وضعت فيه كريمته السيدة منى مولودها «جمال» في مستشفى الدكتور علي إبراهيم، فاتصل بالمستشفى وطلب تأجيل خروجها لمدة يومين، لحين شفائه حتى يزورها في المستشفى، ويظهر معها في الصورة، على غرار ما فعل مع إبنته السيدة هدى، حين وضعت ابنتها «هالة».

وبرغم الحب الشديد لأولاده، فإنه لم يكن يقبل عمل أي استثناء لهم. فابنته منى اضطرت لدخول الجامعة الأميركية، حيث لم يؤهلها مجموع درجاتها في الثانوية العامة، لدخول الجامعة المصرية. في حين التحقت ابنته الكبرى هدى بكلية الإقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، بناءً على مجموع الدرجات الذي حصلت عليه.

وكان جمال عبد الناصر محافظاً، ولم يكن رجعياً. لذلك فهو لم يكن ممانعاً، كما تردد، في ظهور السيدة حرمه في الحفلات الرسمية، حين تتواجد قرينات الرؤساء الضيوف. ولكن حدث أن حضرت السيدة حرمه حفل استقبال رسمي للإمبراطور هيلاسيلاسي، وأصيبت أثناء الحفل، بنوبة إضطراب في ضربات القلب، وظلت تعاني منها. وهذا ما منعها من الظهور في الحفلات الرسمية بعد ذلك.

وقد روت لي السيدة، حرم جمال عبد الناصر، أنه حين تقدم لخطبتها، ذهب لزيارة أسرتها بمنزلهم أولاً حيث رآها. وبعدها تحدد موعد الخطوبة كما هو متبع عادة، وحين قدم لها دبلة الخطوبة، لاحظت أنه لم يكتب عليها تاريخ اليوم الذي تم فيه الإحتفال بالخطوبة، وإنما كتب عليها تاريخ الزيارة الأولى التي رآها فيها لأول مرة، لأنه التاريخ الذي قرر فيه الإرتباط بها. فكانت لفتة رقيقة منه نحو شريكة حياته.

وكان عبد الناصر باراً بأهله، وخصوصاً والده. وكان دائم السؤال عنه والإهتمام بصحته، رغم كثرة مشاغله. كما كان حريصاً على شعور من يعمل معه.

وأذكر أنه في صيف ١٩٦٧ لم يسافر جمال عبد الناصر إلى الإسكندرية، كعادته كل سنة، واضطررت أن أبقى معه في القاهرة.. ولكنه ظل يطلب مني أن أسافر إلى الإسكندرية، لعلمه بأن عائلتي هناك.

ومن الطريف، أنه صمم في إحدى المرات على أن أسافر إلى الإسكندرية «بالأمر» لأرى

عائلتي. واتصل جمال عبد الناصر بمكتبه، يسأل عن مكان وجودي، ليطمئن على أنني قد سافرت. ولكن من تلقى رسالة عبد الناصر، في مكتبه، فهم أنه يريدني لمقابلته. فاتصل بمنزلي في الإسكندرية طالباً عودتي إلى القاهرة فور وصولي، لأن الرئيس يطلبني. وبالفعل عدت على الفور، لأجد أن جمال عبد الناصرلم يكن يريد سوى أن يتأكد من سفري إلى الإسكندرية.

وحدث أن مرض نجله عبد الحميد بالصفراء، وكان قد حضر من الإسكندرية للعلاج. واتصلوا بي في العيادة، بمجرد وصوله إلى القاهرة، طالبين مني الحضور فوراً. وحين علم عبد الناصر، اتصل بي بنفسه في العيادة، وطلب مني عدم الحضور إلا بعد أن أنتهي من الكشف على مرضاي المنتظرين في عيادتي.

كما حدث أن مرض الرئيس السادات عام ١٩٦٩، وطلب مني أن أزوره للكشف عليه، في السادسة من بعد ظهر أحد الأيام. وفي صباح ذلك اليوم كنت عند جمال عبد الناصر الذي علم مني أنني سوف أذهب لأنور السادات بعد الظهر. فاتصل به الرئيس، وطلب منه أن يغير الموعد، لأنني في السادسة أكون في العيادة.

وخلال مرافقتي للرئيس، في رحلاته الخارجية، كان لا يفوته، وسط مشاغله أن يرتب لي زيارات لمعالم البلد الذي نزوره.

وحين مرض الدكتور أحمد ثروت، الطبيب المرافق للرئيس وتولى الدكتور الصاوي مهام عمله، كان يطلب من الدكتور ثروت الحضور معنا يومياً، حرصاً على شعوره، رغم أنه كان لا ينفذ إرشاداته.

كان جمال عبد الناصر غنياً بالمشاعر والعواطف. ولم تكن مشاغله لتنسيه السؤال عن أي مريض يعرفه. وحين أخبرته بمرض الدكتور السنهوري رئيس مجلس الدولة السابق - ٥٠ الإختلاف السياسي في أوائل الثورة - كان دائم السؤال عنه.

كما كان عبد الناصر شديد التأثر من المواقف اللا إنسانية. وقد أصيب بالأزمة القلبية عقب المذبحة التي نفّذها الإسرائيليون، ضد خمسة من جنود خفر السواحل، المتقدمة أعمار والمسلحين بمجرد البنادق.

كان جمال عبد الناصر يولي اهتماماً شديداً لاحتياجات الشعب وقضاياه. فقد السؤال عن مدى توافرالعلاج للقاعدة العريضة من الشعب. وكان يطالب الوزر دائماً بتخفيض أسعار الدواء. وبالفعل انخفضت أسعار المضادات الحيوية. وظ عموماً في مصر، متمشياً مع مستوى الدخل الفردي للغالبية الكبرى من الناس.

وذات مرّة أخذنا منه عيّنة دم وأرسلناها إلى ألمانيا مع الدكتور فيفر لإجراء تحليل معيّن ولما علم عبد الناصر بعدم إمكان إجراء هذا التحليل لمرض السكري في مصر، قرر بناء

لعلاج المواطنين من مرض السكري، وإجراء التحاليل والأبحاث الحديثة الخاصة بهذا المرض.

ومن المؤسف أنه بعد رحيل عبد الناصر توقف إنشاء هذا المبنى، ولم يتم اكتمال بناؤه إلا عام ١٩٨٧.

وفي أعقاب إصابة جمال عبد الناصر بالجلطة الأولى، جهّزنا، خلال فترة الراحة التي خضع لها جمال عبد الناصر، غرفة عناية مركّزة في حجرة بالدور العلوي بمنزله، لمواجهة أي طارىء، وحين علم عبد الناصر بذلك طلب أن نجهّز غرفة مماثلة للمواطنين في القصر العيني وفي الإسكندرية. وبالفعل كان لدينا اعتماد يسمح بذلك في القصر العيني، أما بالنسبة للإسكندرية فقد واجهتهم مشاكل التمويل. فأرسل الرئيس إلى الدكتور محمود صلاح الدين شيكاً من حساب التبرعات برئاسة الجمهورية بالمبلغ اللازم لعمل غرفة عناية مركّزة في مستشفى الإسكندرية الجامعي.

وكان جمال عبد الناصر بسيطاً يميل إلى المزاح، ولكنه لم يكن متساهلاً. فقد كان يمكن أن يغضب سريعاً في بعض الأحيان، وأن تصل تصرفاته إلى حد العنف إزاء محظورات لم يكن على استعداد أبداً لأنصاف الحلول بشأنها، أو التساهل إزاءها. مثل خيانة المبدأ، أو خيانة الأمانة، أو استغلال المركز، أو تعدي الحدود.

وكمثال هذه الحالة الأخيرة ـ تعدي الحدود ـ فقد حدث أثناء سفرنا بالطائرة إلى الرباط، لحضور مؤتمر القمة العربي، أن كان من المفروض أن يجلس مع الرئيس في الجزء الأمامي من الطائرة كل من السيد محمود رياض وزير الخارجية والفريق أول محمد فوزي وزير الحربية والسيد محمد حسنين هيكل وأنا. ولكن الرئيس لاحظ بعد فترة من الطيران أن أحد كبار موظفي رئاسة الجمهورية من أعضاء الوفد إلى المؤتمر، قد دخل إلى الجزء الأمامي، مخالفاً التعليمات، دون أن الرئيس؛ فما كان من عبد الناصر إلاّ أن أمر برجوعه إلى القاهرة، فور وصولنا الرباط.

جمال عبد الناصر لا يقبل التحدي. فقراره بتأميم شركة قناة السويس، عقب سحب ـرف الدولي عرضه بتمويل السد العالي، خطوة سياسية محسوبة وغير مسبوقة في العالم ـالث، ولكنها شاهد على صلابته إزاء التحدي.

ذات مرة، كنا في استراحة القناطر الخيرية، خلال تصاعد حرب الإستنزاف، وقام بغارات مركّزة على مدن القناة، رداً على عمليات العبور لقواتنا المسلحة في سيناء، إنه لا بد أن نواجه التصعيد بالتصعيد، وعلى قواتنا الجوية أن تتعامل مع المواقع في سيناء. . ورد السيد علي صبري ـ وهو ضابط طيار أصلاً ـ بأن لا داعي لذلك في ـذه المرحلة. ولم يعلّق عبد الناصر. وبعد يومين طالعتنا الصحف بأنباء إغارات قواتنا الجوية ـداف العدو في سيناء.

لم يقبل عبد الناصر معارضة علي صبري، فقد كان يرى ضرورة القيام بهذه الغارة، تصعيداً للموقف مع العدو.

وكان جمال عبد الناصر يضيق صدراً بالمناقشات غير الموضوعية، والتي كثيراً ما تقع في الإجتماعات التي يحضرها. وكان يقول لي: «فيه ناس تحب تتكلم لمجرد الكلام». وكان بطبيعته لا يؤمن بأهمية اللجان، وكان يقول: «أي موضوع عايز تركنه حوّله على لجنة».

وكان عبد الناصر يعلم أن الكثيرين يخشون معارضته في الرأي، في حين أنه كان يسعى للرأي الموضوعي، ويهتم بسماع النقد المنزّه عن الهوى. وذات مرة سألته: «هل ستعينّ فلاناً رئيساً للجامعة؟». فأجابني: «مش حاعيّنه.. أنا عايز واحد يعرف يقول لا». وكم أثيرت قضية أهل الثقة في مواجهة أهل الخبرة ذوي الآراء الصائبة ولكن غير المسموعة نتيجة مواقفهم غير المتعاونة مع الثورة! ولم يكن عبد الناصر مسؤولاً عن ذلك وحده.

وكان جمال عبد الناصر يؤمن بالقومية العربية، وبضرورة أن يكون للعرب سياسة متحررة، وموقف مؤثر حتى يمكنهم التحرر وامتلاك ثرواتهم، في مواجهة الأطماع المنظمة ضدهم. وكان عبد الناصر مؤمناً بحتمية الوحدة العربية. وبالرغم من تأثيره نفسيّاً وصحياً من وقوع الإنفصال عام ١٩٦١، فلقد استفاد من تجربة الوحدة المصرية السورية التي استعجلها السوريون خشية وصول الضباط الشيوعيين إلى الحكم فيها. وأصبح مفهوم الوحدة لديه يقوم على مضامين سياسية واقتصادية، وصار الطريق إليها يقوم على أساس التدرّج.

كان جمال عبد الناصر مؤمناً بالله وبقدره. وكان يتحامل على نفسه في إداء رسالته، باذلاً من الجهد ما يفوق طاقة البشر، رغم علمه بخطورة مرضه، وكان يقول: تلك إرادة الله وهذا قدري.

وشاء قدره أن يتم عبد الناصر البناء حتى النهاية، لتحقيق أمله الكبير في إزالة آثار العدوان وتحرير الأرض. ثم يرحل قبل أن يرى نتائج غرسه.

(*) ـ المصدر: كتاب مع عبد الناصر، دار الملتقى، طبعة ١٩٩١.

عبد الناصر..الإنسان II

محمود فهيم (*)

السكرتير الخاص للرئيس طوال ستة عشر عام

كلنا يعرف عبد الناصر القائد والزعيم والرئيس والذي كان شاغل الدنيا ومقعدها في ظروف صعبة، كان يموج بها وطننا العربي وكذلك العالم بأسره، ولكن قلة منا تعرفت على عبد الناصر الإنسان والمواطن كيف كان يعيش، متى يضحك ومتى يبكي وكذلك متى ينام وماذا يأكل وماذا يلبس.

جولة في حياة جمال عبد الناصر الإنسان والمواطن يسردها مرافقه وسكرتيره الخاص وظله الدائم طوال ستة عشر عاماً من حكمه وحتى الرمق الأخير:

بيت العمدة!

بعد أيام من التحاقي بالعمل في حراسة عبد الناصر عام ١٩٥٤ قرر تعييني سكرتيراً خاصاً للعمل مع محمد أحمد سكرتيره الخاص، وبذلك أصبحت أجمع بين الحراسة والسكرتارية الخاصة لجمال عبد الناصر.

حين كنت في طريقي من الإسكندرية إلى بيت عبد الناصر لأول مرة، كنت أتخيله قصراً أو منزلاً فخماً يليق بإسم عبد الناصر الذي كان يملأ الدنيا صيتاً وشهرة، ولكني فوجئت ببيت متواضع، أقرب ما يكون «لدار العمدة» أو شيخ الغفر في إحدى القرى المصرية.. وحين سألت عرفت أنه كان بيتاً لمدير المدرسة الثانوية العسكرية، وقد اختاره عبد الناصر ليقيم فيه بعد أن أصبح رئيساً لمصر، دون أن يضيف إليه أية تحسينات.

ولكن بعد أن كثرت زيارات زعماء العالم ورؤساء الدول إلى بيت عبد الناصر، بدأ يقتنع بأن البيت أضيق من أن يتسع لهذا العدد الكبير من الوفود الزائرة مما كان يسبب لنا ـ وله ـ الإحراج في كثير من الأحيان أمام زائريه من الأجانب.

إنتقل عبد الناصر إلى الإسكندرية في شهور الصيف، ريثما ننتهي من التحسينات المطلوبة في بيته ليصبح مناسباً لسكنى رئيس مصر، وأحد كبار الزعماء في العالم، وترك لنا الأمر دون أن يزودنا بأية تعليمات أو طلبات خاصة بهذا الشأن.

إتصلنا بالأشغال العسكرية فحضر إلينا المهندس علي السيد، وطلبنا منه عمل التحسينات والتوسعات اللازمة بالبيت على أن يقيم بالطابق الأرضي صالة كبيرة تصلح للإجتماعات أو إقامة المآدب، هذا ما قلته للمهندس علي السيد بخصوص تلك الصالة. أما ما كان يدور في ذهني وقتها هو أن تكون هناك صالة واسعة تصلح للعرض السينمائي، حيث كانت مشاهدة الأفلام هي متعة عبد الناصر الوحيدة في ذلك الوقت.

الطاهر والطاهرة!!

حين عاد عبد الناصر من الإسكندرية، لم تكن الأعمال بالمنزل قد انتهت بعد، فاضطر للسكن مؤقتاً بقصر الطاهرة، ريثما تنتهي التعديلات والإصلاحات في منزله، وفي صباح اليوم التالي استدعاني الرئيس بالتليفون وفي صوته لهجة غير عادية ذهبت من فوري إلى الرئيس بمكتبه بالقصر فوجدته متبرماً على غير عادته، وما أن رآني حتى سألني: البيت في منشية البكري أخباره إيه يا فهيم؟ فقلت له: لسه شوية يا ريس فقال غاضباً: أمال الجيار قال ليه أنه خلاص، لو كنت أعرف كدا ما كنتش حضرت من الإسكندرية، سألت الرئيس عما يضايقه فقال لي: أنا مخنوق هنا يا فهيم، مش عارف أنام، وكمان مش عايز أولادي ياخدوا على حياة القصور لأنهم حيطلعوا من عامة الشعب!!

نظر إلي الرئيس ثم قال: إذهب إلى الطباخين وقل لهم أن الرئيس لا يريد لحماً ودجاجاً مشوياً ومحمراً، أنه لا يريد أكثر من صنف واحد خضار وطبق أرز وقطعة من اللحم.. وفي العشاء لا أريد سوى الجبن والزيتون فقط لأني لا أريد كل هذا الأكل الذي يقدمونه لي.

الكارو والكاديلاك!!

ذات يوم كنا نتمشى بسيارته في أحد شوارع الإسكندرية، وفجأة ظهرت أمامنا عربية «كارو» يجرها حمار قطعت علينا الطريق، فطلبت من الرئيس أن يوقف السيارة بسرعة فأحدث صوتاً مزعجاً ولكنا توقفنا بالكاد قبل أن نصطدم «بالحمار» ووجدت الرئيس يطل من نافذة السيارة ويعتذر للرجل بالرغم من أنه هو الذي كان مخطئاً.

وفي إحدى المرات كنا ذاهبين إلى الإسكندرية بالطريق الصحراوي.. كان عبد الحكيم عامر يرافقه.. بينما كنت أنا في سيارة الحرس خلفهما.. وعند مدخل الإسكندرية أوقفنا عسكري مرور. ثم أخذ يدور حول السيارة «الكاديلاك» التي يركبها عبد الناصر يتفرسها بعينيه، ونزلت فوراً من سيارتي وتقدمت من العسكري لأنهره، ولكن عبد الناصر أسرع بإيقافي بإشارة من يده، ثم قال لي «خذ اسمه» وهنا انتبه عسكري المرور فجأة حين نظر إلى داخل السيارة فوجد عبد الناصر وعبد الحكيم عامر.. وكأن شللاً قد أصابه.

تركناه على حاله ومضينا في طريقنا، وقبل أن نقطع خمسين متراً وجدت عبد الناصر يتوقف

بسيارته فجأة، ليطلب مني أن أعود إلى العسكري وأطمئنه . . «لأن العسكري الغلبان مش حينام الليلة دي».

قال ذلك ثم مضى في طريقه!!

نصف كيلو سمك للرئيس:

لم يكن جمال عبد الناصر من ذلك النوع من الناس الذين يستمتعون بأكلهم، لم تكن لديه متعة الأكل أبداً. إذ أنه كان يأكل ليعيش أي أنه يتناول من الطعام ما كان يقدم له فقط . . ولم يكن لديه أي نوع يفضله على أنواع الطعام الأخرى فيما عدا الجبن الأبيض والزبادي وهو الطعام الوحيد الذي كان يكثر من أكله أكثر من غيره . . ولهذا فقد كان اهتمامنا الوحيد . . نحن المسؤولين عن حياة عبد الناصر الخاصة . . هو أن ننتقي له أفضل أنواع الجبن الأبيض . . ولم يكن من عاداتنا أن نبحث له عن الأفضل إلا في الجبن فقط .

كان إفطاره مكوناً من الخبز والجبن فقط . . ثم يتناول بعده كوباً من الشاي . وفي أحيان كثيرة كان يتناول كوباً من الشاي أو فنجاناً من القهوة فقط، دون أن يتناول معه أي شيء من الطعام . وفي الغذاء كان يأكل الأرز إلى جانب طبق من «خضار الموسم» ولم يكن يتناول أكثر من نوع واحد من أنواع الخضار، وفي اليوم التالي نقدم له نوعاً آخر من الخضار مع قطعة صغيرة من اللحم. وفي العشاء غالباً ما كان يتناول عشاء خفيفاً لا يزيد على الجبن والزيتون بالإضافة إلى الخبز طبعاً.

لم يكن في بيت عبد الناصر سوى طباخ واحد ومساعد له، كان المطبخ صغيرا ولا يتسع لأكثر من ذلك، كما أن الأصناف، والكميات التي تطبخ كانت قليلة فكانت تكفي الرئيس وأولاده. وكانت السيدة الجليلة «تحية كاظم» زوجة الرئيس تشرف على إعداد الطعام بنفسها في كثير من الأحيان، كما كانت تشرف على نظافة المطبخ والطباخين . . وكانت توصي يومياً بأنواع الطعام المطلوبة، وتقدم بها قائمة في الصباح للموظف المسئول عن المشتريات ببيت الرئيس واسمه «حامد داود» الذي كان يحمل القائمة ويذهب إلى السوق يومياً لشراء ما تتضمنه من أشياء مطلوبة.

أذكر أنه جاء في ذات يوم ـ وكنا بالإسكندرية ـ وقال لي أن «الست» طلبت منه أن يشتري نصف كيلو سمك «بربوني». وهو نوع من الأسماك كان الرئيس يحبه كثيراً، وسألت «حامد داود» مندهشا: وماذا في ذلك؟ فقال لي: إن بائع السمك بالذات يعرفه، ويعرف أنه يعمل في بيت الرئيس وأن السمك لا بد وأن يكون لبيت الرئيس. فكيف يطلب نصف كيلو فقط؟ قلت له: إذهب ونفذ التعليمات ولا شأن لك بما تطلب «الست» وذهب «حامد داود» وهو متضايق.

من طبق واحد:

كان هناك سفرجي واحد في بيت الرئيس.. كان هو المسؤول عن تقديم الطعام على المائدة. وكان موظفاً بالرئاسة، ولم يحدث أن شغل هذه الوظيفة شخص غير مصري، وكان عبد الناصر حريصاً على أن يأكل الطباخ والسفرجي من نفس الطعام الذي يقدم إلى الرئيس وعائلته.. وكانت السيدة تحية تتأكد بنفسها من أنهم تناولوا طعامهم، وكانت تعمل حسابها في قوائم المشتروات فتزيد من الكميات بما يكفي الجميع. ولذلك فإنه نادراً ما كانت تفيض كميات عن حاجة البيت.

وكان الرئيس حريصاً على أن يتفقد أحوال العاملين بالبيت بنفسه، فكان يخرج ليتحدث إلى جنود الحرس عن أحوالهم المعيشية، وأحوال عائلاتهم وإذا أحس بأن أي شخص منهم في حاجة إلى مساعدة، كان يكتفي بأن يعرف إسمه، ثم يعود إليَّ أو إلى محمد أحمد ويطلب أن يعطي الجندي فلان مبلغ كذا، فكنا نفعل على الفور، وكان لا ينسى أن يسألنا عما إذا كنا فعلنا ذلك أو لا.. وأحياناً كنا ننشغل عن تنفيذ أوامره في هذا الشأن ـ بسبب كثرة مسئولياتنا ـ فكان يذكرنا.. ويعاتبنا على نسياننا.

المصروفات السرية:

كان مرتب عبد الناصر كرئيس للجمهورية لا يزيد عن خمسة آلاف جنيه سنوياً، بواقع ٤٥٠ جنيه شهرياً، ولكن مع زيادة أعبائه بسبب كثرة الضيوف والزوار لبيته طلبنا عمل بند خاص للضيافة والمناسبات التي تقام بالبيت، وقد تم ذلك فعلاً، حتى لا تصبح الضيافة عبئاً على مرتب الرئيس المخصص له ولأولاده.

كان محمد أحمد يوقع باستلام مرتبه شهرياً، ولم يكن من عادة الرئيس أن يحتفظ بنقود في جيبه، بل كنا نحن المتصرفين في مرتبه وكان كل شيء نشتريه بفاتورة.

أما المصروفات السرية فلم تكن تتجاوز الخمسة آلاف جنيه على مدى العام كله، وكان مسؤولاً عنها وزير شئون رئاسة الجمهورية. وكانت تصرف بأوامر من الرئيس شخصياً. أما أوجه صرفها فقد كانت للأغراض الخاصة أو العلاقات العامة.. وبإعطاء بعض المساعدات المالية لبعض العاملين معه بالبيت في مناسبات خاصة كزواج أحد الأبناء مثلاً، كانت تلك المساعدات تصرف من بند «المصروفات السرية» وفي بعض الأحيان كان الرئيس يقدم مساعدات مالية لبعض أقاربه من المحتاجين. كما كان يأمر بصرف بعض المبالغ لنا ليعيننا على أعباء المعيشة.. خاصة وأن مرتباتنا لم تكن تزيد شيئاً من مرتبات الموظفين في المصالح الحكومية الأخرى. بالرغم من أننا كنا نعمل ليل نهار وليس عدداً محدداً من ساعات العمل مثل غيرنا من

موظفي الحكومة، ورغم ذلك فإن أحداً منا لم يحصل على أكثر من ثلاثين جنيهاً شهرياً. . فوق مرتبه العادي. .

لم يكن الرئيس ميالاً بطبيعته لحياة الفخفخة والأبهة بل كان معروفاً بالزهد والتقشف، فكانت سيارة الرئيس من نوع مرسيدس القديم، كانت هناك سيارتان من هذا النوع العتيق مخصصتين لتنقلات الرئيس الرسمية وكانت هناك سيارة واحدة مخصصة لعائلته وأولاده أما السائقون فان هناك إثنان للرئيس وإثنان للعائلة يتناوبان في العمل على السيارة المخصصة لهما.

يجري في الشارع!

حين كثرت أعباء الرئيس ومسؤولياته. . ووجدته منخرطاً في عمل لا ينتهي. . بدأت ألاحظ عليه بعض إمارات الإرهاق والتعب، فاقترحت عليه ذات يوم أن يمارس نوعاً من الرياضة يروح بها عن نفسه ويجدد نشاطه فسألني مندهشاً: وأين أمارس الرياضة؟ هل أذهب إلى أحد الأندية، أم تريدني أن أجري في الشارع؟

قلت للرئيس: ليس الأمر بهذه الصورة. . ما رأيك أن نقيم ملعباً للتنس هنا بحديقة البيت؟ إنها فرصة لكي تمارس أنت الرياضة ويمارسها معك الولاد.

استحسن الرئيس الفكرة. . ولكنه سألني: وكم سيكلف هذا الملعب؟ فقلت له:

إنه لن يكلف شيئاً أكثر من الكرة ومضربين وشبكة، فقال الريس «على بركة الله».

كان من عادة الرئيس دائماً أن يسأل عند طرح إحدى الأفكار عليه: كم سيكلف تنفيذها؟ إنه كان حريصاً - كأشد ما يكون الحرص - على أن لا يرهق ميزانية البيت أو يحملها بعض الأعباء الإضافية لأنه كان يعلم أنها ستكون على حساب جوانب أخرى ضرورية وكانت قلة تكاليف أية فكرة جديدة نعرضها عليه عاملاً هاماً في اقتناعه بتنفيذها، وأذكر هنا - على سبيل المثال - أنني طلبت منه أن يوافق على إنشاء حمام سباحة صغير بحديقة البيت ليمارس فيه هوايته المفضلة في السباحة، بالإضافة إلى تشجيعه على الرياضة التي أرى فيها مخرجاً مناسباً له من غمرة العمل وكثرة المشاغل وإرهاقها.

فكر الرئيس قليلاً ثم سألني سؤاله المعهود: وكم سيكلف هذا الحمام؟

قلت له سأطلب من المهندس علي السيد عمل الرسوم اللازمة، وسنعرف منه كم يكلف؟

حين طلبت من علي السيد تنفيذ الفكرة، قلت له نريد التكاليف في أضيق الحدود، وبعد الدراسة جاءني الرد منه، ذهبت إلى الرئيس لأقول له أن حمام السباحة سيكلف أربعة آلاف جنيه. . لمعت عيناه بالدهشة - ثم قال: أصرف نظر عن الموضوع. . إنها تكاليف لا داعي لها.

لم تكن تكاليف إنشاء حمام سباحة في ببيت الرئيس ستقطع من مصروفات البيت أو من مرتبه الخاص، ولكنها ستقتطع من ميزانية الأشغال العسكرية التي يتبعها بيت الرئيس. ومع ذلك لم يشأ الرئيس أن يوافق على الفكرة ورفضها رفضاً تاماً، بل ورفض أن أكرر عرضها عليه مرة أخرى حفاظاً على «فلوس الناس». وهي العبارة التي كان الرئيس يذكرها دائماً حين يبدي اعتراضه على فكرة ما كنا نعرضها عليه، أو يعرضها عليه بعض المسئولين بالحكومة.

الرئيس والقرآن

كان الرئيس جمال عبد الناصر - رحمه الله - رجلاً متديناً مواظباً على الصلاة في أوقاتها قدر طاقته كما كان يصوم رمضان ويحرص على إخراج الزكاة عنه وعن أولاده كما كان كثير الإطلاع في المصحف خاصة في الساعات المتأخرة من الليل بعد أن يكون قد أنهى أعماله. كما كانت السيدة زوجته رحمها الله مواظبة على قراءة المصحف وتجتهد في حفظ الكثير من آياته. وقد أدى عبد الناصر فريضة الحج كما أدى العمرة أكثر من مرة وقد صاحبته في إدائه العمرة ولكن لم يسعدني الحظ بمصاحبته في إداء فريضة الحج لأنه كان قد أداها قبل أن ألتحق بالعمل معه.

وفي أسفاره العديدة خارج مصر كان عبد الناصر حريصاً على إداء فريضة الصلاة في أوقاتها وكنا نسأل سفراءنا في البلاد التي نزورها عن الإتجاه الصحيح للقبلة.

وأذكر أننا كنا في موسكو - في إحدى زياراتنا المتعددة إليها، أن كان الرئيس في إجتماع هام مع الوفد السوفياتي حين جاء موعد صلاة الجمعة، فطلب الرئيس عبد الناصر من الرئيس السوفياتي خرتشوف أن يؤجل الإجتماع لما بعد الصلاة، وكان هناك كثير من الموضوعات المطروحة للنقاش ولم يتوصل الجانبان فيها إلى اتفاق بعد وحين طلب عبد الناصر رفع الجلسة لأداء صلاة الجمعة اندهش خرتشوف من هذا الطلب الغريب وطلب من عبد الناصر أن يؤجل صلاة الجمعة حتى ينتهي الإجتماع.. فضحك عبد الناصر وأعضاء الوفد المصري لأن خرتشوف لم يكن يعلم أن صلاة الجمعة لا تؤجل.

الرئيس يعتقل خاله وشقيقه

كان عبد الناصر عطوفاً على أقاربه وكان ودوداً معهم إلى أقصى درجة ولكن إذا حدث أن استغل أحدهم قرابته إلى الرئيس كان يثور ثورة عارمة ويتخذ حيال ذلك رد فعل شديد القسوة.

والحقيقة أن أقارب عبد الناصر لم يضعوه في هذا الموقف إلا نادراً وبدون قصد.. وأذكر هنا أن ذات يوم عرف أن خاله خليل قد تلقى هدية من أحد الأثرياء العرب فثار الرئيس وأمر باعتقاله ونفيه إلى الصعيد رغم أن الهدية لم تكن سوى قطعتي قماش ولم يشفع لدى عبد الناصر

أن الحاج خليل هو خاله الذي رباه وكان يقيم في بيته «بالضاهر» حين جاء إلى القاهرة.

وقد رفض الرئيس جميع المحاولات التي جاءت للوساطة للعفو عن خاله، ولكن حين جاء إليه والده ـ الحاج عبد الناصر ـ إستجاب الرئيس أخيراً لوساطته وقرر الإفراج عن خاله خليل.

وقد تكررت هذه القصة مع الليثي عبد الناصر ـ شقيق الرئيس، حين كثرت الإشاعات والأقاويل حول استغلاله قرابته للرئيس في الحصول على بعض المكاسب بطريقة غير مشروعة.. وحين زاره الرئيس في بيته ووجده يعيش في مستوى أعلى مما يسمح به مرتبه قرر اعتقاله. ثم أفرج عنه بعد أن توسط له والده على ألا يعود لما كان عليه من سوء تصرف.

حملوا سيارة الرئيس:

كان الرئيس عطوفاً مع «الناس الغلابة» وكان دائم الحديث عنهم فكان يردد أنه قام بالثورة من أجلهم.. ولهذا فقد كان أكثر ما يدخل السعادة والسرور إلى نفس الرئيس ـ مهما كانت الأثقال والمتاعب ـ هو أن يرى هؤلاء يتجاوبون معه في الشارع.

ولكن بقدر ما كان الرئيس سعيداً بهؤلاء كنا نحن المسئولين عن حراسته في أشد حالات عصبية والتوتر خاصة أثناء زياراته للخارج. ففي سوريا مثلاً: كان السوريون لا ينامون طوال الأيام التي كان الرئيس يقضيها في سورية فكانوا يحضرون من القرى البعيدة والمدن بل من الدول العربية المجاورة ويقيمون الليل أمام القصر الجمهوري، رغم برودة الجو وتساقط الثلوج. فكانوا يحضرون الحطب معهم ويشعلونه أمام القصر للتدفئة ولم يكونوا يكفون عن ترديد الهتافات ليلاً ونهاراً مطالبين بأن يخرج إليهم في شرفة القصر ليروه.. وغالباً ما كان الرئيس يستجيب لمطلبهم، وما يكاد يطل عليهم حتى نراهم ألقوا بأجسادهم على الأسوار الحديدية للقصر. وكثيراً ما كانت تحدث فيهم إصابات ولكنهم لم يكونوا يبالون بشيء إلا أن يروا جمال عبد الناصر!!

وفي إحدى المرات حمل السوريون سيارة عبد الناصر بسواعدهم فوق الأرض. وكادت قلوبنا تنخلع من هول المنظر، وأحياناً كنا نخرج عن شعورنا فنتعامل بقسوة مع بعض الذين كانوا يثقلون على الرئيس.. فكان البعض منهم ـ دون شعور ـ يجذبه بعنف ليتمكن من تقبيله، وكان بعضهم في سبيل ذلك يشده من سترة البدلة أو من ساقه حتى يكاد الرئيس يقع على الأرض فكنا نتدخل للحفاظ على هيئة الرئيس وسلامته ولم نكن ننجح في ذلك إلا بإظهار بعض العنف والقسوة.. ولكن عبد الناصر لم يكن يسمح لنا بذلك فكان أحياناً يجذبنا بيده لنكف. وأحياناً يكتفي بمجرد النظر.

أنا أجمد منه!

وذات يوم كان الرئيس في زيارة لمصانع «سباهي» للغزل والنسيج بالإسكندرية.. وكان الزحام شديداً حول الرئيس.. فتجمع آلاف العمال بل واقتحم المصنع أعداد غفيرة من المواطنين بالحي، وحدث أن أحد العمال وكان ضخم الجثة قوياً نجح في الوصول إلى الرئيس بعد أن صارع كل من يقف في طريقه ملقياً بهم جانباً وحين وصل إلى الرئيس جذبه بعنف من وأراد أن يقبله ولكني تقدمت منه بسرعة وطوقته من الخلف وضغطت بقوة على ضلوعه وحملته من يده ورجله وألقيت به بعيداً عن الرئيس فضحك الرئيس حين رأى المنظر ونظر إلى الرجل وهو ملقى على الأرض وقال له علشان تعرف أن معايا «أجمد منك»!

حمدت الله أن الرجل وقع بالقرب من إحدى ماكينات النسيج التي كانت دائرة في ذلك الوقت ولم يقع فوقها وإلا لكانت الكارثة وقد توقعت أن يغضب الرئيس مني أو يلومني على ذلك، ولكن جاءت مداعبته للرجل.. شهادة لي بأنني فعلت ما كان يجب علي أن أفعله!

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يضيق فيها الرئيس بمثل هذا التصرف الذي اعتاد عليه من الناس وفي الزحام الشديد ولكن الحقيقة أن هذا الرجل بالذات كان أثقل وأعنف مما يحتمل!

فزع عبد الناصر!

وفي إحدى المرات كان موكب الرئيس يسير في أحد شوارع القاهرة حين فوجئنا جميعاً بطفل صغير يمر كالسهم

أمام سيارة الرئيس حتى كاد أن يقع صريعاً تحت عجلاتها فانزعج الرئيس وقال: حاسب.. حاسب.. ياساتر.. ياساتر!

وما أذكره الآن أن الرئيس ظل ولفترة طويلة بعدها متوتراً كلما تخيل أنه كان سيتسبب في وفاة هذا الطفل الصغير.. وقد نجح أحد المصورين الصحفيين من التقاط هذه الصورة الفريدة، ونشرتها الصحف المصرية في اليوم التالي وتحتها تعليقات تقول: «الأب.. يتلهف على الإبن» أو «الطفل الذي أفزع عبد الناصر» وغيرها من التعليقات ذات الدلالة، ورغم عفوية المنظر وتلقائيته إلا أن عبد الناصر كان يتضايق حينما كان يتذكره.. وكان يحمد الله على سلامة هذا الطفل.

كان عبد الناصر يعنفنا حين يرانا نقسو على بعض الناس من الجماهير التي تلقي بنفسها عليه وكان يعبر عن غضبه في حينه وحين كنا نعود من الجولة، كان يكلمنا في الأمر مرة أخرى ويطلب منا الترفق مع الناس، مهما فعلوا ويدعونا إلى التمسك بالصبر وقوة الإحتمال.. ورغم أننا لم نكن نقصد الإساءة إلى أحد، وكنا نقرر بيننا وبين أنفسنا أن نكون صبورين إلى أقصى

درجة إلا أن شدة الزحام مع حرارة الجو ومع الخوف على حياة الرئيس وحبنا له، كانت تخرجنا عن شعورنا، ولكن بنظرة منه كنا نعود إلى رشدنا فنتمسك بالصبر وقوة الإحتمال كما أمرنا.

زواج البنات

ورغم المحافظة التي كان عليها بيت الرئيس، إلا أنه ترك لأولاده حرية اختيار شركاء حياتهم، فزوج هدى هو حاتم صادق الذي كان زميلها بالكلية، وتقدم لخطبتها بعد أن فاتحت هدى أمها في الأمر.. وأبلغتها برغبة عائلة خطيبها في زيارتهم للتقدم لخطبتها وحين علم الرئيس بالأمر لم يمانع، فقد كان يثق في عقلية هدى وحسن اختيارها، والحقيقة أن السيد حاتم صادق كان شاباً ممتازاً من جميع الوجوه.. وكان جديراً بإبنة عبد الناصر الكبرى.

وقد أقيم حفل الزفاف بالبيت وجميع من أحياه من الفنانين جاء متطوعاً. وقد جاءوا بدعوة من أم كلثوم صديقة السيدة تحية التي لم تمانع في حضورهم بعد مشاورتها مع الرئيس وقد تزوجت الإبنة الثانية «منى» من النقيب أشرف مروان بنفس الطريقة.

وقد كان أشرف مروان حين تقدم لخطبة منى عبد الناصر مجرد نقيب في القوات المسلحة قبل أن ينتقل إلى العمل برئاسة الجمهورية في عهد الرئيس السادات وبعد وفاة عبد الناصر.

كان عبد الناصر في بيته يعيش حياة «الموظف» المصري الغلبان، فقد لا يتصور البعض أن هذا الرجل الذي ملأ أسماع الدنيا وأبصارها ظل يفصل قمصانه عند ترزي واحد إسمه «جنيدي» كان يمتلك محلاً صغيراً في ممر الكونتننتال وقد كان هو المحل الذي اعتاد عبد الناصر تفصيل قمصانه عنده منذ أن كان ضابطاً في القوات المسلحة وكانت معظم قمصان عبد الناصر من قماش «اللينو» الأبيض فلم يكن يرتدي غير هذا القماش وغير هذا اللون، أما أقمشة البدل فكنا نشتريها له من أصواف المحلة وكذلك كانت ملابسه الداخلية من الشركات المصرية وقد ظل يفصل بدله عند ترزي واحد طوال عمره.

كان القماش المصري هو النوع المفضل لدى الرئيس وكان يقول «إذا لم أشجع أنا الصناعة المصرية فمن يشجعها إذن»؟ وكان يرى صناعة النسيج في مصر أفضل منها في أي مكان في العالم ولهذا كان يندهش كثيراً حين يرى مرافقيه في زياراته الخارجية يخرجون إلى الأسواق ليشتروا الأقمشة قبل عودتهم إلى مصر.

الحلاق والترزي

وكان الحاج «محمد» هو حلاق الرئيس وهو رجل غلبان يملك محل حلاقة متواضع في أحد الأحياء الشعبية وقد كان الرئيس «زبونه» منذ أن كان طالباً في الكلية الحربية فكان يأتي إلى البيت كل فترة يحمل شنطة جلدية تقليدية يضع فيها «العدة» فيحلق للرئيس وللأولاد فكان الحاج محمد

هو الرجل الوحيد ـ ربما في العالم ـ الذي يحني عبد الناصر له رأسه!

أما المكوجي فكان هناك أحد العمال ببيت الرئيس يقوم بهذه المهمة، نظراً لكثرة حاجة الرئيس لتغيير ملابسه وكيها بسبب طبيعة الطقس الحار.

أسطورة .. في الجزائر

أما في الجزائر.. فقد استقل عبد الناصر الباخرة إلى الجزائر.. وما كادت تقترب من الميناء حتى ألقى الناس بأنفسهم بالآلاف إلى البحر ليكونوا في استقباله قبل أن ينزل إلى الأرض وللأسف فقد غرق عدد منهم بسبب عدم معرفتهم السباحة.. وقد نسوا ذلك في غمرة فرحتهم بوصول عبد الناصر إليهم!!

وفي نيويورك احتشد الأمريكيون على طول الطريق من المطار إلى المقر المخصص لإقامة الرئيس ليروا عبد الناصر الذي لم تنجح صحافة الغرب في تشويه صورته لديهم فكان استقبالهم له دليلاً على فشل سياسة العداء الأمريكية تجاهه خاصة في طريق عودته من الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد إلقاء خطابه الشهير بها.

السادات مريضاً

كان أنور السادات هو أقل زملائه حديثاً معه في الأمور السياسية.. وحين كان يصاحبه في المشي أو في جلساته بالمنزل، كان السادات يتطرق إلى الأمور العامة، محاولاً الترفيه عن الرئيس.. بعكس جميع زملائه الذين كانوا يتحدثون معه في الأمور السياسية محلية أو عربية أو دولية.. ونادراً ما كان السادات يتحدث مع عبد الناصر في مثل هذه الأمور.

وفي يوم من الأيام، علم الرئيس أن أنور السادات قد ارتكب عملاً من الأعمال التي تدخل في دائرة استغلال النفوذ منتهزاً فرصة وجود الرئيس في موسكو وما أن علم عبد الناصر بالواقعة فور عودته إلى مصر حتى طلب من السادات صراحة أن يستريح في «بيته».

وبالفعل اختفى السادات فترة من الوقت ثم ظهر في الإسكندرية فجأة واتصل بي فوزي عبد الحافظ سكرتيره ليبلغني أن السادات موجود بالإسكندرية وأنه مريض بالقلب ويريد رؤية الرئيس.

أبلغت الرئيس الذي كان في ذلك الوقت باستراحة المعمورة، فقرر الذهاب إلى السادات لزيارته في استراحة «استانلي» وبقي فترة طويلة معه..

كان عبد الناصر طيب القلب، لا يضمر الإساءة أبداً لأحد، وبالرغم مما كان يعرف عنه من قوة في الحق، إلا أنه كان سريعاً ما ينسى ويصفح دون أن يبقى شيئاً في نفسه، والذي حدث

بعد أن علم بما فعله السادات لم يكن يطيق سماع إسمه يتردد أمامه ولكن ما أن علم بمرضه حتى سارع بزيارته فذهبت أنا وهو فقط بالسيارة دون انتظار لأية ترتيبات أو حراسة ولم تمض سوى أيام قليلة على هذه الزيارة التي تمت المصالحة فيها بينهما حتى فوجئنا بالقرار الجمهوري بتعيين أنور السادات نائباً للرئيس، ومات عبد الناصر بعدها فأصبح السادات هو الرئيس بحكم أنه كان النائب الوحيد لعبد الناصر في ذلك الوقت.

عبد الناصر.. يبكي

لقد كان المشير هو أقرب زملاء عبد الناصر إلى قلبه.. ولم نكن وحدنا الذين نعرف ذلك.. كانوا جميعاً يعرفون هذه الحقيقة ويعترفون بها..

وأذكر أنني لم أر عبد الناصر يبكي في حياته، إلا عندما انتحر المشير عامر.. بل إنني لم أتخيل في صلابة الرئيس وقوته يمكن أن تعرف الدموع طريقاً إلى عينيه.. ولكني رأيته بعد ساعات من سماعه نبأ إنتحار المشير، وكان قد أغلق الغرفة على نفسه وظل بها ساعات قبل أن يستدعيني لأقوم بتدليك ساقه التي اشتد عليه ألمها في ذلك اليوم.. ودخلت إليه ونظرت إلى وجهه وكأني أرى شخصاً آخر غير الذي عرفته منذ سنوات طويلة.. كان هزيلاً منكسراً.. عيناه متورمتان وكأنهما ثمرتا طماطم.. لقد كانت هذه آثار البكاء الذي انخرط فيه ساعات طويلة قبل أن أدخل إليه.

لقد شهد عبد الناصر لحظات عصيبة كثيرة في حياته.. لكنه لم يستسلم للبكاء كما استسلم له في تلك اللحظات.. بل أنه في تلك اللحظات العصيبة التي مرت به كان يزداد تماسكاً وعناداً. وكان أصلب من الصلابة ذاتها.. ولكنه في هذا الموقف بالذات لم يكن جمال عبد الناصر هو جمال عبد الناصر الذي عرفناه.

لقد وقع عليه خبر إنتحار المشير وقع الصاعقة. لم يكن يتوقع أن يقدم على ذلك خاصة وأن الإتصالات بينهما لم تنقطع حتى بعد أن أمر عبد الناصر باعتقاله في بيته هو ومجموعة من الضباط من مؤيديه أثر وصول أنباء إلى الرئيس عن حركة انقلاب يدبرها المشير ضده مع بعض القادة العسكريين.

وقد دخلت على الرئيس في إحدى لحظات الذروة فوجدته مع المشير في التليفون ويقول له أن الناس لا تعرف ما بيننا من صداقة.. ولهذا فإنه لن يستجيب لمحاولات الوقيعة التي يسري بها بعض المحيطين به.

لقد كان عبد الناصر يحاول في تلك اللحظات أن يهدىء من روع المشير، بالرغم من أنه قد أصدر قراراً بإعفائه من جميع مناصبه في أعقاب الهزيمة العسكرية.. إلا أنه كان يحاول أن يقنع المشير بالخطوة التي اتخذها حياله، بينما كان المشير ثائراً وغاضباً.

عبد الناصر .. المحافظ!!

كان عبد الناصر أباً وزوجاً صعيدياً، ولم يحدث ذات مرة أن نادى زوجته أمامنا باسمها، فإذا أراد أن يناديها أمامنا فكان يناديها باسم ابنها الكبير خالد أو يا «أولاد» أما إذا أراد أن يذكر إسمها أمامنا فكان يقول «الجماعة» أو «البيت» أو «المدام» وأحياناً كان يقول «شوف البيت إن كانوا عايزين حاجة» أو «المدام» كانت تطلب كذا أو «الجماعة كانوا يريدون كذا».

أما السيدة الجليلة زوجة الرئيس رحمها الله فكانت مثالاً للزوجة والأم المصرية المكافحة الصبورة المؤمنة المدبرة، كانت متواضعة إلى أقصى حدود التواضع ولم نسمعها ترفع صوتها أبداً سواء أكان الرئيس حاضراً أو غائباً ولم تكن تشخط حتى في أبنائها مهما قاموا أمامها بحركات صبيانية مثل كل الأطفال ولم تكن تنادي الرئيس باسمه أو حتى بكنيته المعروفة أبو خالد فكانت تقول له يا ريس إذا أرادت أن توجه إليه الحديث أو تقول له «يا بابا» إذا كان ذلك في حضور الأولاد أما إذا أرادت أن تذكره أمامنا فكانت تقول «الريس»، «الريس كان عايز كذا» أو «الريس كان رأيه كذا». . كذلك لم تكن تنادي أحداً منا باسمه مجرداً فكانت تقول يا عم فلان للطباخين أو السفرجية أو العاملين بالبيت أما نحن في السكرتارية فكانت تنادي أسماءنا مسبوقة بالرتبة العسكرية.

وكان بيت عبد الناصر يسوده الإحترام والتفاهم بين الجميع، أهل البيت والعاملين فيه، أو بين العاملين بعضهم بعضاً، وكان الأولاد مثالاً للأدب والنظام وحسن التربية، ولم يحدث أن تعامل واحد منهم مع أي أحد العاملين على أنه «إبن الرئيس» فكانوا يطلبون ولم يكونوا يأمرون.

صداقة الآباء للأبناء

ومن بين جميع الأولاد الذين كانوا يترددون على بيت الرئيس كان أولاد عبد الناصر أكثر إرتباطاً بأولاد الزعيم الأفريقي لومومبا وأولاد الرئيس نيكروما الزعيم الغاني الذي كان متزوجاً من سيدة مصرية.

أما أولاد المشير عامر فكان بيت الرئيس بمثابة بيتهم الثاني، فكانوا يحضرون للعب مع أولاد الرئيس، كما كان أولاد الرئيس يذهبون إلى اللعب معهم خاصة في فترة الصيف حيث كانت العائلتان تذهبان إلى المعمورة، وكانت إستراحة المشير مجاورة لاستراحة عبد الناصر، وقد انعكست العلاقات القوية التي كانت تربط بين المشير وبين الرئيس على أولادهما، فكانوا يمضون معظم الوقت معاً، وقد أطلق الرئيس على أحد أبنائه إسم «عبد الحكيم». . كما أطلق عبد الحكيم إسم جمال على أكبر أبنائه أيضاً.

كان عبد الناصر يحب بيته كثيراً، وهو في هذا لم يختلف عن أي مصري، فكان نادراً ما يتناول

طعامه بعيداً عن أولاده خارج البيت.

حينما كنا نسافر خارج البلاد في زيارة لإحدى الدول كان الرئيس يطلب اصطحاب طباخ معنا، خاصة في البلاد الإفريقية التي تختلف طريقة إعداد الطعام فيها كثيراً عن طريقتنا، وحينما كان يأتينا ضيف من الخارج كنا نسأل مرافقيه عن أصناف الطعام التي يحب تناولها، أما إذا كان هناك أحد الطباخين من مرافقيه فكنا نوفر له كل ما يريده، وكان طباخ الرئيس يعاونه في إعداد الطعام للضيف الزائر.

الرئيس يطلب «الحرنكش»

وكان الرئيس بسيطاً في أكله، وأذكر أنه ذات يوم طلب مني «حرنكش»، كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الإسم، ولهذا فقد تصورت أن الرئيس يداعبني كعادته أحياناً فقلت له مندهشاً «حرنكش إيه» يطلع إيه الحرنكش ده؟»، واندهش الرئيس لأنني لا أعرف «الحرنكش» ولم يصدق حقيقة أنني لا أعرفه، وحينما تأكد إنني فعلاً لا أعرفه قال لي إنه نوع من الثمار صفراء اللون يشبه النبق أو السدر، وفعلاً ذهبت إلى السوق وأحضرت له «الحرنكش». . وكان الرئيس يحبه كثيراً رغم أنني لم أكن قد سمعت به من قبل.

وكان عبد الناصر يمضي معظم وقته في القراءة التي كان لا يعرف غيرها طوال فترة بقاءه بالبيت، وكانت غرفة المكتب هي البيت بالنسبة له، كنا نحضر له الكتب، جميع الكتب السياسية والتاريخية وكتب المذكرات والسيرة الذاتية التي تصدر أولاً بأول، وكان أحياناً يزودنا هو بقائمة بأسماء بعض الكتب التي يريد قراءتها. كما كان يتلقى بعض النسخ وعليها إهداء من مؤلفيها، وخاصة كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل، وأحمد بهاء الدين.

أما التقارير اليومية التي كانت ترد إليه من المخابرات وجهاز المباحث فكان يقرأها بنفسه، وأحياناً كان يطلب زيادة بعض المعلومات حول واقعة معينة وردت إليه في أحد هذه التقارير، كما كان يطلب التحقيق في بعض الوقائع.

الرئيس.. والتقارير

كان الرئيس يتابع يومياً ـ وبانتظام ـ الإطلاع على جميع التقارير التي تتحدث عن سير الأمور في مصر، وخاصة التقارير المتعلقة بالأسعار وتكاليف المعيشة والأزمات التموينية.

ولم يكن الرئيس يكتفي بقراءة تلك التقارير. . بل كان يسألنا عن سير الأمور المتعلقة بهذه المسائل الهامة. وكان يتحدث مثلاً مع سائقيه عن الأسعار وتكاليف المعيشة. . كما كان يسألنا دائماً الناس عاملة إيه؟ الناس مبسوطين ولا لأ؟

لقد كان هذا هو السؤال الذي يشغله أكثر من أي شيء آخر. .

أذكر أنه قرأ ذات يوم في إحدى الصحف عن غرق إثنين من المصطافين بالإسكندرية.. فانزعج جداً وسألني كيف يغرق إثنان من المصطافين أمام الناس ولا يستطيع أحد إنقاذهما؟ فقلت له أن الغطاسين ناس غلابة، وكبار في السن، ولا يحصلون على العائد والذي يشجعهم على إداء عملهم.. فازداد انزعاج الرئيس، كيف تكون هذه الفئة مسئولة عن أرواح الناس.. وليس هناك من هو مسئول عن أرواحهم.

طلب الرئيس مني أن أدرس هذا الأمر بنفسي وأن أقدم له تقريراً وافياً عن حياة الغطاسين وأحوال معيشتهم. والتقيت مع حسين صبحي محافظ الإسكندرية في ذلك الوقت وشكلت لجنة من المحافظة، وقد تبين لنا أن هؤلاء الغطاسين يعملون بطريقة موسمية، أي في موسم الصيف فقط وبلا أي تدريب أو تأمين أو حتى رعاية صحية. وحين سألت عن الراتب الذي يتقاضاه الغطاس.. عرفت أنه يتقاضى أربعة جنيهات شهرياً.. ولمدة أربعة أشهر فقط هي أشهر فصل الصيف.. ثم يعود بعدها إلى بلده في إحدى قرى الريف، ليبقى هناك فصل الشتاء إنتظاراً لموسم الإصطياف القادم. وحين قدمت التقرير إلى الرئيس أمر بأن يعين الغطاسون كعمال بالمحافظة وأن يتقاضوا رواتب شهرية، وأن يؤمن على حياتهم ضد الغرق أو الموت.. وأن يجري عليهم الكشف الطبي بشكل دوري، وأن يتم تدريبهم باستمرار على أداء عملهم.. على ألا يقل راتب كل منهم عن خمسة عشر جنيهاً شهرياً في ذلك الوقت.

الرئيس.. وأرواح الناس

وهكذا تغيرت حالة فئة من المواطنين بسبب خبر قرأه الرئيس عبد الناصر في إحدى الصحف.. وكان يمكن أن يمر كغيره من الأخبار العادية.. ولكن عبد الناصر لم ينظر إليه على أنه خبر عادي.. فقد كان يتعلق بأرواح الناس.. وهذا أكثر الأمور جذباً لاهتمام الرئيس وعنايته.. فتوقف عنده متسائلاً، وباحثاً، فكان مفتاحه إلى التغيير الشامل لفئة من المواطنين كانت تعيش على هامش الحياة.. فأخرجها إلى النور لتعيش حياة كريمة آمنة.

وفي إحدى المرات.. قرأ الرئيس عن وقوع حادث إنقلاب قطار على خط الصعيد.. فانزعج جداً وتساءل غاضباً. كيف وقع هذا الحادث.. ومن المسئول عن وقوعه.. وأمرني بمتابعة التحقيقات التي تجري في هذا الشأن.

لقد كان عبد الناصر مهتماً إلى أقصى درجة بحياة الناس وأرواحهم وعند وقوع أي حادث صغير كان يسأل ويتحقق.. هل وقع الحادث بسبب إهمال المسئولين.. أو بسبب قصور في الأداء.. أو بسبب المواطنين أنفسهم.. وإذا عرف أن السبب في وقوع الحادث إهمال موظف أو تقصير من الدولة لم يكن يهدأ حتى يوقع العقاب المناسب على المسئول.. ولم يكن يكتفي بذلك بل يعمل على إزالة الأسباب وبأقصى سرعة حتى لا تتكرر مثل تلك الحوادث الأليمة. وحينما

يثبت أن الحادث بسبب موظفي الحكومة أو بتقصير منها كان يأمر بصرف تعويضات للضحايا أو المتضررين.

لقد كانت الفئات الكادحة والبسيطة من أبناء الشعب المصري هي مركز إهتمام الرئيس وبؤرة تفكيره دائماً.

أذكر هنا أنه في كل مرة كان يأتي فيها ضيف كبير لزيارتنا في مصر.. ويكون مقرراً خروج الرئيس لاستقباله بنفسه واصطحابه إلى مقر إقامته.. كان يتصل بنا قبلها طالباً مني الإتصال بمدير الأمن حتى لا يخرج جنود الأمن إلى الطريق في انتظار موكب الرئيس إلا قبل الموعد بساعة على الأكثر»

فقد لاحظ الرئيس أن جنود الأمن كانوا يقفون ساعات طويلة في الطرق والشوارع المقرر السير فيها أثناء الموكب قبل الموعد المحدد متعرضين لحرارة الشمس صيفاً أو المطر والبرد شتاءً.. فتضايق الرئيس لذلك وطلب عدم خروج هؤلاء إلى الشارع إلا قبل الموعد المحدد بساعة على الأكثر.

العيدية من الرئيس

لم تكن مرة واحدة أو وحيدة التي طلب الرئيس فيها ذلك.. ففي كل مرة كان يخرج ليستقبل أحد ضيوفه كان يطلب منا ذلك، ليتأكد أننا لم ننس تعليماته في هذا الشأن.. وكان يسألني أثناء الموكب مشيراً إلى جنود الحرس «أظن دول واقفين من الصبح على كده» ولم يكن يطمئن إلا بعد أن أؤكد له أنهم لم يخرجوا إلا منذ نصف ساعة أو ساعة على الأكثر.

وفي الأعياد.. كان من عادة الرئيس أن يخرج لصلاة العيد في الصباح الباكر.. وقبل أن يركب سيارته لم يكن ينسى التوجه إلى أفراد الحرس بالبيت مهنئاً بالعيد.. ويصافحهم فرداً فرداً وعند عودته من المسجد كان يخرج إليهم «بعلبة الحلوى» بنفسه ليهنئهم مرة أخرى.. وفي بعض الأحيان كان يعطيهم «العيدية» كما يحدث في أي بيت مصري حين يعطي الأب العيدية لأبنائه صباح يوم العيد.

وكما كان الرئيس معتزاً بنفسه، كان يرفض أي سلوك من الآخرين يبدو منه عدم الإعتزاز بالنفس.. وعلى سبيل المثال كان يرفض تماماً أن ينحني أحد على يده ليقبلها.. فكان يسحب يده سريعاً متأذياً.. ويربت على كتف هذا الشخص في تودد، رغم أن ذلك من العادات المألوفة في الريف بين الأب وأبنائه، إلا أنه كان يرفضه تماماً.

عبد الناصر في الجبهة:

بعد النكسة.. كان الرئيس يفضل قضاء يوم العيد مع أبنائه الجنود المرابطين بالجبهة، فكان

يذهب إلى هناك ليعايد الجنود والضباط ويمضي معهم اليوم بكامله، وفي كل مرة كان الرئيس يعود فيها من زيارة للجبهة، كان يبدو عليه الإرتياح والتفاؤل، رغم التعب الذي كان يلاقيه في زيارته متجولاً بين مواقع الجنود ودشمهم.

كان عبد الناصر حريصاً على أن يستمع من الجنود بنفسه.. فكان يسأل كل شخص منهم عن أحواله وأسرته وعن مشكلاتهم، وكانت معظم شكاوى الجنود تدور حول بعض المشكلات العائلية مثل الأب المريض الذي يحتاج إلى علاج أو الجندي الذي يحتاج إلى إجازة ليدخل الإمتحان أو الذي يريد علاجاً لأحد أبنائه، فكان الرئيس يلبي طلباتهم فوراً بعد أن يأمرنا بكتابة إسمه وعنوانه وملخص لمشكلته وكان يتابع حلول تلك المشكلات بنفسه بعد عودته.

وأثناء زيارة الرئيس للجبهة.. لم يكن يطلب منا أية ترتيبات أمنية معينة.. فكان يعتبر أمنه وسلامته مسئولية الجنود الذين سيكون بينهم.. ولم يكن يتصور أن يكون هناك جنود يحمونه وسط الجنود فكانت زيارته للجبهة من النوع المفاجىء الذي لا يحتاج لأية ترتيبات مسبقة.

أناقة الرئيس

كان عبد الناصر حريصاً على هندامه بالرغم مما قد يبدو للبعض من أنه لم يكن مهتماً بهذه المسألة، والحقيقة أنه كان يهتم بمظهره كثيراً ويحرص على أن يبدو في أكمل صورة وقد يرى البعض أن كثرة المسئوليات والمشاغل لم تكن تدع له الوقت الكافي للعناية بهندامه ومظهره ولكنه في الحقيقة كان أنيقاً بالرغم من قلة الوقت الذي كان يمنحه للإهتمام بهذه المسألة فلم ألاحظ أن الرئيس يحب الوقوف أمام المرآة طويلاً لقد كان يكتفي بمجرد إلقاء نظرة عابرة بعد انتهائه من اللبس ولم يكن عادته أن يسأل أحداً «ما رأيك في هذه البلدة أو هذا القميص» كان معتداً بنفسه وبشخصه، واثقاً في ذاته، ومن الألوان التي كان الرئيس يفضلها لبدله «البني» و«الرمادي»، وهما من الألوان الغامقة التي ربما لم تكن تناسب لون بشرته المائل إلى السمرة.. ولكنها كانت تناسب قامته المديدة وصدره العريض.. فكانت تضيف إلى هيبته هيبة.. وإلى وقاره وقاراً، كانت قمصانه من اللون الأبيض، معظم - إن لم يكن كل - قمصانه من هذا اللون.. وهو أكثر الألوان مناسبة لبشرته السمراء، وكان نادراً ما يلبس قميصاً جاهزاً، بل كان يفضل التفصيل.. وكان الرئيس يميل إلى تفصيل الملابس الواسعة الفضفاضة.. ويكره الملابس الضيقة التي تحد من حركته وتقيده.

بساطة عبد الناصر

كان يفضل القماش الوطني من الصناعة المصرية، على أي قماش آخر.. فكانت بدله من أصواف المحلة، وقمصانه من مصانع الشوربجي، وملابسه الداخلية من «جيل».

أذكر هنا أنه كان يزور معرض القاهرة الصناعي الدولي، حين كان لا يزال بأرض المعارض بالجزيرة، توقف أمام جناح إحدى الشركات التي تقوم بصناعة الملابس الداخلية من القطن المصري، وبينما كان مسئول الجناح يشرح له منتجات الشركة، توقف الرئيس متسائلاً عن نوع معين من «الفانلات الداخلية» ولم يفهم مسئول الجناح قصد الرئيس.. فما كان منه إلا أن رفع قميصه وأبرز الفانيلة التي يرتديها تحته.. وقال له.. مثل هذه!!

أما الأحذية.. فكنا نختار له عدداً منها من عدة محلات بالقاهرة ونحملها إليه في البيت ليختار من بينها زوجين أو ثلاثة.. ونقوم بإعادة الباقي إلى محلاتها.

كذلك كان الرئيس يفضل الجوارب القطن من الصناعة المصرية، لأنها أكثر قدرة على تحمل وامتصاص العرق.. ولم يكن يفضل ارتداء الجوارب النايلون مطلقاً.. وكان عادة يرتدي الجورب بنفس لون البنطلون أو مناسباً له.

لقد كان عبد الناصر يجمع في لبسه بين الأناقة والبساطة.. فكان أول حاكم مصري يرتدي القميص نصف الكم في استقبالاته الرسمية ولم يكن يحب لبس الكرافتة في الصيف.. بل كان يحب أن يكون «سبور» بالقميص الأبيض النصف كم.. والبنطلون.. وكان في غير أوقات العمل الرسمية يرتدي «الصندل» أو النعال ذي الإصبع!

وكما كان عبد الناصر يفضل الصناعة الوطنية.. كان يكره أن يرى زملاءه أو العاملين معه يرتدون شيئاً مستورداً.. فكان كثيراً يسخر منهم في مداعبة لطيفة.. وعلى سبيل المثال إذا رآني أرتدي «كرافتة سيلكا» كان يقول لي.. إيه يا فهيم لابس لي كرافتة مستوردة وعامللي خواجه؟.. مالها بس الكرافتات المصرية؟

ولا أذكر الآن، رغم السنوات الطويلة التي قضيتها معه، أنني نظرت إليه لأتحقق من لبسه.. فبمجرد النظر إليه تنسى كل شيء وتتذكر شيئاً واحداً. إنك أمام جمال عبد الناصر!!

كان عبد الناصر قوي الملاحظة.. لماحاً إلى أقصى درجة، أذكر الآن أنني كنت قد وضعت بعض الملفات على مكتبه ليطلع عليها.. ودخلت معه إلى المكتب.. فوقع نظره على الملفات فلاحظ أن ترتيبها قد اختلف عما كان عليه أول الأمر.. وأن ملفاً معيناً أصبح فوق الملفات جميعاً.. فنظر إليّ متسائلاً.. الملف ده بتاع إيه؟.. فقلت له هذا ملف شخص معين كان في حاجة إلى العلاج في الخارج.. فاطلع عليه الرئيس ثم وقعه وأعطاه لي وهو يبتسم!!

لقد فهم الرئيس أنني معني بأمر هذا الشخص وأنني قمت بسحب الملف الخاص به ووضعه فوق الملفات جميعاً، بمجرد نظرة عابرة.

قوي الملاحظة

لقد كانت هذه عادة عنده دائماً . . قوة الملاحظة . . كانت أهم ما يميز شخصيته . .

لقد كان كذلك مع الجميع ولم يكن معي وحدي . . فكان يوفر الكثير من الحرج على العاملين معه بذكائه اللماح وقوة ملاحظته النادرة!!

لم يكن ينسى شيئاً أبداً، ولا «تفوته الواحدة» كما يقولون . .

على سبيل المثال كنت تطلب منه شيئاً فيسكت . . وبعد ثلاثة أيام أو أكثر كان يفاجئك بتلبية طلبك دون أن تفاتحه فيه مرة أخرى . . بل ربما تكون قد يئست من تحقيقه . . ففي نفس الوقت الذي تقول فيه لنفسك . . معقول يكون الريس لسه فاكر؟ تجده يقول لك . . اتصل بفلان فقد حدثته في الأمر الفلاني . . أو أذهب إلى فلان ليعطيك ما طلبته . . وفي بعض الأحيان كان يطلب منا شيئاً معيناً . . وبعد أيام . . وربما شهور . . تجده يفاجئك بالسؤال عنه . . ماذا فعلت في الأمر الفلاني؟ ولهذا كنا نسارع إلى تلبية وتنفيذ طلباته ولا نتوانى عن ذلك لأننا كنا نعرف أنه حتماً ـ طال الزمن أم قصر ـ سوف يسألنا عنها وسوف يتذكرها .

والغريب أنه بعد أن وقع في براثن المرض . . واشتدت عليه وطأته . . لم يغير ذلك من أمره شيئاً . . فكانت قوة ملاحظته، وصفاء ذهنه، ودرجة تركيزه . . كما هي . . لم تتأثر .

عبد الناصر بالبيجاما

كان عبد الناصر في بيته رجلاً عادياً كأي موظف مصري من الطبقة الوسطى فكان يرتدي البيجامة والروب في غرفة نومه وإذا نزل إلى غرفة المكتب كان يرتدي القميص والبنطلون ولم يكن ينزل إلى غرفة المكتب أبداً بالبيجامة أو الروب، ولم يكن يسمح لأحد أبداً أن يراه بالبيجامة والشبشب سوى فراش غرفة نومه الذي كان يعطيه الدواء في مواعيده .

كان مقاس قدمه ٤٤ أو ٤٥ ومقاس قميصه ٥٣ وكذلك كان مقاس بيجامته التي كان يفصلها عند نفس الترزي «جنيدي» في ميدان الأوبرا . . وفي الشتاء كان يرتدي «الكستور» من القطن المصري، ولم يكن يحب أن يرتدي بيجامات من الصوف . . بل لم يكن يرتدي بلوفرات . . فكان يكتفي بالقميص الأبيض والفانلة الداخلية مهما كان برد الشتاء قارساً .

وفي الصيف كان يرتدي البيجامات «اللينو» ومهما كان الحر شديداً لم يكن يخلع سترة البيجامة أبداً، أو يبقى بملابسه الداخلية حتى في غرفة نومه .

أما «العفش»أو الموبيليا في بيت عبد الناصر فكانت كلها مصرية وهي «عهدة» وقع الرئيس

باستلامها في كشوف من الأشغال العسكرية، وكانت كل قطعة من أثاث البيت تحمل رقماً معيناً في مكان غير واضح.

ولم يغير الرئيس «عفش» بيته منذ أن استلمه في بداية الثورة وحتى وفاته.. ولكن بعد أن اضطرتنا الظروف لعمل بعض التحسينات وإدخال بعض التعديلات على البيت.. قررنا إضافة طقم صالون آخر إلى الطقم الموجود.. قام «علي السيد» مدير الأشغال العسكرية بشرائه من أحد محلات القطاع العام، وعند وصول الطقم الجديد إلى البيت قام محمد أحمد بالتوقيع باستلامه.

وبعد وفاة عبد الناصر قام أولاده بتسليم «عفش» البيت إلى رئاسة الجمهورية، واستلام إخلاء طرف بعد أن سلموا الأمانة إلى أصحابها.

صور الزعماء

وفي غرفة مكتب الرئيس كانت هناك بعض اللوحات الزيتية لبعض المناظر الطبيعية وهي لوحات عادية جداً ولم تكن هناك أية لوحة من اللوحات المشهورة لأي من الفنانين العالميين كما لم تكن هناك أية تحف تخص القصور الملكية، وقد ظل الرئيس يرفض مجرد وجود أي شيء من ذلك في بيته حين عرض عليه البعض ذلك بحجة أن بيته مزاراً للزعماء والرؤساء من جميع أنحاء العالم، ويجب أن يبدو بالشكل اللائق أمامهم، فكان الرئيس يقول إنني أعيش في بيت ولا أعيش في متحف، ومن يأتي إلى هنا يأتي ليراني ولا يأتي ليرى معرضاً للتحف والآثار.

لقد حرص عبد الناصر على تعليق صور بعض أصدقائه من زعماء العالم في صالون بيته.. فكنت ترى صورة الزعيم اليوغسلافي تيتو والهندي نهرو والصيني شواين لاي وماوتسي تونج والسوفييتي خروشوف والغيني سيكوتوري والجزائري بن بيلا.. ولا نرى أية صور أخرى معلقة على جدران غرفة الصالون سوى تلك الصور.. بل إنه رفض أن نضع له صورة وسط كل تلك الصور لزعماء العالم، وقال «وهل يكرم المرء في منزله».

بيت الدولة

وحين انتقل الرئيس ليقيم في «قصر الطاهرة» لبعض الوقت ريثما يتم الإنتهاء من إدخال بعض التحسينات على بيته، وكان أول شيء يفعله عبد الناصر أنه اجتمع بأولاده وقد كانوا صغاراً في ذلك الوقت وطلب منهم المحافظة على محتويات القصر وعدم اللعب أو العبث في غرفه أو المساس بأي شيء من أثاثه، فهي «ليست ملكنا، وأي شيء يكسر فسوف ندفع ثمنه للدولة».

والحقيقة أن الرئيس لم يكن حريصاً على محتويات قصر الطاهرة فقط.. بل كان حريصاً على محتويات بيته أيضاً.. فكان يوصي جميع أولاده دائماً بالحفاظ على محتويات البيت لأنها ملك للدولة وليست ملكه..

وقد ترسخ في أذهان أبناء الرئيس ـ على مر الأيام ـ أنهم لا يعيشون في بيتهم، ولا يملكون شيئاً فيه.. بل يعيشون ضيوفاً في «بيت الدولة» فكانوا يتصرفون في بيتهم كما يتصرف الضيوف في بيوت الناس.

ولم يحدث أن كسر أولاد الرئيس شيئاً من محتويات البيت.. بالرغم من أن هذا شأن الأطفال دائماً في أي بيت يكون فيه أطفال.. ولكن حرص عبد الناصر الزائد على ممتلكات الدولة في بيته جعل أولاده مختلفين عن الأولاد في أي بيت مصري آخر.. فكانوا يمشون على أطراف أصابعهم ـ كما يقولون ـ خوفاً من أن يفعلوا شيئاً يغضب والدهم.

كانت الموبيليا جميعها من ممتلكات الأشغال العسكرية.. أما المطبخ والثلاجة والبوتاجاز والسخان والأطباق والصحون فكانت من ممتلكات الرئيس شخصياً.

أنني لا أذكر هنا أنه كان من بينها شيء مميز. فالصحون والأطباق والملاعق والشوك وجميع أدوات المائدة كانت عادية جداً مما يوجد في بيوتنا جميعاً.. ولم يكن فيها شيء من الفضة.. بل كانت من «الإستانلس» أو النيكل.. وكانت الثلاجة مصرية ماركة «ايديال» وكان السخان والبوتاجاز من المصانع الحربية..

وحينما كان يوجد أي أعطال في تلك الأجهزة ببيت الرئيس كنا نستدعي أحد عمال الصيانة من الأشغال العسكرية ليقوم بإصلاحه.. فالبيت كان تابعاً للأشغال العسكرية.. وكل شيء فيه مملوكاً لها تم تسليمه «عهدة» للرئيس وقع باستلامها في كشف.. وبعد إجراء الإصلاح اللازم كان العامل يطلب منا التوقيع باستلام قطع الغيار أو الإنتهاء من المهمة المكلف بها.. فكان العامل يدخل إلى بيت الرئيس بـ «أمر شغل» وكان عليه عند عودته أن يثبت أنه قام بمهمته.. فكان الرئيس يوقع بنفسه لعامل الإصلاح، أو نقوم نحن بالتوقيع بدلاً منه.

قميص عبد الناصر

كان عبد الناصر قدرياً ومؤمناً إلى أقصى درجات الإيمان فيما يتعلق ب «النصيب» أو الموت أو الحياة.. فلم يكن يعبأ أبداً بتقارير الأمن التي كانت تتحدث عن محاولات هنا أو هناك لاغتياله وكان يقول دائماً «لو صدقت هؤلاء، لبقيت مسجوناً في بيتي لا أخرج منه إلا إلى القبر»!!

كانت هناك إحدى السيارات المصفحة ضد الرصاص في رئاسة الجمهورية.. ولكن الرئيس كان يرفض ركوبها حتى حينما كانت تأتينا التقارير الأمنية متضمنة تحذيره من محاولة اغتيال أعدها له البعض وهو في طريقه إلى أحد الأماكن المقرر زيارتها.

وأذكر هنا أنه في يوم من الأيام، وبينما كان الرئيس يهبط السلم خارجاً ليركب سيارته في طريقه إلى مجلس الأمة.. قدمت له تقريراً عاجلاً كان قد وصلني في التو من الأمن يحذر الرئيس

من وجود «كمين» أعده له بعضهم لاغتياله في الطريق.. وقرأ عبد الناصر التقرير ولم يعبأ به وركب سيارته رافضاً أن يركب السيارة المصفحة قائلاً لي «إركب... إركب.. بلاش كلام فاضي...»

وسار موكب الرئيس.. في نفس الطريق.. ووصل بسلامة الله إلى مجلس الأمة.. ثم عدنا من نفس الطريق إلى البيت..

وطوال الرحلة والعودة منها.. كنا في غاية التوتر، والعصبية، والحذر.. بينما لم يبد على الرئيس أي أثر لما تضمنه التقرير..

وما أن وصلنا إلى البيت عائدين بسلامة الله.. حتى تنفست الصعداء، ولما أبديت دهشتي من تحذيرات الأمن أمام الرئيس.. ضحك قائلاً.. يا عم سيبك، ما تدقش.

وأذكر أن إذاعة إسرائيل قالت ذات يوم أن محمود فهيم أحضر القميص الواقي من الرصاص للرئيس عبد الناصر، والحقيقة أن عبد الناصر لم ير في حياته مثل هذا القميص، ولم يطلب أن يراه فما بالك بما قالته إسرائيل من أنني أقوم بإلباس الرئيس هذا القميص في كل مرة كان يهم فيها بالخروج من البيت.

الرئيس.. واغتيال كيندي

كان عبد الناصر يسمع مثل تلك الأخبار والإشاعات فيضحك ساخراً.. وحين كان يرانا نقوم بدفع ودفع الناس عنه مستخدمين العنف في بعض الأحيان في سبيل ذلك.. عنفنا الرئيس قائلاً.. أنتم فاكرين إنكم بتحموني من الموت.. لو أن الله أراد لي الموت فسوف أموت ولو كنت وسط مليون واحد زيكم.. فقلت له أن الحارس هو الله.. فهدأ الرئيس حين سمعني أقول له ذلك.. وطلب مني عدم المبالغة في حركتي مع الناس.. وأن أقلل من توتري وأحفظ أعصابي وسط الجماهير المندفعة لتحيته.

وبعد مرور عدة أيام على هذه الواقعة أغتيل الرئيس الأمريكي «جون كيندي» فنزل عبد الناصر على السلم لدى سماعه الخبر ونادى علي بصوت مرتفع فتوجهت إليه فقال لي الرئيس كيندي اغتالوه يا فهيم.. مش تقولي إنكم بتحرسوني.. لو كانت حراستكم بتنفع لنفعت كيندي اللي بيحرسه أمهر جهاز حراسة في العالم.

إطمأن الرئيس وهدأ حين كررت عليه قولي الحارس هو الله، فقال طبعاً الحارس هو الله مش أنتم.. بس علشان تعرفوا كده وما تبقوش تضربوا الناس بحجة إنكم بتحرسوني.

لم يكن هناك أسبوع يمر دون أن يحمل إلينا تقرير الأمن تحذيراً من وجود «كمين» لاغتيال الرئيس في أحد الأماكن لكن عبد الناصر لم يكن يعبأ أبداً بها وكان يصر على أن يواجه قدره

مهما كان بل وكان يرفض المبالغة في إجراءات الحراسة، قائلاً أنه لن يموت إلا في الز والمكان الذين أرادهما له الله ومهما فعلنا فإن أمر الله ينفذ، لا محالة.

كان عبد الناصر وفياً إلى أبعد حدود الوفاء. والذي ينظر إلى أسماء أولاده - وهو أغلى شيء في حياته، سوف يتأكد من حقيقة هذا الوفاء النادر.. فقد أطلق عليهم جميعاً أسماء زملائه وأصدقائه..

وأذكر هنا أننا كنا في طريقنا إلى أسوان في رحلة بالقطار، وفي إحدى المحطات توقف القطار ليتمكن الرئيس من تحية الجماهير المحتشدة لاستقباله..

وفجأة برز من بين الجماهير شخص يرتدي الجلباب الصعيدي التقليدي.. وأخذ ينادي «يا ريس.. يا ريس.. يا جمال».

وجدت الرئيس يقول لي «هاته.. هاته..».. بلهفة لم اعتدها فيه.. فمددت يدي وجذبت هذا الشخص إلى داخل القطار.. وحين رآه الرئيس استقبله بالأحضان.. وكأنه أب يستقبل ولده بعد غيبة طويلة.

إندهش الحاضرون لهذا المنظر المؤثر.. فلم نكن نعرف من هو هذا الشخص الذي استقبله عبد الناصر بهذه الحرارة والود.. وعرفنا من سير الحوار بينهما أنه كان جندياً ويعمل «مراسلة» خاصة لدى جمال عبد الناصر حينما كان لا يزال ضابطاً بالجيش...

وحين سأل الرئيس هذا الشخص.. واسمه امبابي عن أحواله الآن.. عرف أنه لا يعمل.. ويبحث عن عمل فعرض عليه الرئيس أن يعمل معه.. كما كان يعمل منذ سنوات.. وقد حدث فعلاً أن بقي معنا في القطار متسلماً عمله منذ هذه اللحظة.

كذلك كان عبد الناصر دائماً سريع البديهة، حاد الذكاء متقد الذهن دائماً..

أذكر أنه في إحدى المرات التي كنا نستقل فيها القطار إلى أسوان.. فوجئنا بشخص يلقي علينا «صرة» في نفس النافذة التي يقف فيها الرئيس.. فانحنى الواقفون وتملكهم الإرتباك.. ومرت الصرة بجوار رأس الرئيس واستقرت على أرضية القطار، فالتقطناها في حذر خوفاً من أن تكون «قنبلة».. وحين فتحناها وجدنا فيها «رغيف بتاو، وبصلة».

الرسالة وصلت

كان الرغيف والبصلة معاً في منديل «محلاوي».. واندهشنا من هذا الشيء الغريب الذي لم نفهم معناه أو مقصده.. ولكن عبد الناصر - الصعيدي - كان الوحيد بيننا جميعاً الذي فهم معنى هذه الرسالة.

أطل الرئيس برأسه إلى النافذة.. وأخذ يهتف بأعلى صوته ناحية الشخص الذي ألقى بهذه الصرة قائلاً.. الرسالة وصلت.. الرسالة وصلت.

سألنا الرئيس عن هذه الرسالة.. ومعناها.. فقال لنا سوف تفهمون كل شيء في حينه.

وحين وصلنا إلى أسوان.. أخذ الرئيس يسأل عن عمال التراحيل وأحوالهم المعيشية.. وطلب تقريراً مفصلاً من وزارة العمل والشؤون الإجتماعية حول هذا الأمر..

وبعد ذلك وقف الرئيس لإلقاء خطابه في أسوان.. إلى أن قال «الأخ الذي أرسل لي رسالة في المنديل.. أحب أن أقول له.. أننا قررنا زيادة أجر العامل الذي يعمل بالتراحيل إلى ٢٥ قرشاً في اليوم بدلاً من ١٢ قرشاً فقط.. كما تقرر تطبيق نظام التأمين الإجتماعي والصحي على عمال التراحيل لأول مرة في مصر.

لقد فهم عبد الناصر الرسالة التي لم يستطع أحد غيره أن يحل شفرتها.. فالمنديل المحلاوي هو رمز عمال التراحيل.. وهم العمال الموسميون الذين يتغربون في البلاد شرقاً وغرباً بحثاً عن العمل الشاق.. ولا يجدون ما يأكلونه غير البتاو والبصل. البتاو نوع من الخبز الصعيدي الذي يصنع من الذرة مع مسحوق الحلبة..

لقد خرج عبد الناصر من طبقة شعبية.. فكان بالتالي يفهم لغتها.. وكانوا بطبيعة الحال ون لغته.. ولهذا فقد أرسلوا رسالتهم بالطريقة التي يفهمها هو، فلم يضمنوا شكواهم في رسالة مكتوبة.. لأنهم لا يعرفون الكتابة.. ولكنهم ضمنوها منديلاً «محلاوي» وهو رمزهم وشعارهم.. وكتبوها بالبتاو والبصل.. لأنه طعامهم الذي لا يعرفون غيره.

ولو لم يكن هؤلاء واثقين من أن عبد الناصر يعرف لغتهم. لما كتبوها بهذه اللغة «الشفرية».. وكان عبد الناصر عند حسن ظنهم به.. ففهم الرسالة فوراً.. ورد عليها فوراً.. فمن كان يستطيع أن يقرأ رسالتهم غير عبد الناصر.. ومن كان يستطيع أن يرد عليها غير عبد الناصر..

صعيدي في اليونان

لم ينس عبد الناصر أنه رجل من الصعيد الجواني، حتى وهو في قمة نجاحه.. بل كثيراً ما كان يضحي بالتقاليد البروتوكولية من أجل هذه الحقيقة الراسخة في أعماقه..

أذكر أننا كنا في زيارة لليونان.. حين كانت لا تزال مملكة يرأسها الملك قسطنطين.. وقد كان البروتوكول الملكي يقضي بأن يرتدي الرئيس «الردنكوت» أثناء حضوره حفل العشاء الذي أقامه ملك اليونان على شرف الرئيس.. وقبل عبد الناصر أن يرتدي هذا الزي الغريب عليه على مضض..

ولكن عند دخوله قاعة العشاء.. كان البروتوكول يقضي بأن تضع الملكة زوجة الملك يدها

في يد الرئيس وتدخل معه إلى القاعة. . وحين تقدمت الملكة لتضع يدها في ذراع عبد الناصر سحب الرئيس ذراعه في لطف وطلب منها أن تتقدمه وحدها!!

ففهمت الملكة على الفور أنه يرفض هذا التقليد البروتوكولي وابتسمت في هدوء. . وتأخر عبد الناصر خطوة ليصاحب الملك. . وخلفهما سارت السيدة حرم الرئيس.

لم يكن عبد الناصر ليضحي بتقاليده العربية من أجل الرئاسة. . ولم يكن ينسى حتى في حضرة الملوك والزعماء أنه جمال عبد الناصر، المحافظ، المسلم، البسيط. . وكان يضرب بكل تقاليد البروتوكول عرض الحائط حين تتناقض مع هذه الحقيقة التي يرفض أن يكون على غيرها.

الماء.. بدلاً من الخمر

صدر مؤخراً أحد الكتب، وقد كتبته ممثلة مشهورة (الممثلة برلنتي عبد الحميد) ادعت أنها زوجة المشير. . قالت فيه أن عبد الناصر كان يشرب الويسكي ويلعب القمار ويحضرون الفاكهة له بالطائرة من الخارج إلى آخر تلك الإدعاءات التي هي أبعد ما تكون عن حقيقة عبد الناصر كما عرفتها طوال عهدي معه، وعرفها أيضاً جميع من كانوا قريبين منه. . ومنهم الكثيرون ممن اختلفوا معه، وخاصموه، ولكن أحداً منهم لم يقل عن عبد الناصر ما قالته تلك الفنانة التي لم تر عبد الناصر في حياتها، ولم يرها هو ولو لحظة واحدة حتى على الشاشة.

فقد كنت ألازمه كظله في البيت وخارج البيت منذ عام ١٩٥٤ وحتى وفاته لم أتخلف يوماً واحداً عن رؤيته وأشهد الله أنني لم أر هذه الممثلة ولم أسمع أن عبد الناصر قد رآها.

وبمناسبة الحديث عن الخمر أذكر هنا أن البروتوكول كان يقضي في بعض المناسبات بشرب هذا الخمر وبما يعرف بـ «الأنخاب» وكان ياور الرئيس حريصاً على التنبيه على منظمي تلك المناسبات التي كان الرئيس يشهدها في زياراته للدول الأجنبية، بأن يقدموا للرئيس بعض أنواع العصير بدلاً من الخمر في عملية تبادل الأنخاب، وبعد أن أصيب بمرض السكر كانوا يقدمون له الماء في الكوب الذي يشربه نخب مضيفيه.

لم يكن الرئيس وحده الذي يصر على ذلك. . بل كان جميع أعضاء الوفد المصري المصاحب له. . فكنا جميعاً نشرب العصير أو المياه المعدنية بدلاً من الخمر في حفلات الإستقبال التي كانت تجري تكريماً للرئيس في البلاد الأوروبية.

أن ياور الرئيس عبد الناصر (الفريق سعد الدين الشريف). . لا يزال حياً ـ أمد الله في عمره ـ ويستطيع أن يشهد بذلك. . كما يستطيع أن يشهد به الكثيرون ممن رافقوا عبد الناصر في زياراته الخارجية، وشاركوه شرب العصير أو الماء. .

المصدر: كتاب عبد الناصر. . هذا المواطن، طبعة القاهرة ١٩٩٣.

عبد الناصر الرئيس

أمين هويدي (*)

رئيس المخابرات العامة المصرية عام ١٩٦٧،

وزيراً للإرشاد القومي وللحربية بعد نكسة ١٩٦٧!

كان انحيازه للشعب وللطبقات الفقيرة واضحاً في كل تصرفاته كإنسان وقراراته كرئيساً للجمهورية ولم ينس للحظة من حكمه أنه بالنهاية خرج من هذه الطبقة وقام بالثورة من أجلها:

١ ـ الرئيس والمشكلات الإجتماعية:

المواد التموينية: كانت الحالة التموينية تنال اهتمام الرئيس بشكل واضح. . . رغيف الخبز، الحلاوة الطحينية، الزيت، السكر، الشاي، الصابون، اللحوم، الجبن. . . وفوق كل ذلك الأحوال السائدة في الجمعيات التعاونية. وكان لهذا الإهتمام المستمر تأثيره الواضح في الجماهير إذ أنه رغماً عن ظروف النكسة ورغماً عن ارتفاع الأسعار العالمية وقلة المتيسر من العملة الحرة للإستيراد فإنه لم يحدث في ذلك الوقت أي عجز في المواد التموينية الرئيسية بل أمكن السيطرة تماماً على الأسعار في السوق المحلية فاحترمت التسعيرة الجبرية وقلت حوادث التلاعب في الأسواق بعد أن سحبت تراخيص بعض التجار «المتلاعبين» وأقفلت بعض الحوانيت وقدم الآخرون للمحاكم لمواجهة الأحكام الرادعة.

ولقد كان توفر المواد التموينية بهذا الشكل الملحوظ موضع نقد في كثير من اللقاءات السياسية إذا كان البعض يرى أن الظروف التي تمر بها البلاد وهي تخوض حرب الإستنزاف تحتاج إلى مزيد من التقشف بالإستغناء عن توفير بعض السلع. ونوقشت هذه الإتجاهات أكثر من مرة في مجلس الوزراء إذا كان بعض الزملاء يرون صحة هذه الإتجاهات التي كانت تلاقي تجاوباً من قطاع كبير من شعبنا الطيب الحمول الصبور إلا أن «الريس» كان يقول «تقشف إيه يا جماعة؟ هية الناس لاقية الضروريات علشان نادي بالتقشف!!».

وفي إحدى الجلسات دخل الرئيس قاعة المجلس ومعه «شنطة» متوسطة الحجم. وحينما بدأت الجلسة أخذ يفرغ محتوياتها وفوجىء الوزراء بأن المحتويات كانت عدداً من «أرغفة» الخبز البلدي مأخوذة من بعض المخابز في عدد من أحياء القاهرة... شبرا، روض الفرج، الوايلي، سيدنا الحسين، الدرب الأحمر، مصر القديمة، مصر الجديدة... وأخذ يلوح بها لوزير التموين معرباً عن عدم رضائه عن حالة «الرغيف» سواء من ناحية الحجم أو اللون أو الشكل وكان يقول «مين يقدر منكم يأكل مثل هذا الخبز؟ هل هذا معقول؟» وطالب غاضباً بعلاج سريع للموقف وانتقال أجهزة الوزارة إلى المخابز حتى يتم إصلاح «الرغيف». وقد كان.

الحلاوة بالطحينية: في فترة من الفترات شحت «الحلاوة بالطحينية» في الأسواق. وكان هذا الموضوع يؤرقه «فالرجل الفقير حياكل إيه؟ رغيف وقطعة حلاوة... فإذا عجز الحكم حتى عن تقديم ذلك فعلينا جميعاً أن نتخلى». واستمر يضغط ولم يهدأ له بال حتى أصبحت «الحلاوة بالطحينية» في متناول الجميع.

المدارس والبلوفر: كان يغضب حين يرى المسؤولين في المدارس المختلفة يغيرون لبس الطلبة كل عام «ففي هذا عبء إضافي على ميزانية الأسرة وميزانية الدولة علاوة على أن هذه السياسة فيها عدم تقدير للمسؤولية وعدم وعي وتقدير للظروف السائدة».. وفي نفس الوقت لم يكن يتصور أن سعر «البلوفر» يصل إلى جنيهين مثلاً وكم سمعناه يقول «يعني لو واحد عنده خمسة أولاد يحتاج إلى عشرة أو عشرين جنيهاً لبند البلوفرات فقط عند افتتاح المدارس ويبقى عليه أن يدبر نقوداً للأحذية والملابس الداخلية هذا عدا عن الكتب المدرسية والقرطاسية».

الصحة العامة: أما المواضيع المتعلقة «بالصحة العامة» فكانت تثار بين وقت وآخر خاصة عند انتشار «بعض الأمراض الصيفية» كالكوليرا مثلاً... كانت التقارير اليومية ترفع له موضحة عدد الإصابات أو الوفيات ومقدار توفر الأمصال في المستشفيات أو المخازن في كل أنحاء الجمهورية وحوادث الإهمال التي قد تحدث هنا وهناك. ولذلك فإن السيطرة على مثل هذه الأمراض الطارئة كانت تتم في أقصر وقت. ويكفي للدلالة على ذلك تقارير الهيئات الدولية ثم اعتماد أغلب البلاد العربية وغيرها من البلاد الإفريقية والأسيوية على إنتاجنا المحلي من الأمصال التي كان الرئيس يأمر بإرسالها بالطائرات فور طلبها.

مناقشة مع وزير الأوقاف: حدث في إحدى الجلسات أن مجلس الوزراء كان منهمكاً في بحث «الخطة السنوية للدولة» وكيفية تدبير الأعباء المالية من العملة الصعبة أو العملة المحلية وإذا بالزميل عبد العزيز كامل وزير الأوقاف يلح في طلب الكلمة. وكان من عادة «عبد العزيز» أن يفاجىء الجميع بإثارة موضوع آخر بعيداً كل البعد عن الموضوع الذي يناقش كما كان معروفاً عنه أنه كان دائماً ما يعبر عن آرائه بجمل مطاطة لا تلزمه برأي معين. أعطاه الرئيس الكلمة بعد أن لمس إصراره وإلحاحه وإذا به يردد نفس ما يردده أحياناً على شاشات التلفزيون أو في الصحافة

عن «ضرورة العودة للدين ونشر الدعوة بين الشباب لتوعيتهم بأمور دينهم وتاريخ السلف الصالح. . . .» ورد عبد الناصر قائلاً «أنا موافق يا عبد العزيز. ولكن كيف؟ طيب يا «أخي أنت وزير الأوقاف ولديك ميزانيتك الغنية الضخمة وتحت يدك الجوامع والخطباء وكافة أجهزة الإعلام، ما الذي يمنعك من تنفيذ ما تقول؟ هل تقدمت بخطتك لتنفيذ ذلك واعترضنا عليها؟ هناك فارق كبير بين الحديث عن شيء والعمل على تنفيذه».

العمالة الزائدة: وبعد النكسة ظهرت بعض الآراء عن العمالة الزائدة والكف عن التزام الدولة بإيجاد عمل للخريجين من الجامعات ورفض الرئيس ذلك قائلاً «أي عائلة تنتظر إنتهاء أولادها من التعليم حتى يجدوا عملاً يدر عليهم دخلاً. وكلنا مررنا بهذه الأوضاع. وعلينا ألا نخيب أمل العائلات بعد أن ذاقوا الأمرين حتى يتخرج الأولاد والبنات».

مجانية التعليم:

مع ارتفاع أصوات عديدة تهاجم مجانية التعليم كان عبد الناصر يغضب من ذلك فبالرغم من عيوب طريقة التحاق الطلاب بالجامعات وفقاً لمجموع الدرجات الحاصلين عليها فإنه كان يجد ذلك محققاً لمبدئي تكافؤ الفرص وكان يضرب مثلاً بابنته التي لم يؤهلها مجموعها للالتحاق بالجامعة فاضطرّت للالتحاق بالجامعة الإمريكية.

٢ ـ كيف تعامل «عبد الناصر» مع وزرائه؟

كان من أهم خصال عبد الناصر قدرته على «الإستماع». . . وهي ميزة ثمينة لرجل الحكم ورجل الدولة. . . كان في إمكانه أن يستمع لفترات طويلة دون أن يقاطع أو يتدخل فإذا انتهى الوزير من الإدلاء برأيه تبدأ المناقشة في هدوء في أغلب الأحيان.

ـ عندما تكون الطلبات غير مسؤولة:

حدث مرة أن كلف وزير النقل بأن يقدم للمجلس خطة لإصلاح مرفق السكك الحديدية إذ كانت هناك شكاوى من أن حالة المرفق أصبحت تحتاج إلى عناية خاصة وطبعاً رجع الوزير إلى المختصين للدراسة وتقدم بخطته في مذكرة لتعرض بصيغة عاجلة على المجلس وكانت التكاليف المقدرة لتنفيذ إصلاحات المرفق ٤٠٠ مليون جنيه. وبدأ الوزير في إلقاء بيانه ومبرراته وفجأة قاطعه عبد الناصر قائلاً «أنت طالب ٤٠٠ مليون جنيه لإصلاح المرفق. وأنت تعلم الظروف التي تمر بها البلاد وهي تخوض حرباً لتحرير الأرض. لو كنت مكاني الآن من أين تحصل على هذا المبلغ دفعة واحدة؟ وحتى لو تيسر لنا ذلك هل لدى المرفق القدرة على إنفاق هذا المبلغ في السنة المالية الحالية؟ » وأضاف عبدالناصر قائلاً «المسألة ليست التخلص من المسؤولية وإثبات مواقف. يجب علينا أن نتقدم بطلبات معقولة تتناسب مع الإمكانيات المتاحة. ولكن ما ألمسه في

الطلبات المقدمة أنها طلبات غير مسؤولة». وطلب من الوزير إعادة الدراسة على أساس الطلبات العاجلة والطلبات التي يريدها في المدى الطويل.

وكانت مقابلاته تتم في الطابق السفلي بمنزله في منشية البكري في حجرة الصالون البسيط الذي كانت تتصدره صورة «أم تحنو على وليدها» وعلى رف المدفأة ترتص صور رؤساء بعض الدول المهداة إليه.. نكروما، تيتو، بندرانيكا، سوكارنو، نهرو...

- بساطة الملبس والعلاقة مع الوزراء:

كان الرجل يحيط زائره بكل رعاية... استقبال جيد... جلسة تحوطها البساطة... ثم لا بد من مشروب بارد وآخر ساخن... وتقديم سيجارة يحرص على إشعالها بنفسه للضيف. وبعد أن تنتهي المقابلة كان يحرص على توديع الزائر حتى الباب الخارجي ويظل واقفاً حتى تتحرك عربة الزائر على باب الخروج.

ولم يكن من عادته ارتداء «البدلة الكاملة» في مقابلاته إلا إذا كانت هناك مناسبة تقتضي ذلك إذ كان يفضل ارتداء القميص والبنطلون والصندل وأما في الشتاء فيمكن أن يرتدي «بلوفر» من الصوف. ولم يكن في الوقت نفسه حريصاً على أن يقابله «الوزير» في بدلته الكاملة.

كنت أرتدي «البوشرت» في إحدى مقابلاتي معه وكانت المرة الأولى التي يراني فيها بهذا الزي وبعد أن صافحني قال ضاحكاً «أنت الآن مثل نيريري» إذ كان الرئيس التانزاني يحرص على ارتداء «البوشرت» بصفة دائمة. وفي تلك المقابلة أيضاً أشعل لي سيجارة قدمها لي وحينما قدم السيجارة الثانية أشعلتها مستخدماً عود ثقاب فلم يكن معي «ولاعة» فعلق قائلاً «بقى يا أخي وزير وليس معك ولاعة» وأهداني في الحال بواحدة ما زلت أحتفظ بها في اعتزاز حتى الآن.

وكان يجامل وزراءه في الملمات كوفاة أحد الأقرباء أو في المرض كذلك كان يجامل في المسرات وأحياناً يحضر بنفسه للتعزية أو للإطمئنان على الصحة أو في الأفراح ولكنه كان عزوفاً بصفة قاطعة عن حضور الدعوات الخاصة أو المآدب أو الزيارات.

فمثلاً في حالة وفاة وزير أو فقده لمنصبه الوزاري كان يمنح الوزير أو العائلة معاشاً إستثنائياً ليحافظ على مركزه الإجتماعي من جانب ولعدم تورطه في أعمال غير لائقة من جانب آخر.

- وزير بدون سكن:

حدث أن «الدكتور حسن مصطفى» وزيرالإسكان في ذلك الوقت كان يعاني من عدم وجود مسكن خاص له إذ أنه قبل استيزاره كان يعمل في الخارج وأجر مسكنه الخاص لأحد أساتذة الجامعة فلما عاد «حسن مصطفى» ليتولى منصبه الوزاري حاول أن يقنع المستأجر بإخلاء المنزل دون جدوى فسكن في «بدروم» المنزل أي في الطابق الأسفل وهذا وضع لا يليق. ولم يتمكن

وهو وزير الإسكان من طرد المستأجر الذي استغل هذا الموقف وأخذ يرسل بالشكاوى العديدة إلى مختلف الجهات لقطع خط الرجعة على الوزير إن أراد أن يقدم على أي إجراء. ووصلت إحدى الشكاوى إلى «الريس» طبعاً بصورة مشوهة. فاتصل بي غاضباً وطلب مني التحقيق. كان الأخ «حسن» وزيراً نزيهاً فاضلاً عالماً طيباً. وفي جلسة خاصة اتضح الموقف ووضحت الصورة «الحقيقة» أمام «الريس» فأمر بأن يخصص له إحدى الشقق من «الحراسة» علماً بأنه كان قد أصدر تعليماته ببيع مثل هذه المنازل في «المزاد العام».

وحدث نفس الشيء مع حافظ بدوي وزير الشؤون الإجتماعية في ذلك الوقت إذ كان يقطن في شارع الجيش في شقة رأى أنها أصبحت لا تتناسب مع وضعه الإجتماعي الجديد وكان حافظ «يتردد» كثيراً في الإتصال بالرئيس لهذا السبب أو غيره. إلا أن الرئيس حينما علم بذلك أمر بتخصيص منزل له رغماً عن الظروف السابق شرحها ورغماً عن أنه كان يقدم على هذه الحلول وهو كاره محرج. وبهذه المناسبة كان «حافظ» عضواً في لجنة تنظيم الأسرة وكان باسم الله عنده «دستة» من الأولاد وكان ذلك محل تندر دائم من «الريس» إذ كيف يمكن له أن يقنع غيره «بتنظيم أسرته» وعنده مثل هذا «الجيش العرمرم».؟!!!

ـ القارىء وواسع الإطلاع:

وكان «الريس» ملماً تمام الإلمام بما يدور... كان قارئاً ممتازاً يطلع على أحدث المؤلفات التي تصدر في الخارج فربما قرأ الكتاب كله وربما قرأ بعضاً منه وربما أمر بتلخيصه حتى يقرأ موجزاً عنه. ولا يمكن لأي فرد أن ينكر سعة إطلاعه وثقافته الواسعة وإلمامه بالمتغيرات الدولية والعوامل المتجددة التي تدور على الصعيدين الإقليمي والعالمي.

حدثت أزمة أثناء كنت وزيراً للحربية عقب النكسة... كانت القيادة العامة للقوات المسلحة تعيش وقتئذٍ في نفس المناخ الذي عاشت فيه قبل النكسة... فأراد عبد الناصر أن يقلم أظافرها بتعيين وزير مدني على رأسها يحاول أن يخضعها للمسؤوليات الوزارية والبرلمانية كغيرها من الوزارات

وكنت أتناقش في إحدى المرات مع «الريس» فيما يحدث وابتسم الرجل في تعب وسألني «هل قرأت كتاب رجال البنتاغون»؟

Men of the Pentagon - from Forrestal to McNamara - By C.W. Borklad.

وأسقط في يدي إذ لم أكن قرأته أو سمعت عنه. ونصحني الرجل أن أقرأه.

وما دمنا نتحدث عن قراءاته فإن «الريس» كان يقرأ كل الموضوعات التي كانت تصله ولذلك

كان ملماً إلماماً كاملاً بما يدور ويحدث وكان من المستحسن لمن يعرض موضوعاً من الموضوعات أو يسأل عن موضوع ألا يخوض فيه إذا لم يكن متمكناً منه مدركاً لتفاصيله ملماً بجوانبه لأنه كان سيجد نفسه بعد فترة وقد تورط حتى ركبتيه.

ـ أول إجتماع لمجلس الوزراء بعد النكسة:

وفي أول إجتماع لمجلس الوزراء حضره عبد الناصر بعد النكسة هبت العواصف في أكثر من إتجاه . . . كان أول من تحدث حسين الشافعي وبدأ يتحدث عن الأخطاء والسلبيات التي أدت إلى النكسة بصوته الهادىء العميق. . . أخذ ينتقد «الإنفرادية في اتخاذ القرارات» ثم تناول موضوع «الحراسات» وأخذ يذكر الرئيس أنه تحدث مراراً إليه بخصوصه، واستمع الرئيس في هدوء وصبر حتى انتهى من حديثه.

وبدأ الرجل في الحديث وتساءل: لماذا لم يدلي حسين الشافعي بمثل هذه الآراء من قبل؟ لماذا لم ينتقد أسلوب الحكم إلا بعد الهزيمة؟ لماذا يختار هذا الوقت بالذات؟ ثم ضحك بمرارة وهو يردد المثل الشائع «لما العجل يقع تكثر سكاكينه» وأخذ يعدد أمام المجلس القرارات الهامة التي أخذت قبل النكسة وأهمها سحب القوات الدولية وغلق خليج العقبة أمام السفن الإسرائيلية وأكد أنها تمت بموافقة الجميع.

إذا كان أسلوب الحكم ليس محل رضائك لماذا لم تقدم إستقالتك كما فعل البغدادي وكمال حسين وحسن إبراهيم؟ لماذا تبقى في حكم لا ترضى عن اتجاهاته؟ لماذا يظل في المسؤولية في ظل قوانين تتعارض مع معتقداته؟

ورد الشافعي «الإستقالة أبسط شيء لا تكلف الإنسان إلا قصاصة من ورق». ورد الريس «لماذا لا تقدم هذه القصاصة؟».

وتوقف الرجلان عند هذا الحد

ولكن الشافعي لم يقدم استقالته كما أن عبد الناصر لم يقدم على إقالته حتى يوم وفاته.

إشتراكيته، مصريته وعروبته:

إشتراكية عبد الناصر: كان عبد الناصر غير «مزمت» ولا يميل أبداً إلى التطرف. فالتطرف شيء والثورية شيء آخر. كان عبد الناصر ثائراً ولكنه لم يكن متطرفاً ولا متزمتاً. فبالرغم من أنه كان إشتراكياً بطبعه إلا أنه كان يفسر إشتراكيته في بساطة ويسر «فرجل الشارع لن يهتم بنا لو نادينا بالإشتراكية ليل نهار. . . سيتركنا نادي بالإشتراكية فإذا نظرنا إلى الخلف سنجد أن الشعب قد انصرف إلى همومه وإننا نسير وحدنا خلف شعاراتنا . . . الإشتراكية بالنسبة للأسرة عبارة عن أكل ضروري ومسكن لائق وأن الرجل يجد عملاً له ولأولاده ثم يكون قادراً على تزويج بناته».

● كان عبد الناصر «مصرياً» لحماً ودماً أو كما نقول «أباً عن جد». وبذلك فإنه كان متعصباً لمصريته إلى أقصى حدود التعصب فنجده حتى بعد أن وصل إلى قمة السلطة لا يميل إلا إلى اللبس المصري والأكلة المصرية والعادات المصرية فلم يحاول أبداً أن يتشبه بالأجانب في شيء... السيجارة هي هوايته المفضلة قبل أن يقلع عن التدخين فلم يمارس تدخين «السيجار» أو «البايب»... سعادته الغامرة حينما حلت السلعة المصرية محل السلع الأجنبية التي كانت تملأ الشوارع والمحلات. صراحته المتناهية في التعامل فالأبيض أبيض والأسود أسود في حين أن كثيراً من المواقف تتطلب أن يكون اللون «بين بين»... ندرة سفره إلى الخارج فلم يكن يستريح إلا في بيته.

● وكان «عبد الناصر» يعتز بعروبته... كان من أكثر زملائه قناعة بالعروبة وأن مصر ما هي إلا جزء من الوطن العربي الكبير. فوقف وحده يحارب معركة حلف بغداد ليخرج المشرق العربي من مناطق النفوذ. وألقى بثقله خلف ثورة الجزائر حتى وقعت اتفاقية «ايفيان»، ووقف إلى جانب الملك محمد الخامس وهو في المنفى حتى عاد ثانية يتربع على عرش المغرب المستقل، ووافق على إلغاء الحكم الثنائي في السودان حتى يتيسر له حق تقرير المصير، ثم ألقى بثقله خلف ثورة اليمن حتى يتخلص من حكم الإمامة السابق ثم وقف خلف ثورة «عدن» حتى حصلت على استقلالها، ثم أهم من كل ذلك حقق الوحدة العربية مجسدة في «الجمهورية العربية المتحدة»...

وكل موقف من المواقف السابقة كان يحتاج إلى قرار... وربما حدثت إنتكاسة هنا أو فشل هناك لكن عروبته كانت دائماً ما تحول دون أن «يكفر» بما يحدث أو يرتد عما يؤمن به...

● وكان الرجل «بشراً» كالملايين... له حسناته وله سيئاته... له إيجابياته وله سلبياته... يحب ويكره، يحنو ويقسو، يمرض ويعافى، يخطىء ويصيب، ينجح ويفشل، يصادق ويعادي.

وتقييم قرارات عبد الناصر على غير هذا الأساس فيه ظلم للرجل وللتاريخ.

فمن صوروا «عبد الناصر» على أنه «شيطان» تجاوزوا الحقيقة إذ تركوا لأحقادهم الشخصية العنان فشوهوا التاريخ وأساءوا إلى بلادهم خالطين بين دوافعهم الشخصية ودوافعه العامة... وهذا أمر لا يجوز.

ومن صوروه على أنه «ملاك» لا يخطىء غلبت عليهم عوامل العاطفة والحماس وهذه مقاييس لا يعتد بها في وزن الأمور وتقييمها ذلك أن أي رئيس يجتاز في رئاسته ساحات الإنتصار والفشل ومجالات الصواب والخطأ وتماماً كالرسم البياني تكون الصورة... ارتفاع وانخفاض. وهذا شأن «البشر» كما قلنا لأن «الملائكة» لا يعيشون على ظهر الكوكب الذي نحيا عليه.

كان عبد الناصر وهو يصنع قراره إنسانا أولاً وآخراً بما له أو بما عليه.

● وعرف الرجل بالإستقامة فلم يجسر أحد أن يتحدث عن «نزوة» أو «سقطة». كان مستقيماً في شبابه الأمر الذي يعرفه عنه كل أصدقائه وزملائه فلم يكن له زلة واحدة مما يقع فيها الشباب عادة. وظلت هذه الإستقامة تلازمه إلى آخر يوم في حياته. فلمْ تكن له جولات أو صولات في «الشوارع الخلفية» كبعض من يصلون إلى السلطة. هذه الإستقامة مكنته قبل الثورة من متابعة الحياة السياسية في مصر متابعة دقيقة عن طريق اتصاله بمعظم الأحزاب والجمعيات القائمة، كما مكنه بعد الثورة من أن يهب كل دقيقة في حياته إلى أمته مكباً على دراسة المشاكل المتلاحقة محاولاً إصلاحها... هذه الإستقامة انعكست على قراراته كلها فلم يتخذ قراراً واحداً فيه كذب أو نفاق «فنحن نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا». كان ربما يصدر قراراً خاطئاً ولكنه كان دائماً يصدر القرار الصادق إذ لا يضع في اعتباره وهو يصدر القرار إلا المصلحة العامة في ضوء ما يراه صحيحا.

فكان قراره صريحاً واضحاً حتى ولو كان به تجاوزات فكان مثلاً لا يعطي باليد اليمنى شيئاً ليسحبه باليد اليسرى، ولا كان يتستر وراء ساتر يغلف به قراره أو يبرره.

● ونشأة عبد الناصر مفتاح هام لشخصيته ومعتقداته... فقد نشأ الرجل في بيئة فقيرة تكاد لا تملك شيئاً. وذاق طعم المعاناة كالملايين الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى التي نشأ فيها. ربما عانى من عدم توفر تكاليف الدراسة ولم يكن التعليم بالمجان بعد... وربما عانى من عدم توفر تكاليف الحياة... وربما عانى من غياب السند القوي الذي يدفعه في دروب الحياة... ولم يكن غريباً على شخص عانى ما عاناه أن يقف دائماً إلى جانب الكادحين من العمال والفلاحين والموظفين... كان يشعر بإحساس هؤلاء وهو ما عبر عنه «بإحساس الطليعة الثورية بمشاعر الجماهير وإذا فقدت هذه الطليعة الثورية هذا الإحساس الحق لطليعة ثورية أخرى أن تقفز إلى السلطة لتحقق آمال الجماهير وترفع عنها أسباب المعاناة». لم يكن في قراراته تلك يشعر أبداً بحقد على طبقة بعينها بل نجده مثلاً في قرارات الإصلاح الزراعي يزيد من عدد الملاك ويحاول التقريب بين الطبقات، وفي قراراته الخاصة بالحراسة كان يهدف في معظمها إلى تمصير الشركات والبنوك بعد أن كانت في أيدي الأجانب وإلى القضاء على الأقطاع بكافة أنواعه وإلى إنهاء سيطرة رأس المال وإلى الحد من نشاط المجرمين وتجار المخدرات. صحيح حدثت أخطاء في التنفيذ قد يصل إلى حد وقوع التجاوزات ولكن الأمر الذي يمكن أن نقطع به أنه لم يصدر هذا بدافع من الحقد الطبقي أو الإنتقام. وفي قراراته الخاصة بمجانية التعليم كان يقف إلى جانب العاجزين عن توفير تكاليف التعليم الباهظة. وفي قراراته الخاصة بالعمال كان ينحاز إلى طبقات العمال ليمنع عنهم استغلال رأس المال.

(*) المصدر: كتاب مع عبد الناصر، طبعة بيروت والقاهرة ١٩٨٨.

الباب الثاني

دفاعاً عن الثورة وعبد الناصر

وقبل مجيئه ... يا للهول!

بقلم : محمود السعدني

(كاتب وصحافي مصري)

نحتفل بذكرى وفاته في كل عام، مع أنه كان الأجدر بنا ، أن نحتفل بيوم مولده، الطفل اليتيم الفقير، الذي سقطت رأسه على تراب قرية فقيرة من قرى أسيوط وعاش مثلنا يعاني الفقر والحاجة والضغوط. والذي تشعلق في شبابه مثلنا على سلم التروماي، ودخل الدرجة الثالثة مثلنا في دور السينما، وسكن الحواري والشوارع الضيقة مثلنا في المدن، واستحم في مياه الترع الممتزجة بالطين مثلنا في الريف . قائد ومفجر وبطل ثورة ٢٣ يوليو جمال عبد الناصر حسين . ألف رحمة عليه .

وقبل مجيء عبد الناصر ، كانت مصر تنقسم إلى مصريين ، مصر السادة ومصر الخدم !

وكان السادة يعيشون في هناء العيش ، بينما الخدم كانوا يعيشون في أزفت حال !

وكان الباشا والبيه إذا مرضا يكتفيا في عشائهما بصدر فرخة، وكان الفقراء يعتقدون أن صدر الفرخة عورة، وحرام لا يتطلع إليه مؤمن يعبد الله!

وكان الباشا إذا شعر بالإرهاق، طار إلى فرنسا ليشرب من مياه فيشي، ويتلعبط في حمامات الطين. والحق أقول، أن هذه الميزة لم تكن وقفاً على الأغنياء وحدهم، فقد كان الطين هو غذاء الفقراء وشرابهم أيضاً!

وجاء عبد الناصر، فأصبح للفقراء حق في الحياة، وأصبح العمل واجباً وشرفاً، وتذوق الفقراء اللحم، وامتدت أيديهم إلى الفواكه وذهب بعضهم إلى المصايف. وأصبح لهم نصيب من متع الحياة!

وقبل مجيء عبد الناصر، كان الإحتلال الإنجليزي جزءاً من النظام السياسي في مصر. كان السفير البريطاني هو كبير العائلة المصرية، وكان يدعو المصريين إلى التمسك بأخلاق العاصمة البريطانية، وكان الجيش الإنجليزي هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، وكانت منطقة القناة وقفاً على جنود الجيش الإنجليزي وعمالهم من المصريين، وعدا ذلك فأي مصري يشاهد على الطريق عدو، وأي مصري يضبط بجوار المعسكرات لص!

وكان الإنجليز يزعمون أن الجيش البريطاني وجد هناك لحماية الأمن العالمي، والحقيقة أنه كان هناك لحماية مصالحهم في القناة، فقد كانوا يقبضون مئات الملايين ويمنحوننا مليونا كل عام.

وجاء عبد الناصر، وإذا بالقناة تعود إلينا، وإذا بالجيش البريطاني يحمل عصاه على كاهله ويرحل، وإذا بالسفير البريطاني سفير ككل السفراء وإذا بالمصري حر على أرضه، وإذا بالمعسكرات مصرية والجنود أيضاً مصريون. وتحررت مصر من احتلال دام سبعين عاماً، وثأرت مصر لهزيمة التل الكبير!

وقبل مجيء عبد الناصر، كان الخواجة ماتوسيان يملك الشركة الشرقية للدخان، وكان العمال، يعملون بالقطعة، كان أكبر أجر لا يتعدى القروش الخمسة، وكان يأخذ الأصحاء فقط ويطرد المرضى. وكان الخواجة اسباتس يملك مصانع الكازوزة، وكان الخواجة جان ماروثيان يحتكر صناعة الدخان المعسل. والخواجة منشة يحتكر تجارة المجوهرات، والخواجة كوهنكة يحتكر تجارة الساعات، وحتى شركة الترومواي، كان العمال مصريون والمفتشون خواجات، وكانت مخابز العيش في أيدي اليونانيين والفنادق ملك الفرنسيين والمطاعم ملك الطلاينة وتجارة الأقمشة وتجارة الجملة عموماً في أيدي اليهود! أما البنوك، فكانت ملك الإنجليز والفرنسيين واليهود، بينما كانت مصر كلها من أملاك الإنجليز!

وعندما جاء عبد الناصر، استخلص كل هذه المصالح من أيدي الخواجات وردها للمصريين.

وأصبح المصري هو صاحب الأرض وصاحب المصلحة. وعادت مصر إلى أهلهابعد غياب طويل.

وقبل عبد الناصر، كان التعليم ليس للأذكياء ولكن للأغنياء! والوظائف للسالكين وليس للصالحين! والأرزاق للواصلين وليس للمجتهدين! وكان المصري يعرف عن أوروبا، بمقدار ما يعرفه الرجل العادي الآن عن كوكب الزهرة! وأغلب المصريين عاشوا وماتوا دون أن يشاهدوا الإسكندرية! ومعظمهم توفي دون أن يجرب ركوب القطار! وكان الجزار يذبح الذبيحة ويوزع أجزاءها على عدة بيوت في الحي، لأن البيوت الأخرى لا تذوق اللحم ولا تطيق شراءه!

وجاء عبد الناصر، وانفرجت أمام الجميع! وأصبح للعمال قضية، وأصبحوا مع الفلاحين نصف مجلس الأمة، وأعضاء في مجالس الإدارة، وأصبحت لهم حقوق، وأصبح دورهم هو أهم الأدوار في صنع مستقبل مصر.

وقبل مجيء عبد الناصر، كان الفلاح يتصور أن حدود الكون تنتهي عند المركز، وكانت المستشفى نوعاً من الشبرقة لا يحلم بها، وأكل اللحوم لوناً من ألوان الترف لا يتطلع إليه! أما الكهرباء فكانت رجساً من عمل الشيطان فاجتنبوه يا أهل الكفور! أما الأرض فهي الحرام التي يجب ألا يمسه، وهو مسموح له فيها بالعمل، ولكن امتلاكها ضرب من ضروب الكفر، ولباسه كان الدمور وفراشه كان القش، ومسكنه كان كمصطاف الغني نوافذ، ومشتي الفقير ابن السبيل هشيما!

وجاء عبد الناصر، وانفتحت الدنيا كلها أمام الفلاح.. امتلك الفلاحون الأرض لأول مرة واستخدموا الكهرباء لأول مرة، وتذوقوا اللحم لأول مرة، وإذا ذهبت إلى الريف اليوم، ستجد الثلاجة والغسالة وفرن البوتاجاز وستكتشف أن الملابس بناطيل جينز، وقمصان كاروهات، واختفى الجلباب الأزرق المصبوغ بالنيلة إلى الأبد، ولم يعد هناك أثر للفلاح طويل القفا كبير الأذنين، الذي يصر الفنان نجاح الموجي على تمثيل دوره حتى الآن!

وقبل مجيء عبد الناصر، كان الجيش في مصر تابعاً للسراية، وكان القادة الكبار ضمن حاشية الملك، وكانت أسلحته فاسدة، وقيادته تابعة وكان دوره هو الظهور في المهرجانات والوقوف صفاً في الإستعراضات، وحماية الملك!

وفي أول إمتحان حقيقي أثناء حرب فلسطين اكتشف الضباط الصغار على وهج النار الحقيقة كاملة، وكان تنظيم الضباط الأحرار، الذي كونه عبد الناصر ونظمه، وفي ليلة ٢٣ يوليو قاده إلى النصر، ليتحول جيش مصر ومنذ تلك اللحظة، إلى جيش وطني أمره بين يدي شعبه وهدفه حماية مصر. وأصبح درعاً للعرب وحصناً للإسلام.

واليوم يقول السادة الباشاوات، أنه لولا عبد الناصر، لما كانت مشاكل مصر التي تعاني منها

الآن. وهو قول حق، ولكنه حق يراد به باطل. فصحيح لولا عبد الناصر لما كانت المشاكل التي نعاني منها اليوم لاكتشفت أنها مشاكل تبحث عن خدمات أفضل وترفيه أكثر وفرصة أوسع للإستمتاع بمباهج الحياة. لأنه قبل الثورة، لم تكن هناك مشاكل بالمرة، لأن شريحة واحدة من البشر المصريين، كانت تعيش وتستمتع بشراهة وتتلعبط في العز إلى مدى بعيد.

ولكن الحقد على الرجل لن ينطفىء. ورغبتهم في الإنتقام لن تهدأ، وشهوتهم للعودة لما كانوا عليه في الماضي البعيد لن تبرد.

ويبقى أن نحتفل بذكراه. الرجل الثائر، البطل عبد الناصر حسين، وعلى قبره أذرف دمعة وأنحني.

★

ثورة يوليو

بقلم: أحمد بهاء الدين

(مفكّر وكاتب مصري)

دمها خفيف . . . بعض الكتب والكتابات التي تظهر عن ثورة ٢٣ يوليو!

نوع منها يصور للقارىء أن عبد الناصر كان شخصاً وهمياً! فكل واحد كان له دور في تنظيم الضباط الأحرار ما عدا عبد الناصر، كل حزب أو حركة لولاها لما قامت الثورة، كأن عبد الناصر يمشي متسكعاً بالمصادفة ذات ليلة فرأى ناساً يحتلون قيادة الجيش فقفز من الشباك إلى غرفة القيادة.

ونوع آخر يصور للقارىء أن وجود عبد الناصر ١٨ سنة كان وهمياً! وأنه شبح لا أساس له من الصحة! الذي طرد الملك فلان! والذي أخرج الإنجليز علان! أو أنه كان يريد الإنتحار بعد هجوم إنجلترا وفرنسا وإسرائيل! أما الذي ذهب إلى الأزهر وقال من فوق منبره والقنابل تسقط على القاهرة «سنحارب ولن نستسلم» فهو ممثل يشبهه!

وأحد أقدم وأشهر الضباط الأحرار كتب مرة أنه كان يربط عبد الناصر بالحبل، ولا يفكه إلا إذا رضخ ووقع على القرارات التي يأمره بها!

ونوع آخر من الكتب والكتابات عكس ذلك تماماً، فكل موظف أوقف عن العمل في أسوان كان بقرار من عبد الناصر، وكل حادث تصادم في أي مدينة في العالم العربي كان بتدبير من عبد الناصر، كأن هو الشيطان الذي يعرف دبيب النملة في أقصى أرجاء المعمورة ويتحكم في حركتها.

ولا يمكن التعامل مع هذه الكتابات إلا على أنها كتب فكاهية فعلاً تستحق أن تكتسح السوق كما تكتسحه أغاني أحمد عدوية.

أما القليل من الكتابات التي تعامله كرجل تاريخي، له حسناته وعيوبه، له نقاط قوته ونقاط ضعفه ككل رجال التاريخ، وتعامل الثورة كأهم حدث في مصر منذ أقام محمد على دولتها الحديثة، وتسجل أن الحسنات والأخطاء شارك فيها عشرات الآلاف من الأحياء الصامتين والمتكلمين.. فهي كتب قليلة ويساء استخدامها كما حدث بكتاب فتحي رضوان!

مثلاً تجلس مع «سعادة البيه» في نادي الجزيرة مثلاً، ويكون «سعادة البيه» قد صار سفيراً، أو رئيساً لمؤسسة، أو مهندساً شهيراً أو طبيباً كبيراً، ويهاجم ٢٣ يوليو. وأقول لنفسي: لو كان ممن أخذت منهم الثورة مليماً لكان له حق.. لو كان صاحب رأي وسجنته الثورة فمعه الحق، ولكن البيه أصابته أشياء من نوع آخر، فأبوه كان خفيراً في القرية. ولولا مجانية التعليم ما جاء إلى القاهرة ولولا التوسع الصناعي وإرسال البعثات الفنية ما عرف المناصب، ولولا فتح أبواب نادي الجزيرة، لما اقترب من سوره الخارجي، وما كانت لديه سيارة ولدى الست سيارة والواد سيارة!!

ولكنها من «الشياكة» أن تهاجم الثورة فهذا يجعلك من سلالة الأكابر أو من القادمين إلى مصر مع نابليون أو محمد علي على الأقل!

وبعض أصحاب الملايين «النصف جدد»، صنعوا ملايينهم في عهد الثورة ومن مشروعاتها الكثيرة ومنهم من كان من أعضاء الثورة والذين كان وجودهم يثقل ضمير المخلصين، وممن جعل البعض يأخذون الثورة بجريرتهم، يسرعون إلى نقد الثورة كلما لاحت الفرصة. كأن هذا يضفي على مالهم صفة «الحلال» وكأنه بدون الفرص التي أتيحت لهم، والعلاقات التي فتحتها أمامهم، كان لديهم العزبة والعمارة والسيجار الذي في فمهم!

ونوع ثالث هم الذين تولوا أكبر مناصب المسؤولية في الثورة، وزير إقتصاد أصدر عشرات القوانين، نائب عام حقق مئات القضايا، مستوزر مزمن تغيرت الوزارات ولم يتغير من شدة السمع والطاعة، ولكنه ساخط على كل ما حدث!

هل هي حالات تحتاج إلى علاج نفسي؟ أم أنهم كانو منافقين بالأمس كما أنهم منافقين اليوم وغداً؟!

أما البسطاء... الملايين ممن تغيرت آفاق حياتهم ولكنهم ظلوا بسطاء... فليس لهم صوت لأنهم لا يجلسون في الأندية ولا يكتبون في الصحف ولا يشاركون في مجالس الإدارات.. ولكنهم مصر الباقية، الذين نعيش كلنا عالة عليهم، فنانون وتجار ومقاولون وشرفاء ولصوص وطبالون وراقصون!!

السد العالي وعبد الناصر

بقلم: كامل الزهيري

(صحافي ومفكِّر مصري)

كتب لي المهندس محمود علي أبو زيد رئيس مجلس إدارة شركة السد العالي للأعمال المدنية خطاباً فيه أفكار نيرة وأخبار هامة وأشار في خطابه إلى خبرين عن جريدة (الشرق الأوسط) بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٩٨٤ نقلاً عن جريدة (كريستيان ساينس مونيتور) الأميركية أن العام الحالي قد يكون العام الذي يثبت بعد نظر الرئيس الراحل عبد الناصر . . لأن القارة الأفريقية بأكملها تواجه أسوأ جفاف وقحط في تاريخ القارة . . وقد تضررت منابع النيل في أثيوبيا ومنطقة البحيرات في أوغندا وتنزانيا ضرراً شديداً من الجفاف وقلة الأمطار.

ويقول الخبر الثاني الذي نشرته جريدة (الأهرام) في ١٩ أكتوبر ١٩٨٤ نقلاً عن الدكتور المهندس وزير الري السوداني بأن إيرادات النيل من المياه انخفضت هذا العام بدرجة لم يشهدها السودان منذ مائة عام، وذلك بسبب الجفاف في المناطق الإستوائية ومنابع النيل، وقد صرح الوزير السوداني أنه تقرر عدم زراعة القمح في مشروعات الجزيرة وحلفا والمناقل هذا الموسم، وتقرر السحب من المياه المخزونة مبكراً هذا العام لسد حاجات المشروعات الزراعية.

ويقول المهندس محمود علي أبو زيد في خطابه:

ولتسمح لي بمزيد من التوضيح لكل المشككين في أهمية السد العالي لدرجة إننا سمعنا أحد أبناء مصر - وللأسف - يعلن في مجلس الشعب أنه لا يشرفه أن يكون أحد الذين وافقوا على إنشاء السد العالي، وإلى هؤلاء أوضح الخبر الثالث، وهو أن منسوب المياه بالسد العالي سينخفض عشرين متراً تقريباً عن منسوب أقصى حجز وصلت إليه المياه بالبحيرة منذ إنشاء السد. . وربما ينخفض أكثر من ذلك. وهذا لن يرجع إلى إنخفاض الفيضان هذا العام فقط، بل يرجع أيضاً لانخفاض الفيضان لثلاثة أعوام سابقة، وهذه السنة الرابعة هي أكثر السنوات انخفاضاً، ورغم ذلك لم يشعر أحد في مصر ولولا السد العالي لحدث في مصر - وهذا العام بالذات - تلك السنوات العجاف التي وردت في سورة سيدنا يوسف عليه السلام.

ويقترح صاحب الخطاب - وهو من أهل الخبرة في السدود والنيل - أن ينشر في جريدة (الأهرام) يومياً - أو الجرائد الثلاث - بيان مختصر عن حالة الفيضان (أثناء الفيضان) ومنسوب الحجزوكمية المياه الواردة والمخزونة في بحيرة ناصر، وليس ذلك - كما يقول - بدعة فكثير من البلدان التي تعتمد على الري بالأنهار أو الأمطار تقطع إذاعاتها أحياناً لنشر أخبار الأمطار أو درجة الفيضان.

وينهي المهندس محمود علي أبو زيد خطابه باقتراح آخر، وهو أن يعود إسم بحيرة ناصر إلى جميع الخرائط والرسومات تكريماً للزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذي أرى كمصري أولاً،

وكمهندس ثانياً، وكأحد بناة السد ثالثاً أن هذا أقل تقدير يمكن تقديمه لذكراه الباقية.

لقد أثبت الزمن أن السد العالي، حمى مصر من خطر الجفاف الذي أحاط بأفريقيا خلال الأربعة سنوات الماضية، وأنه في عام ١٩٨٥ عندما وصلت حالة الفيضان خلف السد إلى درجة متوسطة، كان السد العالي أماناً لمصر.

★

جمال عبد الناصر بين جوهر الدين.. والإتجار به!

بقلم: جمال سليم
(صحافي ومفكر مصري)

لم يكن عبد الناصر متعصباً، وتلك طبيعة الزعماء الذين لم يصابوا بداء الشوفينية..

كان عبد الناصر يؤمن بأن الدين لله والوطن للجميع، وفي مجتمع تتعدد فيه الأديان ويختلف الولاء بين دين ودين يصبح الزعيم بين كل الأديان وفي وسطها وفي مكان القلب منها..

لا ينفي هذا أن عبد الناصر كان فيه شيء من التعصب، وهو تعصب صحي لأنه تعصب للإنسان ولما كان جوهر الدين هو الإنسان خيره وشره، صلاحه وتقواه، تحريره وعبوديته.. فإن كل انتصار لجوهر الدين هو إنتصار للإنسان.

لكن.. ليس كل الناس يؤمنون بالدين على هذا النحو، فالذين يستغلون الإنسان سيجدون في الدين قيداً على حريتهم في استغلال الناس واستعبادهم..، والذين يستعبدون البشر ويتسلطون عليهم سيختبئون في الجحور حتى لا تصلهم أضواء الدين فتكشف سرهم.

وفي قضية واحدة: كالدين تختلف نظرة الناس وتتعدد آراؤهم لاختلاف زاوية النظر.. فهذا يرى جوهر الدين.. وذاك لا يرى إلا قشرته الخارجية، وهذا يرى حقيقته.. وذاك يرى مظهره وشكله..

★ الإرهاب والدين:

وقد استخدم الدين لإرهاب الفكر في العصور الوسطى، وأنشئت محاكم التفتيش لمعاقبة الناس عما في صدورهم.. وظهر النبلاء والأمراء والملوك متسلحين بالحق الإلهي لفرض إرادتهم على العباد..، تحول رجال الدين إلى كهنة يبيعون صكوك الغفران للذين ينشدون أبواب الجنة..

تحت راية الدين في أوروبا نما الإرهاب والبطش، وعلى ترانيم المزامير والكتب المقدسة سار الجزارون إلى الحروب،،، وعلى بركة رجال الدين أبيدت مدن وأزهقت أرواح الآلاف..

وكان الكهنة والقساوسة يعيشون في قلاع وحصون وأديرة وكانت أملاك الأديرة تمثل ٢٥٪ من ثروة فرنسا قبل الثورة.. ولم يكن عجباً أن تشتعل الثورة الفرنسية ضد الملكية المستبدة والإقطاع ورجال الدين..

لكن في الشرق كان الأمر يختلف كان للدين دور ثوري لصالح الإنسان ولصالح الجماهير..

الثورات التي قامت في مصر قامت أكثرها من الأزهر ومن المساجد والكنائس.. وتحت قيادة رجال الدين، المقاومة العنيدة للمستعمرين نهضت تحت كلمة «الله أكبر» ومن هنا، اختلفت النظرة.. أيضاً - إلى الدين، فالدين في الشرق له دور ثوري وتقدمي لصالح الإنسان... والدين في الغرب ترسخ ضد الإنسان وضد حريته وتقدمه.

★ عبد الناصر والدين:

يقول عبد الناصرفي الفصل السابع من الميثاق الوطني:

«إن في رسالات السماء كلها في جوهرها كانت ثورات إنسانية استهدفت شرف الإنسان وسعادته، وإن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الإحتفاظ للدين بجوهر رسالته.. إن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة، وإنما ينتج التصادم مع بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم، وذلك بافتعال تفسيرات تتصادم مع حكمته الإلهية السامية لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية، ولكن الرجعية التي أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين وراحت تتلمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكي توقف تيار التقدم»..

ويستطرد عبد الناصر: «إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان في الحياة والحرية، بل أن أساس الثواب والعقاب في الدين هو فرصة متكافئة لكل إنسان، إن كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر ولا يرضي الدين بطبقية تورث عقاب الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم.. إن الله - جلت حكمته - وضع الفرصة المتكافئة أمام البشر أساساً للعمل في الدنيا وللحساب في الآخرة وينبغي لنا أن نذكر دائماً حرية الإنسان الفرد هي أكبر حوافزه على النضال.. إن العبيد لا يقدرون إلا على حمل الأحجار.. أما الأحرار فهم وحدهم القادرون على التحليق إلى آفاق النجوم».

★ الدين والسياسة:

لقد كان الدين يستخدم دائماً لتحقيق أغراض سياسية، فعندما جاء نابليون غازياً لمصر وفي رأسه حلم يؤرقه ببناء أمبراطورية فرنسية في أفريقيا تكون عاصمتها مصر ولمد نفوذه إلى الهند قطع الطريق على إنجلترا، اتجه أول ما اتجه الى المشايخ والعلماء محاولاً استرضاءهم أو شراءهم

ليحكم باسمهم أو من خلالهم ويكتسب شرعية البقاء في مصر كمستعمر. . فما الفرق بينه وبين العثمانيين؟ الفرق الوحيد هو الإسلام. . وهكذا قيل أن نابليون قد أسلم، وعدداً كبيراً من قواده أسلموا أيضاً، لكن الحيلة لم تنطل على المشايخ والعلماء. . وخرج من بين أروقة الأزهر شاب عربي إسمه سليمان الحلبي ترصد للجنرال كليبر وقتله. .

كانت هذه الجريمة الصغيرة رداً على الجريمة الكبرى التي ارتكبها الفرنسيون بغزوهم مصر. .

وهكذا خرجت من حضن الأزهر المقاومة العنيدة التي حولت وجود الجيش الغازي إلى جحيم. .

وعندما هب عرابي مقاوماً الغزو البريطاني ومدافعاً عن استقلال بلاده أصدر الخليفة العثماني فتوى بناء على طلب الإنجليز، فتوى تقول بارتداد عربي عن الدين بهدف شق التضامن والتلاحم الشعبي معه. .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى وأرادت إنجلترا أن تجعل الشعوب العربية تقف على الحياد وتنضم إلى الحلفاء ضد المانيا وتركيا. . أرسلت أقدر رجلين إلى الشرق وهما لورنس وفيلبي. . الأول قبع إلى جانب الشريف حسن حاكم مكة والثاني كان يتبع الملك عبد العزيز كظله والهدف أن يقدما لهذين الحاكمين النصيحة والمشورة التي تعود على إنجلترا بالخير. . ولكي يصلا إلى قلب هذين العاهلين أسلم كل منهما أو ادعى الإسلام وتزوج فيلبي مسلمة وسمى نفسه الحاج عبدالله فيلبي. .

وإذا كانت إنجلترا هي أولى الدول التي نجحت في استعمال الدين لخدمة أهدافها السياسية فقد سارت الدول الغربية بصفة عامة في هذا الطريق الذي فتحته بريطانيا، والمتأمل في الحركات الدينية أو التي ترتدي عباءة الدين يجدها تصب في مجرى واحد. . هو مجرى مصالح الدول الكبرى، فالماسونية مثلاً التي تدعو إلى وحدة العالم بحيث يصبح من حق الإنجليزي أن يسطو على بيت مصري، ومن حق الأمريكي أن يستولي على مزرعة سوداني. . ومن حق الصهيوني أن يستولي على أرض فلسطينية. . ، ولكن الماسونية لا تدعو المصري أن يأخذ بيت الإنجليزي ولا تدعو العربي أن يسترد أرضه من اللص الذي سرقها. .

يبقى بعد كل هذا: مصر، الدولة الكبيرة ذات التجمع الكبير الموقع والتاريخ، التي عاشت آلاف السنين دون أن تنشب فيها حرب أهلية. . لأن الوحدة أساسها التضامن والتلاحم بين أبناء مصر بديهية ثابتة، وقاعدة مستقرة. . إذن فلا بد من إضعافها وامتصاصها يعني تمزيق وحدتها وضرب تلاحمها وتضامنها ودق إسفين بين أبنائها. . لا بين المسلمين والمسيحيين فقط بل بين الملل والمذاهب أيضاً فإذا ما نجحوا في تقويض هذا الصرح المصري دانت لهم الأرض كلها. .

المطلوب إذن هو ضرب هذا النموذج لإثبات النظرية الإسرائيلية التي تقوم على الدولة ذات الدين الواحد. .

عيونهم على مصر

كيف يمكن تخريبها من الداخل؟

كان عبد الناصر يعي هذه الحقيقة جيداً فلم يخضع لمزايدات رجال الدين والمتطرفين منهم. حتى عندما لجأوا إلى السلاح وشهروه في وجهه وهددوه.. كان يعلم أن الهدف هو تقسيم مصر وشقها وإضعافها وضرب وحدتها وتضامنها..

كان عبد الناصر يقول:

«الدين هو المساواة، الدين هو العدالة، الدين هو أن نعطي أموال المسلمين للمسلمين.. الدين هو العدالة الإجتماعية، اللي عاوز يطبق الإسلام يوزع أموال المسلمين على المسلمين ويقول أهو ده الدين، وأقول له أنت دلوقتي إشتراكي لأنك بتقيم عدالة إجتماعية وتقيم المساواة بين الناس.. اللي عايز يطبق الدين ما يعملش الشعب أسياد وعبيد ده الكفر. ده كفر الرجعية اللي بتحاول إنها تستغل الدين..»

إن هناك شركات تدعي العمل بالأسلوب الإسلامي توزع على مساهميها أرباحاً تصل إلى ٢٥٪ وهذا يعني أنها تربح أكثر من ٥٠٪.. فمن الذي يدفع هذه الأرباح العالية..؟

المستهلك هو الذي يدفع.. فهل هذا من الدين أو من الإسلام؟

وفي كل قضية لا بد دائماً أن نسأل: من المستفيد من كل هذا؟

وعلى ضوء إجابة السؤال يتحدد الموقف..

★

الدولة النموذج التي أرادها عبد الناصر

بقلم: د. علي الدين هلال

(باحث ومؤرِّخ مصري)

في عام ١٩٥٢ أطلت على الحياة العربية ثورة يوليو وبعدها لم يعد الوطن العربي ولم يعد النظام العالمي كما كانا من قبل.

يمكن القول أن محور حركة ثورة يوليو كان هو تعظيم الإستقلال الوطني لمصر باعتبارها قاعدة العمل القومي وكونها «الدولة النموذج» أو «الدولة القائد» في عملية التوحيد العربية. كما يمكن القول أن تحليل خطابات الرئيس جمال عبد الناصر تبين أولوية وسبق قيمة الإستقلال الوطني وتحرر الإرادة السياسية مقارنة بالقيم السياسية الأخرى. بل إن هذه القيم والممارسات السياسية كانت في تقديره طريقاً لتحقيق وتكريس الإستقلال الوطني. عبر عن ذلك بقوله:

«كان السعي للحرية في جميع أشكالها السياسية والإقتصادية والإجتماعية هو في حقيقة الأمر استخلاصاً للإرادة الحرة الأبية المستقلة التي تصنع بنفسها مستقبلها، وتشكل بأصابعها ملامح الغد العزيز الكريم الذي نتمناه. التحرر من الإستعمار أيها الأخوة هو تحرير الإرادة المستقلة والتحرر من الإقطاع هو تحرير للإرادة المستقلة، والتحرر من سيطرة رأس المال على الحكم هو تحرير للإرادة المستقلة، وإذا ما قامت الحرية، وإذا ما قامت الإرادة المستقلة نتيجة لها كان الطريق واضحاً مستقيماً لكي يقوم كل شعب بتجربته العظيمة في تحقيق آماله وأمانيه».

وقد اتسم مفهوم الإستقلال الوطني في تفكير عبد الناصر وممارساته بالشمول وتبدو هذه السمة في ثلاثة جوانب:

أ ـ تكامل الجوانب الداخلية والخارجية

فالإستقلال الوطني هو هدف مركب يتطلب تحقيقه سياسات مختلفة على النطاق الداخلي والخارجي. فمن الناحية الداخلية أكد عبد الناصر على استقلالية عملية صنع القرار والحيلولة دون تسرب النفوذ الأجنبي إلى جهاز الدولة أو إلى القوى المؤثرة بشكل مباشر على صنع القرار. وكان أحد أسباب رفضه للتعدد الحزبي الخشية من أن تصبح بعض الأحزاب قناة لمثل هذا النفوذ. كما أكد على استقلالية البناء الإقتصادي، وكان التركيز على التصنيع وكان التخطيط القومي الشامل ومحاولة تنويع هياكل الإقتصاد الوطني. وأكد على استقلالية الثقافة الوطنية والحاجة إلى «ثورة ثقافية معادية للإستعمار».

ومن الناحية الخارجية. برزت سياسة مكافحة الأحلاف والقواعد العسكرية، والتأكيد على أن أمن المنطقة ينبع من داخلها وبواسطة أبنائها وليس من خلال التحالف مع قوى خارجية، ولذلك أكد على ميثاق الضمان الجماعي العربي المشترك في مواجهة حلف بغداد، كما أكد على سياسة عدم الإنحياز في هذا الفهم ليس طريقاً وسطاً بين الدولتين الأعظم بما يترتب على ذلك من محاولة العثور على «نقطة وسط» في كل قضية وكل مشكلة ولكنه تعبير عن استقلالية الإرادة الوطنية ـ والقومية ـ في المجال العالمي.

ب ـ تكامل مظاهر النفوذ الأجنبي وتعدد أدوات الإستعمار

إن هذا التكامل وتعدد الأدوات الإستعمارية من سياسية واقتصادية وفكرية واجتماعية يحتم علينا النظر إلى الإستعمار كظاهرة مترابطة ومن ثم ضرورة تضامن حركات التحرر الوطني من مناطق العالم المختلقة لمواجهته. فيقول عبد الناصر:

«وتحت عنوان الإستعمار فإننا نضع سياسات القمع المسلح، كما نرى في المستعمرات البرتغالية وفي الجنوب العربي المحتل، نضع سياسات الأحلاف والقواعد العسكرية كما نرى في

معظم قارات العالم. نضع سياسة الإستيلاء على أرض الشعوب وطردها بالقوة وبتأييد الإستعمار كما نرى في فلسطين، نضع سياسة التمييز والتفرقة العنصرية كما نرى في جنوب أفريقيا».

ج ـ التكامل : أمن مصر والأمن العربي

فوحدة العرب هي طريق تحقيق الإستقلال وطرد النفوذ الأجنبي ويذكر عبد الناصر أنه عند دراسته للمشكلات الإستراتيجية للمنطقة في كلية أركان الحرب: «كانت هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني طوال فترة المناقشة التي كانت تدور حول وسائل الدفاع عن مصر. ولأول وهلة اتضح أن مصر مثلها في ذلك مثل كل جزء من أجزاء الوطن العربي لا يمكن أن تضمن سلامتها إلا مجتمعة مع كل شقيقاتها في العروبة في وحدة متماسكة قوية». وقبل ذلك بعامين أشار في كتابه «فلسفة الثورة» إلى اقتناعه سنة ١٩٤٨ بأن قتاله في فلسطين «ليس قتالاً في أرض غريبة وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس» وإن «الوحدة العربية» هي من أقوى ضمانات الإستقلال الوطني لكل دولة.

وإذا أردنا أن نؤصل لهذه الفكرة تاريخياً، يمكن القول أنه لا يمكن أن نفهم التطور السياسي في مصر الحديثة دون أن نأخذ في الإعتبار العلاقة بين مصر والشرق العربي، من ناحية، ودور العوامل الخارجية في هذا الصدد، من ناحية أخرى، والأمثلة عديدة منذ أن قدم نابليون على رأس الحملة الفرنسية التي أبرزت للقوى الأوروبية، وبالذات إنجلترا، الأهمية الإستراتيجية لمصر أو كما عبر أحد الكتاب بأن الحملة «وضعت مصر على الخريطة»

ويعلمنا التاريخ أن مصر غزيت في الغالب الأعم من الشمال الشرقي وأن الدفاع عنها يبدأ في الشام وكم من مرات خرجت الجيوش المصرية في عهد الفراعنة أو في العصر الحديث خارج حدودها لضمان أن لا يسيطر على الشام قوة معادية لمصر.

بل أن إنجلترا تعلمت هذا الدرس وكان الهجوم العثماني المفاجىء على قناة السويس في فبراير ١٩١٥ دافعاً لها على التعجيل بفرض نفوذها على فلسطين كإجراء وقائي من أي هجوم معاد على مصر وأدرك الإنجليز أن الصحراء الشرقية ليست حصناً طبيعياً لحدود مصر وأن فلسطين أساسية لحماية ظهر قناة السويس.

وأحد دروس العسكرية المصرية أن من يسيطر على سيناء يسيطر على قناة السويس، ومن يسيطر على قناة السويس يهدد العمق المصري كله. «سيناء تاريخياً لم تكن فاصلاً جغرافياً أو حائلاً يحمي مصر من الغزاة» وقليلة هي الجيوش التي حاولت عبور هذه الصحراء وفشلت، على العكس كانت ممراً عبرته الجيوش الغازية إلى مصر، أو خرجت منه الحملات المصرية التي واجهت العدو في الشام.

فالتاريخ يشير إلى أن كل قوة معادية سيطرت على فلسطين ومنطقة الشام استخدمت موقعها هذا كنقطة وثوب على مصر.

وكذلك فإن مصر خرجت للدفاع عن نفسها وخاضت بعضاً من أعظم معاركها العسكرية في نفس المنطقة (قادش، مجدو، حطين، عين جالوت، حمص، ونصيبين، مرج دابق).

وهكذا فمن الناحية الجيوبوليتيكية فإن منطقة الشام وبالذات فلسطين تمثل منطقة الدفاع عن حدود مصر الشرقية.

وقد أدى موقع مصر إلى أن تصبح محط أنظار القوى الكبرى الساعية إلى التغلغل في المنطقة والسيطرة عليها، ومن ناحية أخرى فقد كان هذا الموقع هو الذي سمح لمصر بأن تلعب دوراً فعالاً في شؤون هذه المنطقة، فموقع مصر ذو طابع مزدوج: هو مصدر ضعف لها إذا ما استكانت ووقعت فريسة للأطماع الخارجية، وهو مصدر قوة إذا ما اتبعت سياسة نشطة ولعبت دوراً إيجابياً في شئون المنطقة المحيطة بها.

موقع مصر إذن لا يرتب لها بالضرورة ميزة أو عيباً وإنما تتوقف آثاره على كيفية الإستفادة منه ونوع السياسات التي تتبعها مصر في مراحل تاريخها المختلفة، ففي بعض المراحل اتبعت مصر سياسة دفاعية أو انكفأت على ذاتها وقادها ذلك إلى دورة من الضعف، وفي مراحل أخرى انتهجت سياسة إيجابية نشطة فتحركت بها عبر الإقليم كله، حركته وقويت به. مصر تستمد مكانتها الدولية وهيبتها من خلال الدور الذي تقوم به في المنطقة العربية باعتبارها كبرى هذه الدول وأكثرها استقراراً، باعتبارها نموذجاً للتكامل الوطني والوحدة الإدارية والسياسية التي لم تتفتت أو تتجزأ عبر مراحل تاريخية طويلة وباعتبارها مستودعاً هائلاً للخبرات الفنية والعملية في شتى مجالات المعرفة.

لذلك فقد سعت الدول الكبرى ذات النفوذ والسيطرة على المنطقة إلى «عزل» مصر وإلى «حيادها»: بهذا تحقق هدفين إضعاف مصر والإستفراد بمجموعة الدول والأقاليم العربية الأخرى ونهش أوصالها.

ذلك أن عزلة مصر أو حيادها هو إضعاف لمصر لأنه يعزلها عن مجال فعاليتها الطبيعي والذي تحقق من خلاله قوتها وازدهارها وإضعاف للمنطقة لغياب الحماية والثقل الذين توفرهما مصر لها.

وقد يكون من المفيد هنا أن نعود إلى التاريخ، فمع مطلع القرن التاسع عشر شهدت مصر تجربة صناعية وعسكرية هائلة في عهد محمد علي باشا الكبير وصفها كارل ماركس بأنها «الحيوي الوحيد» في الأمبراطورية العثمانية وانتهت بتدخل عسكري أجنبي لوأدها سياسياً واقتصادياً.

وأريد أن أقتبس من تقريرين: الأول تقرير رفع إلى وزارة الخارجية الفرنسية في نهاية سنة ١٨٢٩ يفسر أسباب تأييد فرنسا لمحمد علي في ذلك الوقت.

«هناك أولاً موقع مصر الذي يفرض بأن يمتد تأثيرها إلى أكثر المقاطعات بعداً عن مركز الأمبراطورية أو الأكثر عرضة إلى الإنفصال فهناك سوريا من الشرق والدويلات البربرية من الغرب... علينا أن نعترف بأن هذا الموقع يساعد كثيراً على إنشاء قوة حقيقية. إن صلات اللغة والعادات والأصل المشترك تشكل روابط دائمة قد تتيح دمج سكان سوريا وبلاد البربر بسكان مصر... وبهذا الشكل فقد تحتل مصر مكاناً مميزاً بين الدول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط دون أن يكون هناك على كل حال ما يجعلنا نخاف من أن تصبح قوية أكثر من اللزوم».

الثاني في يونية ١٨٣٣ عندما أرسل ميترنيخ مبعوثاً إلى مصر وعقب زيارته رسم صورة الموقف لسفير النمسا في القسطنطينية في تقرير تضمن العبارات التالية: «أني أرى إلى جانب إمكانيات الباب العالي المعدومة وهيبته المتداعية يوماً عن يوم جيشاً عربياً مصرياً مدرباً أحسن تدريب مزهواً بالنصر، وأسطولاً جباراً، وموارد كافية لزيادة حجم هذا الأسطول وذلك الجيش إلى ثلاثة أمثالها، وإدارة في غنى شبه تام عن الأتراك، وانبعاث الروح القومية عند العرب وأخيراً تقديراً متصاعداً يتمتع به هذا الأخير (الإشارة إلى محمد علي) على امتداد البلاد الناطقة بالعربية».

لذلك ففي العصر الحديث قامت سياسات الدول الكبرى ذات السيطرة أو الأطماع في المنطقة لتحقيق هدفين:

أولهما: الحيلولة دون قيام دولة كبرى في المنطقة والإبقاء عليها في إطار حدودها السياسية الحقيقية.

وهكذا فإن مفهوم استقلالية الإرادة الوطنية تمثل داخلياً في سيطرة الدولة على الموارد الإقتصادية وتوظيفها لأغراض التنمية المستقلة ولمصلحة القطاعات العريضة من المواطنين، وتمثل عربياً في الربط المحكم بين الأمن المصري والأمن العربي وبين هدف تحقيق الأمن والوحدة العربية، وتمثل خارجياً في لعب دور نشط ضد الهيمنة الدولية والعلاقات غير المتكافئة بين الدول الكبيرة وشعوب العالم الثالث.

هكذا، فإن «دولة النموذج» في النظام العربي هي دولة تعمل من أجل تعظيم الإستقلال وتحرير الإرادة الوطنية وهي بحكم هذا التعريف لا بد وأن يرتبط بتصور قومي عربي وأن تتسم حركتها الدولية أساساً بالإستقلال وداخلياً بحرية إتخاذ القرار. ولا شك أن هذا المعني سوف يبقي من ثورة يوليو لآماد بعيدة فقضية الإستقلال الوطني وتحرير الإرادة القومية ما زالت هي الحلقة المركزية في النضال العربي.

وإذا كانت تجربة يوليو تفيدنا إيجابياً فهي تعلمنا أيضاً من مآخذها وسلبياتها. فهناك من يرى

أن الثورة أساءت تقدير قوتها وقوة خصومها وتخطت حدود قوتها وأنها في عام ١٩٦٧ لم تكن في موقف يسمح لها بالصدام مع العدو وأنها وزعت مصادر قوتها السياسية في أكثر من جبهة واتجه الأمر الذي سمح للأعداء بأن يلحقوا بها هزيمة مريرة. وهناك من يرى أنها أغفلت أهمية الديمقراطية والمشاركة الشعبية لضمان الإستقلال الوطني وأن خفض الأبنية السياسية الشعبية التي أقامتها وعدم تنظيمها لجماهيرها مكن آخرين من تغيير توجهاتها في مرحلة تالية، وهناك من ينتقد عدم تركيزها على مفهوم الإستقلال الفكري والحضاري بشكل كاف وأنها قبلت المفاهيم الغربية في التنمية دونما نقد نظري لهذه المفاهيم.

وستظل ثورة يوليو موضوعاً للجدل وللخلاف فهي ما زالت تمثل تياراً سياسياً وفكرياً، ذلك أنها لم تكن مجرد طريق للنمو غير الرأسمالي، ولا مجرد طريق وسط بين المعسكرين وبين الإيديولوجيين بل كانت مشروعاً لنهضة قومية مستقلة وبداية لمشروع قومي ومن هنا إصرارها على الإستقلال الوطني ورفض التبعية ومن هنا أيضاً المحاولات التي لن تنقطع لإجهاضها ووقف تطورها ولكن البذور التي غرستها في الأرض العربية ما زالت تنمو وتفعل فعلها.

★

قضايا العروبة وعبد الناصر

بقلم: د. محمد أنيس

(مؤرخ ومفكر مصري)

في ملتي واعتقادي أنه سوف تمر أجيال ليست بالقليلة على مصر والعالم العربي حتى يستطيع مثقفوا العرب أن يكتبوا بموضوعية خالية تقريباً من العاطفة ـ حول تقييم دور عبد الناصر إزاء قضايا العروبة. وقد يكون مرد ذلك إلى إننا لا زلنا نعيش في العالم العربي حتى اليوم مزيداً من السقوط في كافة الإتجاهات فرض علينا أن تكون أحكامنا مشحونة بالعواطف مع تجربة عبد الناصر.

فإذا كان العرب يمرون بأزمة البقاء، فالكثير منا يحمل عبد الناصر المسئولية، والكثير منا أيضاً يحاول أن يرفع المسئولية عن الرجل، حتى في أكثر القضايا التي لعب فيها عبد الناصر دوره الإيجابي وأقصد القضايا العربية..

رغم هذا التحفظ المبدئي. فقد يكون من المفيد أن نتتبع في ذكر الرجل نقطة ترتبط بقضية العروبة، وهي نشأة وتبلور مسئولية مصر إزاء العالم العربي كما رآها عبد الناصر. ومن الإنصاف أن نوافق مع نظرية الدكتور جمال حمدان التي تدور حول عبقرية المكان في كتابة «شخصية مصر»، فهو يرى بنظرة العالم أن مصر، طوال تاريخها منذ القدم، كانت مفتاح المنطقة التي اصطلح تسميتها مؤخراً «الشرق الأوسط».

ومثل هذه الحقيقة لا تحتاج إلى كثير من الدلائل التاريخية. فإذا قلت أن سقوط مصر أو

نهضتها يعكس نفسه على الفور على المنطقة، فلن تكون بعيداً عن الصحة، وإذا سمعت من مؤرخي العصور الوسطى الصليبية في أعقاب تجربة طويلة للإستيلاء على أماكنهم المقدسة في فلسطين توصلوا إلى نظرية قوامها أنه طالما أن مصر نشطة فلا أمل في الإستيلاء على جزء من بلاد الشام. . وأنه لا بد من ضرب مصر، وإن نتاج هذه النظرية كانت حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر نفسها. . فلا تعجب.

وإن تسمع من مؤرخي التاريخ الحديث، إن الإستعمار الأوروبي رأى ضرورة تصفية محمد علي كشرط أساسي لوضع يده على المنطقة. . أو تسمع منهم ثورة العشرين في العراق قامت متأثرة إلى حد بعيد بثورة ١٩١٩ في مصر. . فثق أنه ليس هناك مبالغة في ذلك. . إذا لم يعد مجال للشك حول حقيقة ثابتة. . إن مصر مفتاح المنطقة ولا نعرف دليلاً يكذب مثل هذا الإدعاء. .

ولكن يبقى سؤال هام: ما هي طبيعة العلاقة التي تربط مصر بالمنطقة؟

ومن المحتمل أن تكون الإجابة على هذا السؤال إجابة أيضاً لموضوعنا الرئيسي وهو نشأة اهتمام عبد الناصر بالعروبة أو القومية العربية.

وفي الكليات العسكرية وكليات أركان الحرب المصرية. اهتم الأساتذة والطلبة كثيراً بعد الحرب العالمية الثانية بتغيير «الإستراتيجية» وخرج الكثير من الأبحاث الأمريكية تؤكد على أن لمنطقة الشرق الأوسط أهمية إستراتيجية خاصة. .

وفي رأيي أن هذه المصلحة الإستراتيجية هي التي ربطت مصر بالمنطقة. وربما تفسر الحقيقة بداية اهتمام عبد الناصر بقضايا شعوب هذه المنطقة. . وهنا يصبح ما ذكره عبد الناصر لصحفي البريطاني ديزمونت ستيوارت، وفي حديث معه في إبريل ١٩٥٥، حين قال:

تبلورت في ذهني فكرة القومية العربية كمذهب سياسي عندما كنا ندرس في كلية أركان الحرب المشكلات الإستراتيجية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط.

أمر له دلالته البالغة في هذا الصدد (أحمد حمروش ـ عبد الناصر والعرب ص ٢٢و٢٣)

ولم يكن عبد الناصر بطبيعة الحال أول من أدرك الأهمية القصوى لوحدة المنطقة في تاريخنا الحديث على الأقل. فالمؤرخ الإنجليزي دوديل في كتابه «محمد علي . . . مؤسس مصر الحديثة» يتحدث بإسهاب عن أهداف محمد علي ـ وإبنه إبراهيم بصفة خاصة ـ لتحقيق وحدة المنطقة وأهمية هذا التحقيق إبان فتوحاتهما ببلاد الشام في الثلاثينات في القرن التاسع عشر.

ويذهب الأمر إلى أبعدمن ذلك حينما تقرأ تصريحات إبراهيم باشا بالذات إلى القناصل الأجانب تدور حول إيمانه بعروبته وانتمائه شخصياً إلى العرب وإدراكه لأهمية قيام وحدة عربية

في المنطقة. . وفي تقديري أنه لا محمدعلي، ولا إبراهيم، كان يعرف معنى القومية، والمسألة لا تعدو أنهما أدركا دون شك الأهمية الإستراتيجية لقيام وحدة سياسية كبرى بقيادة مصر في المنطقة. .

بعد سقوط محمد علي ومشروعاته التوسيعية في المنطقة العربية يتجه إهتمامه وإهتمام حلفائه (إسماعيل باشا بالذات) إلى السودان وأفريقيا. ومرة أخرى لم يكن الدافع في هذا الإتجاه قومياً بالمعنى الصحيح بل استراتيجياً وتظل قضية تبعية السودان لمصر محوراً رئيسياً من محاور الحركة الوطنية المصرية.

ومنذ ظهور الحركة الوطنية المصرية الحديثة بشكل كامل، وهي تدور حول ثلاثة محاور. .

الجلاء البريطاني عن مصر - ممارسة الحياة الديمقراطية (الدستور) أي أن يحكم الشعب المصري نفسه بنفسه، وهي نقطة ليست بعيدة عن الجلاء أو الإستقلال كما تصور الزميل الأستاذ طارق البشري في مقاله في مجلة الهلال (الهلال أغسطس ١٩٨٤) ثم يأتي المحور الأخير وهو وحدة السودان مع مصر. .

ومن المعروف بين السياسيين، أن موضوع السودان أو علاقة مصر بالسودان كانت دائماً الصخرة التي تتحطم عليها المفاوضات المصرية البريطانية - وفي اعتقادي أن مرد ذلك إلى ضعف المنطق المصري في هذا الصدد - لماذا لا يخير الشعب السوداني حول مصيره؟ وأنتم المصريون الذين جئتم تطلبون الإستقلال باعتباره حقاً طبيعياً لكافة الشعوب. . هل نسيتم أن من العدالة أن يكون هذا الحق الطبيعي أيضاً للشعب السوداني رغم كافة الروابط الودية التي تربطكم بالسودان. .

وفي الفترة بين ١٩١٩ - ١٩٥٢ كانت المشاعر الوطنية المصرية تتجه نحو السودان ولا بأس في ذلك أبداً فهو مطلوب لأكثر من إعتبار. . ولكن سؤالاً يدور حول هذا الموضوع: ألا يمكن أن تبقي، هذه العواطف الجامحة نحو السودان مستقلاً عن مصر كدولة؟

أقول ذلك لاعتقادي أن عبد الناصر قد وصل إلى الحقيقة فاندفع بجرأة في عام ١٩٥٣ لحل القضية، وقع بالفعل اتفاقية السودان، وحين فرغ من قضية الجلاء في العام التالي ١٩٥٤ بدأ يتجه تفكيره نحو عدة إتجاهات وفي مقدمتها الإتجاه العربي الشامل.

هنا يقع السؤال الذي طرحناه مبكراً حول تحول المشكلات والمصالح الإستراتيجية إلى إيمان بالقوة العربية.

وفي تقديري للإجابة على هذا السؤال، أن التجربة الحية على الساحة السياسية في المنطقة، لا القراءة النظرية التي شاعت في دهاليز بعض الأحزاب العربية القومية، هي التي وصلت عبد الناصر إلى هذا التحول من الإستراتيجية إلى الإيمان بالقومية.

وعندما نحاول أن نتبع أمثلة لهذه التجربة الحية فلا بد أن نتوقف عند تأثير الحرب الفلسطينية العربية عام ١٩٤٨ على عبد الناصر.. من هذه التجربة الدامية سواء بالنسبة للفلسطينيين أو بالنسبة لزملائه في القوات المسلحة المصرية تأثير عنيف دفعه دفعاً مع تيار القومية العربية..

حقيقة أن القومية العربية لم تذكر في بيان الثورة الأول الذي أذيع صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من إذاعة القاهرة، وصحيح أيضاً أنها لم تذكر في النقاط الست التي أذيعت بعد ذلك كمنهاج مختصر وعاجل لمهام الثورة، إلا إن ذلك لا يعني في الواقع أن قضية الأمة العربية ـ استقلالها ووحدتها ـ كانت خافية على عبد الناصر.

ففي الوقت الذي كان يوقع فيه معاهدة الجلاء البريطانية عن مصر كانت بدايات معركة مع نوري السعيد وحلف بغداد قد تحركت.. وقد يقال مرة أخرى في هذا المجال أن موقف عبد الناصر عن الأحلاف الإستعمارية في المنطقة ليس جديداً على القوى الوطنية في مصر فالوفد قد سبق له، وهو في الحكم في السنوات الأولى في الخمسينات، إن رفض مشروع حلف شرق البحر المتوسط الذي طرحته الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وتركيا على مصر لتشترك فيه ضد ما سموه بالخطر الشيوعي الزاحف.

مع ذلك يبقى فرق واضح بين تصدي الوفد للحلف الإستعماري وبين تصدي عبد الناصر لنفس الحلف (وإن اختلف إسم الحلف).

إن تصدي الوفد قصد به حماية مصر وحماها من الأخطار الإستعمارية. وتصدى عبد الناصر قصد به حماية الأمة العربية..

وبمعنى آخر إننا نجد عبد الناصر بعد قيام الثورة بسنتين يدافع بشراسة المقاتل عن الأمة العربية ضد الأحلاف الإستعمارية، وإذا كان ذلك يعني شيئاً فإنه يعني أولاً وقبل كل شيء ما سبق أن ذكرناه من الإعتبارات الإستراتيجية قد تحولت إلى عقيدة وإيمان بالأمة العربية وهمومها ومشاكلها.

ومنذ عام ١٩٥٥ حتى توفي عبد الناصر في ١٩٧٠ وإيمان الرجل لم يتزعزع قيد أنملة نحو القومية العربية.. والكل يذكر أن عبد الناصر قد توفي آخر يوم للمؤتمر العربي الذي عقد في القاهرة إثر أحداث سبتمبر في الأردن..

وإذا جاز لنا أن ننقد موقف عبد الناصر إزاء القومية العربية فإن هذا النقد لا يتناول مفهومه للقومية العربية. ولكن يتناول الأساليب التي حاول عبد الناصر أن يستخدمها في تحقيق آمال الأمة العربية..

ولأن خروج الجيش في يوليو ١٩٥٢ لم يكن جماهيرياً أي لم يكن من صنع الجماهير ـ رغم ترحيبها له ـ لدواعي أمن الحركة، فقد ظل عبد الناصر بعد ذلك يعتمد إعتماداً كاملاً على أجهزته

الأمنية كالمخابرات والمباحث وما إليها، حتى في تحقيق الآمال العربية التي أشرنا إليها، مستبعداً الدور البناء للجماهير العربية ومكتفياً بفرحتها بإنجازاته . .

إن الجماهير العربية، وفي مقدمتها الجماهير المصرية ـ للحقيقة لم تتح لها الفرصة للمشاركة في صنع أخطر قرارات عبد الناصر الثورية وفي مقدمتها قضية الوحدة العربية . . كما أبعدت قوى سياسية وطنية ليس مفهوماً حتى الآن سبب واحد لإبعادها عن المشاركة، مع أن الحركة القومية بطبيعتها الأصلية تتطلب مشاركة الجماهير والإعتماد عليها اعتماداً كاملاً لضمان نجاح التجربة واستمرارها . .

وربما يكون من المفيد ـ بل من الواجب ـ للذين آمنوا بقيادة عبد الناصر لمصر والأمة العربية وبدوره الثوري في حركات التحرير الوطني أن يعترفوا بأن عبد الناصر لم يحسن توظيف قدرة الجماهير التي لم تدع لحظة إلا وأفرغت حبها له ولمواقفه الوطنية الثورية . .

ومن المحتمل أن يكون الخطأ الآخر في موقف عبد الناصر إزاء القومية العربية يكمن في تلك اللهفة غير المبررة للتعجل بالوحدة . .

إن أحداً لا ينكر أن هناك بين الشعوب العربية إختلافات في العادات والتقاليد واللهجات وأنماط الحياة! كما لا ينكر أحد أن ظروف التطور السياسي والإقتصادي تختلف من بلد عربي إلى آخر وإن الإستعمار قد عمد إلى تعميق هذه الإختلافات.

وكان من الأصح إزاء هذه العوامل أن تجيء الوحدة العربية في تمهل أو تدريج وليس في وحدة إندماجية أما إذابة هذه الإختلافات مهما كان مصدرها يحتاج إلى بعض الزمن . . ولست أدري كيف فاتت هذه الحقيقة على رجل في ثورة وفطنة عبد الناصر . . . !

ثمة قضية أخرى تتعلق بموقف عبد الناصر إزاء القومية العربية وهي تعدد الوسائل التي لجأ إليها عبد الناصر نظرياً وعملياً لتحقيق آمال الأمة العربية . .

وفيما يبدو أن عبد الناصر أحس أن عليه أن يشعر المصريين أنهم ـ فعلاً لا قولاً أنهم جزء من الأمة العربية وأن مصير الشعب المصري لن يختلف كثيراً أو قليلاً عن مصائر الشعوب العربية سلبياً أو إيجابياً.

وأعتقد أن عبد الناصر قد نجح في إقناع أكبر القطاعات الجماهيرية في مصر بهذه الحقيقة، هو نفسه وصل إلى هذه القناعة تماماً بعد معركته مع حلف بغداد وتعمقت هذه العقيدة لديه إلى أبعد الحدود بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، ومن الأدلة على ذلك مثلاً أن المادة الأولى في دستور ١٩٥٦ تنص على أن مصر دولة عربية ذات سيادة والشعب المصري جزء من الأمة العربية.

زعيم حقق أعظم الانتصارات ولحقت به أسوأ النكبات

بقلم : أنتوني ناتنج (*)

(صحافي وسياسي بريطاني)

بكل المقاييس ، كان جمال عبد الناصر أكثر زعماء عصر العرب نفوذاً وتأثيراً . فقد استطاع أن يجسد أكثر من أي زعيم آخر تطلعات الشعوب العربية نحو الكرامة والمساواة، وحبهم للبلاغة والسجع، وكراهيتهم لكل محاولات السيطرة الأجنبية، ورغبتهم الملتهبة من أجل الوحدة. وفي زمانه كان عبد الناصر هو البطل الأبرز للوحدة العربية من المحيط إلى الخليج . ولم يكن يفوقه نفوذاً بين ملايين العالم الثالث ، إلا نهرو الهند. ومنذ أن تمرد محمد علي على ولاته العثمانيين في بدايات القرن التاسع عشر، لم تتمتع مصر بمثل ذلك النفوذ الذي تمتعت به تحت قيادة عبد الناصر، كما لم تنجح في الوقوف أمام القوى الاستعمارية بمثل ما تحقق لها في عهده.

فأي نوع من الرجال كان عبد الناصر . ابن عامل البريد الأسيوطي والذي قاد بلاده وهو في الرابعة والثلاثين من العمر حتى وفاته المفاجئة بعد ذلك بثمانية عشر عاماً في عام ١٩٧٠..والرجل الذي كان بعض الزعماء الغربيين يشبهونه بأنه مزيج من هتلر وموسوليني . بينما كان في نظر مواطنيه والعديد من القوميين العرب خارج مصر، منقذاً سيعيد لهم استقلالهم وعزة نفوسهم؟ جسدياً ، كان عبد الناصر يبدو وكأنه قد تأهل وتدرب للقيام بالدور الذي اختاره، وقد لاحظت هذا الأمر خلال لقائي الأول معه عندما ذهبت إلى القاهرة في عام ٩٥٤ للتفاوض حول اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن منطقة السويس ، فأكتافه العريضة مثل أكتاف عمال الشحن في الموانىء ،وفكه يشبه فك الملاكم، وكفه القوية مثل أكف الحدادين ، هذه المظاهر كانت كلها تضيف الإحساس الذي يراودك أمامه بقوة الرجل، وكان كلما خاطب شعبه تحس بحضوره الجسدي البارز الذي يضاف إلى إلمامه الواسع باللغة الدارجة ليعطيه هيبة وقوةً وحضوراً لا يضاهى . كان عبد الناصر يحبذ دائماً تفسير وتبرير سياسته بقوله أنه يستخدم رد الفعل أكثر مما يستخدم الفعل ، وأنه يتصدى أكثر مما يفعل . وفي هذا الصدد فإنه أخبرني بأن قراره بتكوين حركة الضباط الأحرار في عام ١٩٤٢ كان رداً على قيام السفير البريطاني بإهانة الملك فاروق

(*)كان وزيراً استقال احتجاجاً على عدوان السويس . له عدة مؤلفات سياسية أهمها : كتاب ناصر.

عندما حاصرت القوات البريطانية قصر عابدين وأجبرت الملك على قبول الإختيار البريطاني لرئيس الوزراء.

وبعد ذلك بسنوات، وعندما كشفت فضيحة حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ مدى فساد النظام، واتضح أن فاروق كان يعمد إلى نسف المفاوضات بشأن قناة السويس لأنه كان يريد بقاء القوات البريطانية لحماية عرشه، تحرك عبد الناصر - في إطار سياسة رد الفعل - وقرر أن يتخلص الضباط الأحرار من الملك كمقدمة لإنهاء الإحتلال البريطاني.

كذلك فإن اعتماد مبدأ «رد الفعل» حقق لعبد الناصر أكبر إنتصاراته وأسوأ نكباته. الأمر الأول تمثل في قراره بتأميم قناة السويس بعدما سحبت أمريكا دعمها لمشروع السد العالي في أسوان، والذي جعله يصبح بطلاً في نظر جماهير الوطن العربي وشعوب العالم الثالث، على الرغم من أن القرار أدى إلى ردة فعل بريطانية وفرنسية أعنف مما كان يتوقعه عبد الناصر.

أما الأمر الثاني فقد جاء نتيجة لرد فعله الجريء على التهديدات الإسرائيلية لسوريا في عام ١٩٦٧، وهو رد الفعل الذي قاد إلى أسوأ هزيمة يتعرض لها جيش في العصر الحديث. ولكن عندما عرض عبد الناصر استقالته عقب تلك الهزيمة، خرجت جماهير شعبه عن آخرها لتطالبه بالإستمرار في الرئاسة، وكان ذلك لأنهم شعروا بعدم وجود أي زعيم بديل يتمسكون به وقت الخطر والحاجة. ولكن كان هناك سبب آخر في استمرار تمسكهم به والتهليل له، وهو أنه على الرغم من مرارة هزيمة «حرب الأيام الستة»، إلا أن عبد الناصر أعطى إحساساً بالعزة والكرامة والإعتزاز الوطني لشعب لم يعرف طوال قرون عدة سوى القهر والقمع، كما أنه ساعد في تحويل شعبه من مجتمع فلاحي يعاني من التخلف ويحكمه طاغية بالتعاون مع الأجنبي، إلى مجتمع من الجماهير المستقلة التي تملك رصيداً في أرضها وترابها.

ففي مصر التي يزداد عدد سكانها بمعدل مليون نسمة كل سنة، ربما لا يكون من الممكن توفير الأرض لكل الفلاحين. ولكن السد العالي. وقوانين استصلاح الأراضي، زادت من مساحة الأرض الصالحة للزراعة بأكثر من مليون فدان، وبموجب قوانين إصلاح الأراضي الصادرة في عامي ١٩٥٢ و ١٩٦١، أصبحت نسبة ٧٥ في المائة من الأراضي الزراعية في مصر مملوكة للفلاحين الذين كانوا قبل ذلك يعملون لصالح أسياد أجانب وأغراب.

وعلى الرغم من أن برامج التصنيع لم تحقق كل ما كان مرجواً منها، إلا أن مصر تسير اليوم في الطريق لأن تصبح دولة صناعية لديها مصانع تنتج أصنافاً من السلع والمنتوجات المتطورة، مثل الثلاجات وأجهزة التلفزيون والجرارات، ونتيجة لذلك إرتفعت قيمة الإنتاج الصناعي بمعدل أربعة أضعاف خلال الفترة ما بين ١٩٥٢ - ١٩٧٠، كما تحسنت أوضاع وظروف العمل، وتم تحديد عدد ساعات العمل في المصانع بسبع ساعات بموجب قانون صدر عام ١٩٦٣. إلى ذلك

أصبحت معاشات التقاعد التي كانت تمنح في السابق وفقاً لأهواء أصحاب العمل، أصبحت مضمونة بموجب برنامج المساهمة الوطني.

وبالنسبة إلى التعليم، أصبحت فوائده شاملة لعدد أكبر من المواطنين بعد عام ١٩٥٢. وضاعفت حكومة عبد الناصر عدد المدارس انطلاقاً من قاعدة أن التعليم المجاني حق لكل طفل، وانخفضت نسبة الأمية من حوالي ٨٠ في المائة عام ١٩٥٢ إلى أقل من ٥٠ في المائة. وبفضل اتساع نطاق التعليم الفني والجامعي أصبحت مصر تخرج مهندسيها وعلماءها وفنيها، ونجاح هؤلاء ينعكس بوضوح في أنظمة وشبكات الراديو والتلفزيون الحديثة التي تفوق في جودتها ونوعيتها نظيراتها في الدول العربية الأخرى، وتكاد تضاهي من حيث عدد ساعات بثها تلك النظم الموجودة في الدول المتقدمة.

وفي كل هذه الإنجازات كان الفضل الأكبر يعود إلى عبد الناصر، فلولا جهوده من أجل التخلص من آثار النظام الحاكم القديم، لما تحقق مثل هذا التقدم لمصر.

ولم يكن عبد الناصر أسيراً لمركزه وهيبته في مصر وحدها، فبعدما نجح في إحباط المحاولة البريطانية ـ الفرنسية لتدميره وتدمير ثورته في عام ١٩٥٦، أصبح عبد الناصر بطل القوميين العرب في كل مكان من العالم العربي من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، وقد توصل إلى قناعة بعد حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بأن الوحدة هي الطريق الوحيد لكي يحقق العرب استقلالهم. وكان يرى أن حزب «الوفد» قد فشل في تحرير مصر في العشرينات لرفضه التعاون مع إخوانه العرب في الخارج، ولذلك صمم (أي عبد الناصر) على أن يستخدم شعبيته الواسعة لتوحيد العالم العربي تحت جناحه، ولم تكن تلك محاولة منه لتعظيم ذاته بقدر ما كانت تحقيقاً لرسالة آمن بها لتحرير مصر وكل الدول العربية، وتوجيه القوة الديناميكية التي فجرتها ثورة ١٩٥٢ والمحافظة عليها.

ولكن على الرغم من شعبيته الواسعة بين الجماهير العربية وخارج مصر، فإن عبد الناصر فشل في فهم رفاقه العرب، فبعدما وهب نفسه للتعطش العربي من أجل الوحدة، انخدع في ظنه بأن كل الذين هللوا له وحملوا راياته كانوا مستعدين للحياة تحت ظل هذه الرايات، فالرجل الذي تعود على التعامل مع شعبه الطيع والسهل القيادة، فشل في أن يرى أن العرب الآخرين ـ حتى أولئك الذين يشاركونه ميوله الإيديولوجية كانوا يرفضون فكرة أن تملى عليهم التوجهات من القاهرة. ولم يكتشف إلا بعد فوات الأوان أن نجاحه المبدئي في تزعم حركة القومية العربية تحقق عن طريق القدوة وليس عن طريق الضغوط والمؤامرات، وعندما سعى لاستغلال إنجازاته الأولى في تحقيق رسالته، وجد أنه قد أساء تقدير قدرته على فرض قيادة مصر على بقية العالم العربي.

وكان عبد الناصر ينجح في معظم الأحيان في سحر زملاءه من الحكام والحصول على

تأييدهم لسياساته. وقد تمتع بقدرة فائقة على الإستفادة من المواقف وتوظيفها لصالحه، حتى أن الملك حسين شبهه مرة بأنه مثل «لاعب الأكروبات الماهر». ولذلك كان ينجح في كل القمم العربية في استنفار التأييد لسياساته إزاء إسرائيل، ولكن نظراً لدوره وسمعته كبطل عربي، فقد كان يندفع في بعض الحالات من منطلق الثقة المفرطة بالنفس، وتكون النتيجة هي الفشل مثلما حدث في كثير من المرات بدءاً من مواجهته مع عبد الكريم قاسم إلى تورطه في حرب اليمن، وعندما أضيف إلى ذلك الشكوك المتأصلة في نيات ومخططات الغرب إزاء العالم العربي، وجد عبد الناصر نفسه يندفع في حربه مع إسرائيل ويدفع بلاده في إتجاه كان يحاول دائماً تفاديه.

والغريب في الأمر أن عبد الناصر نجح طوال فترة حكمه - باستثناء الثلاث سنوات الأخيرة من حياته - في إدارة علاقاته مع القوى الخارجية بنجاح وبمهارة افتقدهما في كثير من الأحيان في تعامله مع رفاقه العرب. فهو لم ينجح فقط في إجلاء القوات البريطانية وشركة قناة السويس من مصر، بل نجح كذلك وحتى الستينات في إيجاد التوازن في علاقاته مع الشرق والغرب. فقد كان يشتري الغذاء من أمريكا، ويحصل على السلاح والمساعدات الصناعية من الإتحاد السوفييتي، وفي الوقت ذاته لم يكن يقبل بأية محاولة للتدخل من الشيوعيين الذين كان ينظر إليهم باعتبارهم تهديداً أجنبياً لا يقل خطورة عن «الإمبرياليين» الذين تآمروا لإسقاط نظامه، وكان يرفض أيضاً قبول أية شروط أو قيود سياسية على المساعدات الإقتصادية أو العسكرية الأجنبية. ولم يتخل عن موقفه الحيادي إلا في السنوات الأخيرة عندما وجد نفسه يعاني من الهزيمة على أيدي الإسرائيليين، حيث سمح للسوفييت بممارسة الكثير من النفوذ في تسيير السياسات المصرية.

وإذا نظرنا اليوم إلى عهد عبد الناصر، فإنه من الصعب ألا نخلص إلى القول بأنه ربما كان في مقدوره أن يفعل أكثر لمصر ورخائها لو تخلى بعض الشيء عن محاولاته لفرض تفوقها وهيمنتها في العالم العربي، ولكن بالنسبة إليه فإن الفشل في تصديه لقيادة القوى القومية على الساحة العربية، كان سيعني التخلي عن الهدف الذي وهب له حياته وهو تحقيق الوحدة العربية والإستقلال، إلى جانب ذلك فإنه حتى لو لم تتحقق الوحدة للعرب، وحتى لو فقدوا جزءاً من أراضيهم للإسرائيليين، فإنهم أصبحوا أحراراً من حكم طغاة أغراب تحميهم جيوش أجنبية.

وعلى الرغم من كل أخطائه وفشله في بعض الأحيان، إلا أن عبد الناصر أعطى مصر والعرب إحساساً بالكرامة، وهو إحساس كان يمثل بالنسبة له أساس الإستقلال والقومية، وأمام ذلك فإن عدوه القديم بن جوريون وجد نفسه يقول يوماً: «إنني أكن الإحترام لعبد الناصر، فهو وطني يحاول أن يفعل شيئاً لمصر»... ولم يكن هذا القول سوى الحقيقة. فعلى الرغم من كل الإنتكاسات التي تعرض لها عبد الناصر وشعبه في السنوات الأخيرة من حكمه فإن حال مصر والعالم العربي كان سيصبح أفقر معنوياً ومادياً من دون الإلهام الديناميكي الذي جسدته قيادته.

وفي خطاب كتبه إلى صديق وهو لم يزل بعد في السابعة عشرة من عمره قال عبد الناصر: «إن مصر تعيش حالة من اليأس بسبب حكومة تقوم على الفساد والمحسوبية، وهناك رجال من مصر يملكون من الكرامة ما يجعلهم يرفضون الموت مثل الكلاب، ولكن أين هو الرجل الذي يبني البلد بحيث تنتفض الجماهير المصرية المذلولة والضعيفة مرة أخرى وتعيش حرة ومستقلة؟ أين الكرامة؟ وأين القومية؟ إن البلد نائم مثل أهل الكهف، فمن الذي يستطيع إيقاظ هؤلاء المساكين الذين لا يعرفون من هم؟

وما يمكن أن يقال عن عبد الناصر اليوم هو أنه حقق تلك الصحوة، وبني بلده، ومنح شعبه الكرامة والإستقلال، وحقق ذلك بقوة شخصيته وإصراره. ولا أخال أن عبد الناصر، كما عرفته، كان يتمنى أكثر من ذلك.

★

عبد الناصر

أحد صناع القرن العشرين

روبرت ستيفنز

(سياسي وكاتب بريطاني)

((.. اهم تراث خلفه عبد الناصر للعرب المعاصرين هو الثقة في القدرة على مواجهة العالم المعاصر والجدية في السير نحو الهدف لتحقيق المجتمع الذي يحلم به))

ترك عبد الناصر بصماته على عشرين عاماً من تاريخ مصر ومن تاريخ العرب وتاريخ العالم، وهو قد قاوم الإستعمار وامتد بأفقه واهتمامه إلى البلاد التي تحررت حديثاً في العالم الثالث، وقد مجده البعض كبطل وطني «للتحرير واتهمه الآخرون أنه داعية للحرب ومثير للقلائل». . .

حينما اجتمع الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة يوليو سنة ١٩٥٢ لكي يقرروا مصير الملك فاروق وهل يكون النفي خارج مصر أم المحاكمة والإعدام كان رأي عبد الناصر الرصين «لنتركه للتاريخ وسوف يحكم بإعدامه».

ولنا أن نسأل الآن ماذا سيكون حكم التاريخ على جمال عبد الناصر نفسه؟ وكيف أصبحت سيرة الزعيم المصري وكيف تغيرت بعد سنوات من وفاته؟ وإلى أي مدى لا زالت آراءه ولا زال النموذج الذي قدمه ملائماً وصالحاً لمشاكل مصر والعالم العربي الآن؟

سير السياسيين العظام تماماً مثل سير الكتاب والفنانين العظام تعاني عادة ذبولاً وانحساراً بعد وفاتهم. . . وأحياناً تعود هذه السير وتنبعث ولو جزئياً في حياة جيل آخر لم يعان من وطأة

الأخطاء التي حدثت، واتضحت له حقائق وأبعاد المشاكل التي ثارت. ولعل هذا هو ما حدث لعبد الناصر.

ولا غرابة أن ينطبق هذا الأمر خاصة على الديكتاتوريين الذين استطاعوا خنق النقد أو إخفاء أخطائهم عن الرأي العام خلال حياتهم. والذين كانوا يرسمون لأنفسهم صوراً مثالية لم تقو على الصمود بعد وفاتهم وخاصة إذا ما قرر من يخلفهم أن يحطمها بدرجة أو أخرى.

وحينما يأتي بعد القائد أو الزعيم ويخلفه واحد من رجاله المقربين مثل خروشوف وستالين أو مثل السادات وعبد الناصر فإن تحطيم الصور يغدو قضية معقدة ومحرجة تماماً مثل تفريغ فتيلة، فإن عليهم وهم يصلحون الأخطاء ويتخلصون من الجوانب الكريهة للنظام أن لا يورطوا أنفسهم أو يسقطوا خلال المهمة.

كانت مواقف أنور السادات خليفة عبد الناصر مزيجاً من المدح والدفن. على نسق مارك أنطوني في رثاء قيصر، وتمثل في خطاب السادات في الذكرى الخامسة والعشرين لثورة يوليو ١٩٥٢ وكان احتفالاً لم ترفع فيه صورة واحدة لعبد الناصر ولم يعلق شعار واحد يذكر به... وقد ألقى السادات خطاباً طويلاً اعترف فيه بوقوع أخطاء ومظالم كثيرة ولكنه استطرد ليقول «ولكننا جميعاً نذكر الإستقلال الزائف الذي كان قائماً قبل الثورة والفساد السياسي الذي كان مستشرياً وكيف كانت التغيرات والتقلبات في الحكومات تتم عن طريق الرشوة الضخمة ثم جاءت ولأول مرة منذ آلاف السنين يحكم مصري هو جمال عبد الناصر مصر عن طريق الثورة وحقق الإنجازات المتلاحقة. أعاد توزيع الثروة وقضى على الإحتكار والإستغلال وعلى الأقلية الضئيلة التي كانت مسؤولة عنهما. وأمم قنال السويس وصمد للمواجهة مع دولتين من الدول الكبرى بل وقضى على امبراطوريتين سيطرتا على العالم لقرون طويلة.. ولهذا فإنه من التجني مقارنة هذه الإنجازات المجيدة بالأخطاء والإنحرافات التي ربّما تكون قد حدثت... تماماً مثل مقارنة الهرم الأكبر بحفنة من الرمال».

وقد طبع عبد الناصر بطابعه ما يقرب من حقبتين من تاريخ مصر والعالم العربي والعالم عامة وترك بصماته واضحة. وبالنسبة للبعض كان البطل الوطني بالنسبة للبعض الآخر كان الديكتاتور العدواني وداعية الحرب أو مثير القلاقل الدولية... وفي الحقيقة كان عبد الناصر في نفس الوقت ثورياً وسبباً من أسباب الإستقرار في الشرق الأوسط، وأقام نظام حكم قوي وتقدمي إلى حد ما في أكبر دولة عربية وأكثرها تطوراً وأدى هذا إلى أن معظم التغيرات التالية في المجتمعات العربية تمت سلمية إلى حد كبير...

وقد كان عبد الناصر أهم رجل دولة أنجبته الصحوة العربية وكان أحد أقطاب الثورة ضد الإستعمار وهي إحدى الحركات السياسية الكبرى في القرن العشرين.

وكان عبد الناصر مصرياً مسلماً وأعلن نفسه عربياً وكان نتاج ثورة التحرر من الإستعمار ومن الإمبريالية وثورة اللحاق بالحضارة الحديثة التي أنجبت نهرو وماوتسي تونج ونكروما وكاسترو وهوشي منه كما كان من قواها الدافعة. وكان عبد الناصر ينتمي إلى عصر بطولي هو عصر ثورات التحرر الوطنية ولكنه تجاوزه إلى مرحلة أكثر تقدماً تعني بالتغير الإجتماعي والإقتصادي والوحدة القومية وبإقامة دولة عصرية تحقق أهم ما تحقق الإستقلال الإقتصادي بنفس أهمية تحقيق الإستقلال السياسي... وهي جوهر مشاكل العالم الثالث... هي الآن محور كفاح دول هذا العالم لإقامة نظام إقتصادي عالمي جديد.

وينبغي بالطبع أن لا ننسى أن ضخامة مشاكل مصر الإجتماعية وعمق جذورها خاصة الفقر وتزايد السكان وقلة الموارد تجعل من الصعب أن يتوقع أحد من أي نظام حكم مهما كانت نواياه الحسنة أو كفاءته حلاً لهذه المشاكل أو تخفيفاً جوهرياً لوطأتها في أقل من عشرين عاماً. ويستطيع عبد الناصر على الأقل أن يزعم لنفسه أنه قد خفف بعض المساوىء وقام بالخطوة الأولى والبداية في طريق إيجابي بناء.

وقد تمت إقامة السد العالي قبل وفاة عبد الناصر بأشهر قليلة وقد تباطأت خطوات استصلاح الأراضي وكهربة الريف. التي كان يجب أن تصحب بناء السد، وذلك بسبب نفقات الحرب مع إسرائيل واستمرار الإنفاق العسكري الضخم. وسوف يؤدي الإستغلال الكامل للسد العالي وللكهرباء التي يولدها في النهاية إلى توسيع كبير في الصناعة والزراعة وذلك مهما كانت الآثار الجانبية على البيئة. وسوف يصبح ذلك ضرورة حتى توازي زيادة الإنتاج الزيادة في السكان إن لم تتجاوزها وقد وصلت الزيادة السكانية في سنة ١٩٧٠ إلى حوالي المليون سنوياً.

وقد حققت ثورة سنة ١٩٥٢ زيادة صغيرة في متوسط دخل الفرد في مصر. وقامت بتوزيع أكثر عدالة للثورة في مصر ولكن المكاسب الإجتماعية تحققت عن طريق الخدمات الإجتماعية المجانية التي تطورت وارتفع مستواها أكثر مما جاءت عن طريق زيادة الدخول. فقد أقيمت المدارس والمستشفيات والوحدات الصحية ومشاريع الإسكان والتأمين الإجتماعي المحدود.

على أن أكثر المستفيدين بين الفلاحين في مصر وهم ٦٠٪ من السكان كانوا الفلاحين المتوسطين والمليون ونصف مليون فلاح الذين استفادوا من الإصلاح الزراعي أما الملايين من الفلاحين المعدمين أو العمال الزراعيين المتعطلين أكثر الوقت فقد كانت المكاسب طفيفة والزيادة ضئيلة في دخولهم.. إلا إذا هاجروا إلى المدينة واستطاعوا أن يجدوا عملاً هناك.

ولم يطبق في معظم الأحوال القانون الذي حدد الأجر الأدنى للعمال على العمال الزراعيين الذين استفادوا على الأقل من مشاريع الخدمات الإجتماعية الريفية العديدة خاصة في الصحة والتعليم وشاطروا الفلاحين الأكثر حظاً هذه المكاسب.

وفي سنة ١٩٥٦ غادر مصر آخر جندي بريطاني وانتخب عبد الناصر رئيساً للجمهورية

وكانت الظروف والفرصة العظيمة سانحة لتحول حكمه إلى الديمقراطية وقد كان مفروغاً منه أن يفوز في أي إنتخابات ديمقراطية حرة.

ولكن ما لبث في ظروف عدة أسابيع أن وجد نفسه إزاء خطر تحد خارجي واجهه، فقد قررت الولايات المتحدة وتلتها بريطانيا سحب عرضهما بالمساهمة في تمويل السد العالي ورد عبد الناصر بتأميم قنال السويس ووجد نفسه بين يوم وليلة في دوامة أزمة دولية. . . إنتهت إلى الحرب. وكان لا مناص من تأجيل أي تطور ديمقراطي.

وبالنسبة للعالم العربي. . فإنه بالرغم من فشل الوحدة السورية المصرية. . وكانت أكبر محاولة جدية لإقامة الوحدة بين أي دول عربية وبالرغم من القصور عن الوصول إلى حل للمشكلة الفلسطينية الإسرائيلية وبالرغم من الشك والعداء لعبد الناصر من الحكومات العربية الأخرى فإنه ظل الرمز الأكبر للقومية العربية الثورية ولطموحها نحو الإستقلال التام عن الدول الكبرى ونحو الوحدة العربية ونحو اللحاق بالحضارة الحديثة ونحو مجتمع أكثر عدالة.

وبالنسبة للعالم الثالث فقد أسس عبد الناصر نفسه مكانة رفيعة مثل تيتو كأحد أقطاب حركة عدم الإنحياز ولكن التزامه العميق بمقاومة الإستعمار والإمبريالية في العالم الأسيوي الأفريقي قد أدى به إلى الإعتماد المتزايد على روسيا بينما كان الغرب هو العدو.

وقد كان موقف عبد الناصر خلال أزمة السويس وفشل الغزو البريطاني الفرنسي سبباً في إنهاء الوجود الإستعماري في أفريقيا وآسيا وهذا مما أدى إلى الإنسحاب الكامل ونهاية أي سلطة سياسية أو وجود عسكري لبريطانيا وفرنسا في العالم العربي. وقد انتهت الحرب الجزائرية باستقلال الجزائر وتحرر المغرب العربي عامة.

وتشبث البريطانيون بالبقاء لعدة سنوات أخرى في الطرف الآخر من العالم العربي في عدن وشبه الجزيرة العربية ولكنهم ما لبثوا أن رحلوا عن كل شبه الجزيرة العربية والخليج سنة ١٩٧١.

وقد بدا لبعض الوقت أن حرب سنة ١٩٦٧ قد حطمت الكثير من إنجازات عبد الناصر وقضت عليها. . وبعدما استطاع في النهاية أن يحرر أرض مصر من الإحتلال الأجنبي بجلاء البريطانيين سنة ١٩٥٦، وجد عبد الناصر بعد مرور عشرة سنوات قوات أجنبية إسرائيلية تحتل شبه جزيرة سيناء ـ وتستولي على آبار البترول فيها ـ وبعد ما استرد السيطرة كاملة على قنال السويس وجدها تغلق للملاحة وتصبح عديمة الفائدة وتحتل إسرائيل ضفتها الأخرى. . وبعدما رفض أي حلف غربي أو حماية غربية تحقيقاً للإستقلال التام ولعدم الإنحياز وجد نفسه يعتمد كل الإعتماد على المساندة السوفياتية العسكرية والدبلوماسية، وقد كافح عبد الناصر دائماً من أجل إستقلال إقتصادي ومساعدات أجنبية غير مشروطة ولكنه وجد نفسه بعد سنة ١٩٦٧ مديناً بدين أجنبي يبلغ ألف مليون جنيه ومعتمداً على معونات من حكومات عربية أخرى منها معونة ودعم الملك فيصل في العربية السعودية.

ولكن أكدت الأحداث منذ وفاة عبد الناصر أن هذه الإنتكاسات كانت في معظمها مؤقتة عابرة ولم تغير في شيء من جوهر الأوضاع التي حققت إستقلال مصر. وحتى قبل أن يشن السادات حرب سنة ١٩٧٣ والتي أدت إلى إعادة فتح القناة وإلى عودة سيناء على مراحل في ظل معاهدة صلح مع إسرائيل.. كان واضحاً أن الإسرائيليين لا يمكن أن يبقوا إلى الأبد في سيناء.. وحتى لو استبقوا قوات لمدة أطول في شرم الشيخ فإن الوزن السياسي لوجودهم العسكري هذا لم يكن ليقارن في شيء بوجود عشرات الآلاف من القوات البريطانية ذات يوم في السويس..

ولم يستطع السوفيات قط أن يحولوا مصر إلى بلد تابع واضطر خبراؤهم الذين كان يبلغ عددهم إلى ١٥ ألفاً أن يغادروا مصر بمجرد أن طلب إليهم السادات ذلك.

وقد استطاع السادات أن يحقق جلاء إسرائيل عن سيناء لأنه من جهة كان مستعداً لأن يدفع ثمناً أعلى مما كان عبد الناصر مستعداً لدفعه وكان مستعداً للتحول والإنقلاب بالتحالف من روسيا إلى أمريكا ومن جهة أخرى كان مستعداً للتعامل المباشر مع إسرائيل ولقبول معاهدة صلح كاملة مع إقامة علاقات طبيعية رغم أن ذلك يفقده تأييد العرب. وفقدان مكانة مصر ودورها القيادي في العالم العربي.

على أن مبادرة السادات للسلام ما كان يمكن أن تتم بغير حرب سنة ١٩٧٣ وبغير حظر البترول العربي الذي صاحبها وقد كسبت مصر ما حققته من نجاح في هذه الحرب بالأسلحة السوفياتية وبالإستعدادات العسكرية التي بدأت خلال حكم عبد الناصر.

ولم يكن استعداد الولايات المتحدة لأول مرة أن تضغط على إسرائيل من أجل التقدم خطوة خطوة نحو السلام نتيجة لفصم السادات لعلاقاته مع الإتحاد السوفياتي فحسب ولكن نتيجة لإستعراض القوة العربي بحظر البترول ورفع الأوبيك لأسعاره.. وإثبات ما يمكن لعالم عربي متحد أن يمارسه من ضغوط.

وقد كانت قدرة الجيش المصري المفاجئة على استخدام أحدث الأسلحة التي تمخضت عنها التكنولوجية العسكرية المعاصرة هي لا شك ثمرة لإنتشار التعليم العالي إنتشاراً واسعاً في مصر تحت حكم عبد الناصر والذي تحقق بالرغم من هبوط المستوى في التعليم الثانوي والجامعي.

وقد كان أساس اهتمام عبد الناصر بالوحدة العربية هو إقامة جبهة عامة ولحماية إستقلال مصر والمنطقة العربية ضد القوى الخارجية وكان هدفه الآخر هو دفع التنمية الإقتصادية في مصر.. وكان العالم العربي يقدم سوقاً واسعاً لبضائع ومنتجات المصانع الجديدة في مصر. فضلاً عن المزايا الأخرى التي يحققها قيام إقتصاد إقليمي كبير من توفير فرص عمل للخبراء المصريين وللعمال المصريين ومن اجتذاب استثمارات عربية أكثر إلى مصر من دول البترول.

وقد كان عبد الناصر أول رجل دولة عربي يدرك تماماً الإمكانيات الجيوبوليتيكية لعالم عربي متحد ذو سيطرة موحدة أو متناسقة على الموارد الإحتياطية الأساسية للبترول في العالم وعلى طرق نقلها عبر قنال السويس أو خطوط الأنابيب

«وقد كان أنطوني إيدن يدرك هذا أيضاً. وكان السبب الرئيسي في دفعه لحرب السويس، وحينما ندد ايدن ومؤليه بعبد الناصر ووصفاه بأنه هتلر آخر رد عبد الناصر قائلاً إن ما يفزعهم حقيقة هو أثر الثورة الأسيوية الأفريقية على مصالحهم الإقتصادية».

وكان عبد الناصر يرى أن الوحدة العربية السياسية لا بد وأن تكون الهدف الطبيعي لشعوب تتكلم نفس اللغة وتشترك في نفس الوعي التاريخي ولكن لم يكن عبد الناصر يلقي إهتماماً بأي وحدة عربية إلا في إطار الحاجة إلى سياسة موحدة وخاصة بعد إنهيار الوحدة مع سوريا.. وعلى هذا الأساس ربما تقوم أشكال جديدة من الوحدة تعكس مصالح مشتركة ولكن سوف تستغرق بلا شك وقتاً أطول.

وبعد حرب ١٩٦٧، أخضع عبد الناصر كل طموحه نحو وحدة عربية للحفاظ على جبهة متحدة ضد إسرائيل لإستعادة الأراضي العربية المحتلة وتصالح مع أقوى خصومه في العالم العربي الملك فيصل وسحب قواته من اليمن سنة ١٩٦٨ وأصبح دور عبد الناصر في مؤتمرات القمة التي عقدت بعدئذٍ هو دور الوسيط الأبوي الواسع الصدر وقد كان يقوم بهذا الدور سنة ١٩٧٠ في الحرب الأهلية في الأردن بين الملك حسين ومنظمة التحرير الفلسطينية حينما أدركته الوفاة.

وبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ظل عبد الناصر حتى النهاية الخصم الخطر المتطرف عدو أمريكا وصديق روسيا... ولعل عبد الناصر كان يمكن أن يقبل تسوية مع إسرائيل قائمة على قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وعلى الإعتراف بإسرائيل وعلى إنهاء حالة الحرب مقابل إنسحاب إسرائيل الكامل من كل الأراضي المحتلة... وقد قبل عبد الناصر مبادرة روجرز ولكنه كان يثق أن إسرائيل لا يمكن أن تنسحب إلا إذا أرغمتها القوة العربية أو الضغط الأمريكي.

ولم تكن الولايات المتحدة في ظل نيكسون / كيسنجر مستعدة لأن تسمح بأن تُطرد إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها بقوات مصرية وسوريا مسلحة تسليحاً سوفياتياً ولم تكن مستعدة للضغط على إسرائيل لحساب العرب طالما كان عبد الناصر مصراً على سياسته الخارجية المعادية للولايات المتحدة وطالما كان يهيء للإتحاد السوفياتي دوراً بارزاً في مصر وفي مذكراته «سنوات البيت الأبيض» كتب كيسنجر معبراً عن حيرة الدبلوماسي المحترف إزاء دبلوماسية عبد الناصر. كان عبد الناصر يصر على إنسحاب إسرائيل التام وبلا قيد أو شرط من كل الأراضي المحتلة ولم يحاول أن يفسر لنا ما الذي يدعو إسرائيل ويحفزها إلى مثل هذا الإنسحاب مقابل عروض مبهمة عن إنهاء حالة الحرب. وكان عبد الناصر يعتمد علينا في إنتشاله من نتائج تهوره

ومغامرته سنة ١٩٦٧. ولكنه لم يكن مستعداً لأن يتخلى عن دوره كبطل القومية العربية الثورية وهو الدور الذي دفعه دائماً إلى مواقف صريحة العداء لأمريكا في كل القضايا الدولية تقريباً «وأضاف كيسنجر» أن عبد الناصر يريد كل شيء مقابل لا شيء... وهو ما لا يمكن أن يكون أساساً لسياسة خارجية عملية.. على أن كيسنجر ونيكسون كانا مهتمان بوقف امتداد النفوذ السوفياتي وباحتواء الثورية العربية في الشرق الأوسط أكثر من اهتمامهما بدفع إسرائيل إلى تسوية سلمية وخلال زيارة عبد الناصر إلى موسكو سنة ١٩٧٠ وهي الزيارة التي تقرر فيها إرسال صواريخ مضادة للطائرات إلى مصر بعث نيكسون بمذكرة إلى كيسنجر تقول «إن اهتمامنا الأول الذي يسبق كل اهتمام آخر في الشرق الأوسط هو إثارة أكبر قدر من المتاعب للسوفيات.. ولا تدع الصراع العربي الإسرائيلي يحجب عنك هذه الحقيقة» ولم يحدث أن بذل نيكسون أو كيسنجر أي محاولة لفهم صحيح لعبد الناصر ومشاكله. ولم يكن لديهما أي تعاطف قط نحوه، ولهذا كانا يضعان العربة أمام الحصان دائماً، وقد كانت علاقات عبد الناصر بالإتحاد السوفياتي محكومة بصراعه ضد إسرائيل، وبمواقف الدول الغربية ضده، ولعله لو توصل إلى تسوية مع إسرائيل وعدلت الدول الغربية علاقاتها به كان قد تمكن من تقليل حجم اعتماده العسكري والإقتصادي على موسكو. ومن أن لا يستغرق في كفاح وطني مستميت ضد إسرائيل مثل الذي احتاجه لإنهاء الإحتلال البريطاني.

أثارت هزيمة سنة ١٩٦٧ جدلاً حاداً حول هل ينبغي لبلد ضعيف مادياً، ومكشوف جغرافياً مثل مصر أن يطبق سياسة خارجية واسعة المدى، وأن يجمع بين عدم الإنحياز وبين الإعتماد على المساعدة الإقتصادية والعسكرية الخارجية، وبين المقاومة الضارية ضد الإمبريالية على النطاق الإقليمي بل والعالمي.. وقد كان هذا يعني الصدام المستمر مع أقوى دولة في العالم وهي الولايات المتحدة الأميركية.

وقد أراد عبد الناصر أن يحمي مصر ويخفف من موقفها المحفوف بالتحديات بتعبئة العرب وراء سياساته وبالإعتماد أكثر وأكثر على روسيا ولكن أثبتت حرب ٦٧ أنه لا العرب ولا الروس يمكن أن يقفا في وجه الولايات المتحدة الأمريكية وإذا ما نظرنا إلى العالم العربي الآن، وما يسوده من إنشقاق وإضطراب فيما عدا السلام القائم بين مصر وإسرائيل فإن السؤال الطبيعي الذي يطرح هو هل هذا ميراث خلفه وصنعه عبد الناصر وجزء من تراثه السياسي والإقتصادي أم أنه يعود إلى حد كبير إلى غيابه عن المسرح وفي الإجابة عن هذا السؤال ينبغي تجنب الوقوع في نفس الخطأ الذي وقع المعلقون الغربيون إزاء عبد الناصر وخلال حياته.. وهو أن ينسبوا إليه شخصياً أحداثاً وتطورات كانت في حقيقتها فصلاً من حركة التاريخ العريضة التي فهم مغزاها عبد الناصر والتي دفعها وشجعها والتي استغلها وأحياناً عانى الكثير بسببها ولكنه لم يكن هو الذي صنعها وخلقها.. كانت حركة الثورة الوطنية للتحرير والتجديد التي هزت أرجاء العالم العربي والعالم الإسلامي وكل بلاد العالم الثالث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية موجودة قبل بروزه على ساحة الصراع العربي والدولي.

كان عبد الناصر مسلماً يؤدي فرائض الدين. وفي كتابه فلسفة الثورة يقرر أن مصر ينبغي أن تتحرك في ثلاث دوائر العالم العربي والعالم الإسلامي وأفريقيا. ولكن إيمانه بالقومية العربية كان علمانياً في جوهره وكان حذراً كل الحذر في سياساته الداخلية والخارجية من استغلال الدين سياسياً وكان أعنف خصومه داخل مصر هم الإخوان المسلمون وكان يدرك تماماً ما يمكن أن يسببه إقحام الإسلام من خلخلة للسلام الطائفي في مصر حيث يكون الأقباط المصريون أقلية بارزة من أربعة ملايين تقريباً. وكان من بين الإصلاحيات الرئيسية التي قام بها عبد الناصر إلغاء المحاكم الشرعية والمحاكم الدينية الخاصة التي كانت تفصل في قضايا الأحوال الشخصية.

وفي الصراع القائم في العالم العربي بين العلمانية والإسلام وبين اليمين واليسار وبين الولايات المتحدة وروسيا، وبين الوحدويين العرب والوطنيين المصريين كان عبد الناصر يقف دائماً في الوسط يوازن بين الجميع.. وكانت هيبته الشخصية تؤكد مكانة مصر كأكبر دولة عربية وأكثرها تقدماً.. ولا شك أن هذه الهيبة ربما كانت كفيلة بتلافي مآسي ومشاكل مثل الحرب الأهلية اللبنانية أو الحرب بين إيران والعراق.

وربما لم تحل اشتراكية عبد الناصر العربية مشاكل الفقر العويصة في مصر ولكن كان لها اهتمام مضطرد منظم واسع المدى بالمحرومين أكثر بكثير من سياسة «الباب المفتوح» في عصر السادات ولتشجيع الإستثمار الأجنبي وتحرير التجارة الخارجية.

وربما كان أهم تراث خلفه عبد الناصر للعرب المعاصرين هو الثقة في القدرة على مواجهة العالم المعاصر والجدية في السير نحو الهدف لتحقيق المجتمع الذي يحلم به.

★

عبد الناصر ... الثورة مستمرة

بقلم: محمد عودة[*]

يستطيع الإنسان أن يتفق مع المستر ستيفنز أو أن يختلف معه[1]. ولكنه لا بد وأن يحترمه ويحاوره وهو كاتب يحب العرب ويحترمهم، وأهم من هذا يفهم ولا ينقطع اهتمامه المتصل بقضاياهم.

وقد عرفت الحركة الوطنية المصرية على امتداد تاريخها موكباً من الأحرار البريطانيين، انحازوا إليها أو تعاطفوا معها، ووقفوا موقف المعارضة أو المقاومة من السياسات الرسمية الإستعمارية والمستر روبرت ستيفنز لا شك أنه واحد من أبرزهم.

وهو يطرح في هذه الدراسة المختصرة كل القضايا الجوهرية والجدلية حول عبد الناصر وعصره، وهو يطرحها كأسئلة وتساؤلات مشروعة، وليس كإتهامات كما طرحت دائماً، وهي لهذا تستحق الرد والنقاش.

وأهم القضايا التي يثيرها:

(*) كاتب وصحافي مصري له عدة مؤلفات وطنية وقومية.

(١) إشارة إلى الموضوع السابق: عبد الناصر.. أحد صناع القرن العشرين.

عبد الناصر والديمقراطية:

هل كان عبد الناصر ديكتاتوراً وهل خنق النقد والحريات، ورسم لنفسه صورة مثالية تحجب الحقيقة وكل الثغرات، وهل استبعد الطبقة الوسطى ونفى المثقفين وتجاهل الجماهير . . لأنه كان يحتكر السلطة ولا يريد أن يشاركه فيها أحد، وهل اعتمد على أجهزة القمع . . الرقابة والبوليس ثم الجهاز الذي بث الرعب وهو المخابرات؟ وفي النهاية هل فشل عبد الناصر في إقامة قاعدة وطيدة لسلطته وفي بناء تنظيم سياسي شعبي يخلفه ويحمي استمرار الثورة؟

قضية الديمقراطية:

السؤال الأول الذي يطرحه المستر ستيفنز هو حكم التاريخ على عبد الناصر وكيف يكون؟

وليس للتاريخ حكم واحد على أي من «صانعيه» وأقطابه، وهو يختلف باختلاف مناهج المؤرخين.

ولعل أصدق حكم على هؤلاء وسواء كانوا ديكتاتوريين أم ديمقراطيين هو حكم الشعوب.

والشعب هو الذي سعد أو شقي بالحاكم وهو أفضل وأعدل من يحكم له أو عليه. وقد أصدر الشعب المصري حكماً صدق عليه أكثر من مرة.

وفي يناير سنة ١٩٧٧ وبعد سبع سنوات من وفاة عبد الناصر قامت الإنتفاضة الشعبية الكبيرة في مصر، وكانت واحدة من أكبر الإنتفاضات في تاريخه الحديث وكان سببها المباشر هو إلغاء الدعم على أسعار القوت الضروري. وذلك كما طلب صندوق النقد الدولي، ولكن الأسباب الأخرى كانت أكثر وأعمق.

وتميزت المظاهرات بأن الجموع الحاشدة العارمة والتي خرجت من الإسكندرية إلى أسوان كانت تحمل شعاراً واحداً رأت أنه يلخص كل ما تريد أن تعبر عنه . . وهو صورة عبد الناصر . . وقد دهش الجميع أن لا يزال لعبد الناصر هذا العدد من الصور في مصر.

وجاءت الإنتفاضة بعد سبع سنوات من حملة هستيرية ضاربة لم يحدث مثلها من قبل في تاريخ مصر وربما في تاريخ أي بلد ضد عبد الناصر ولم تبق شيئاً لم تلحقه به وأرادت لو تستطيع تصفية شخصه وعصره ورفعهما تماماً من سجلات تاريخ مصر.

وفجأة إنتفضت الملايين وخرجت تحمل صورته وتشهرها كأنها تعويذة أو طوق نجاة يحتفظ به كل مواطن . . وكتبت صحيفة بريطانية والتي لم تتعاطف معه يوماً تقول «بدا وكأن عبد الناصر لا زال يحكم مصر».

وفي سنة ١٩٧٠ مات عبد الناصر وذهب، ولم تعد له سلطة ولا حول ولا طول، وكان في

استطاعة الشعب أن يخرج أو لا يخرج ليشيعه وخرجت جنازة، كانت مظاهرة حزن عميق جارف ساحق لم يشيع بمثلها زعيم.

وكانت لغزاً غامضاً لأعدائه الذين توقعوا أن يتنفس الشعب «الصعداء» لذهاب الطاغية حتى عقدت جامعة شيكاغو ندوة خاصة لدراسة «جنازة عبد الناصر» التي حيرتها.

وفي سنة ١٩٦٧ وقعت النكسة، وكانت أقسى ما يمكن لعبد الناصر وسقط الجيش الذي قيل أنه يحكم بسطوته ودفعته شجاعته أن يقف ويعلن مسؤولياته عن خطايا إرتكبها غيره وأن يتنحى. . وقبل أن ينتهي من خطابه كانت الملايين قد خرجت من كل ركن وشبر حتى من لم يخرج قط في حياته وزحف طوفان من البشر إلى بيته ولم يعودوا إلا بعد أن عدل عن قراره وبقي.

وكان هدف الغزو الثلاثي سنة ١٩٥٦ الأول والأخير هو إسقاط جمال عبد الناصر. . وأعلن أنتوني ايدن ليس بيننا وبين الشعب المصري أي خصومة وأن معركتنا ضد الطاغية، ولم يكن لديه أو لدى موليه أو بن غوريون، أبطال الغزو، أي شك في أن الشعب المصري ينتظرهم كمحررين.

ووزع عبد الناصر السلاح على الشعب لأول مرة منذ الإحتلال. ونشبت معركة غير متكافئة، كان العامل الحاسم فيها هو صمود «الجبهة الداخلية» وسقط ايدن وغي موليه واعتزل بن غوريون، وبقي عبد الناصر.

وفي سنة ١٩٥٤ تحالفت الأحزاب القديمة في آخر محاولة لإستعادة السلطة واستطاعت أن تشق صفوف الثورة وأن تستقطب «قائدها» وجناحها اليساري بإسم الديمقراطية، وتفادياً لصدام مسلح أعلن عبد الناصر، العودة إلى الثكنات. ولكن أعلن العمال الإضراب العام. . وأن هذه ليست معركة الديمقراطية ضد الديكتاتورية العسكرية ولكن معركة الثورة ضد الثورة المضادة.

وسقطت الأحزاب. . وبقي عبد الناصر ولا نظن بعد كل هذه «الأحكام» التي صدرت بعد أدق الإختبارات أن ينطبق لقب «الديكتاتور» على عبد الناصر وأبسط تعريف للديكتاتور هو الحاكم الذي يقهر الأغلبية لصالح الأقلية ولا يمكن أن يخرج الشعب المصري بفطرته السياسية ووعيه ليتشبث بديكتاتور خنق المعارضة ورسم صورة زاهية لنفسه واعتمد على أجهزة القمع والقهر والرقابة.

والثورة كما يقول مثل معروف «عيد للجماهير ومأتم للسادة» والثائر بطل للفقراء المحرومين وطاغية بالنسبة للمستغلين والمستبدين، وكان عبد الناصر بلا شك طاغية مغتصب بالنسبة للباشوات والبكوات في مصر ولكنه البطل المخلص الذي انتظره طويلاً العمال والفلاحون وكل الفقراء المحرومين.

وذات يوم نشرت صحيفة هندية مقالاً بلا توقيع بعنوان. «نهرو هل هو ديكتاتور» وجاء فيه «هذا الرجل الذي تمنحه الهند كل هذه الثقة وهذا الحب، وهذا التفويض ليقرر مصيرها هل هو ديكتاتور. .؟ أو سوف يكون. . إنه الآن يفعل ما يشاء، وكيف يشاء. . وتصدق الجماهير على كل ما يفعله وتباركه. . ولكن ألا يتنافى هذا مع الديمقراطية ويتهددها. وهل ينتهي إلى ديكتاتور صريح، ودعا الهند إلى الإجابة وأجابت بفيض جديد من الثقة والحب والتفويض إلى نهرو وكان هو الذي بنى الديمقراطية في الهند.

ولم يعرف إلا بعد زمن طويل إن كاتب المقال هو «نهرو» نفسه. والبطل القومي ليس الديكتاتور. . وهو حقيقة في حياة كل الشعوب. وباعتراف كل النظريات والإيديولوجيات. وتصنع الشعوب دائماً تاريخها بجماهيرها، ولكن دور الفرد قائم وحاسم.

ولا يولد البطل صدفة ولكن في الأزمات واللحظات العصيبة. وعند نقط التحول ويكون تعبيراً عن إرادة جماعية كامنة، ولكي يجتاز ويعبر منحنيات خطرة. ولا يمكن تصور التاريخ القديم أو الحديث بغير إبطاله ولا يمكن تصور القرن العشرين مثلاً بغير روزفلت وتشرشل ولينين وتيتو أو بغير ماوتسي تونغ ونهرو وعبد الناصر.

ولا ينطبق على هؤلاء القانون الدستوري العام، وقد عاش عبد الناصر ومات لكي تسترد الجماهير إنسانيتها ولكي تصنع حياتها بنفسها، ولذا لا يمكن أن يتهم بالخوف منها أو خشيتها أو باستبعادها من المشاركة في السلطة.

كانت الجماهير قضية حياته ومصدر كل قوته وسلطته وقضية الديمقراطية في مصر لم تبدأ على أي حال من عبد الناصر وللديمقراطية تراث عريق في مصر، ولها معركة بامتداد تاريخ مصر الحديث، ولا يمكن فهمها إلا في هذا الإطار.

وقد لا يعرف كثيرون أنه في الربع الأخير من القرن الماضي، كانت هناك ثورة وطنية ديمقراطية كاملة في مصر. وكانت تريد خلع الخديوي والإستقلال عن السلطات وأن تقيم جمهورية ديمقراطية برلمانية وحزبية على النسق الأوروبي.

وكان هناك حزب سياسي عصري. نشرت صحيفة «التايمز» برنامجه كاملاً نموذجاً ليقظة الشرق وكان هناك برلمان يفيض بالحيوية والحوار شبهه مراسل «التايمز» أيضاً ببرلمان الثورة الفرنسية، وكانت هناك قيادات وطنية شعبية، سياسية وعسكرية: وأعد مشروع «دستور» مقتبس من الدساتير الأوروبية وليصدر عن جمعية تأسيسية ويكون «ميثاق» مصر الحديثة.

وتقرر أن الوطنية والديمقراطية سابقة خطرة، وأنها تهدد المصالح الدولية الكبيرة وأنها يجب أن تقمع وجاء الأسطول من «بور تسموث» وجاءت القوات من بومباي. . وقررت «أم الديمقراطية» سحق الثورة والحزب والبرلمان ومشروع الدستور ونفي القادة الوطنيين إلى جزيرة

نائية. وأن يعود الإستقرار ويأمن حكم الخديوي والسلطان والمصالح الأوروبية وتقرر احتلال مصر حتى لا تتكرر المأساة، وانتدب اللورد دوفرين، ليضع نظاماً جديداً مستنيراً لحكم مصر ويتدرب خلاله المصريون ويتعلمون حكم أنفسهم بأنفسهم وكان فخامة اللورد من «بناة» الأمبراطورية وذو خبرة طويلة بالشرق اكتسبها في اسطنبول وفي كلكوتا.. وكان يرى أن الديمقراطية البرلمانية نظام أوروبي، لا تصلح للشرقيين لأنه يتجاوز قدراتهم ووعيهم.

واعتماداً على خبرته الهندية والعثمانية وضع نظاماً مستمداً من النظم في مقاطعات الهند، وولاياتها، أي هرم من المجالس التشريعية والتنفيذية والمحلية الجوفاء، تقدم واجهة لسلطة الحاكم أو المعتمد البريطاني المطلقة.. وحكمت مصر بهذا النظام حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.. وكانت تجربة مريرة رسبت عميقة في ضمير مصر ووعيها.

وبعد الحرب العالمية الأولى وفي سنة ١٩١٩ انفجرت ثورة وطنية شعبية اكتسحت مصر كلها، وكسرت حاجز الرهبة من الأمبراطورية «المنتصرة» أمام كل شعوب الشرق.

واستأنف الشعب ثورته وبنفس الأهداف والمطالب، وفوجئت السلطة البريطانية التي نصبت نفسها حامية «للفلاحين» والتي كانت تستعد لضم مصر نهائياً إلى الأمبراطورية بانتفاضة كل الشعب ضدها.

وحينما عجزت السلطة عن القضاء على الثورة هذه المرة قررت التنازل والتسليم لها ببعض المطالب.. وكان في مقدمتها «الدستور» وصدر هذا الدستور سنة ١٩٢٣ وحكم الحياة السياسية المصرية حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ وكان محور معركة الديمقراطية.

عبد الناصر والقضية العربية:

هل كان عبد الناصر عربياً أم منح نفسه هذه الصفة. وهل كان اختياره للعروبة إيماناً أم سياسة ومصلحة. وهل كان وطنياً مصرياً يرى في العروبة مجرد استراتيجية لحماية مصر، والعرب بالتبعية.. ولخلق سوق للمنتجات المصرية، ولإقامة مجال حيوي لزعامته ولقيادة مصر، هل اعتنق الوحدة العربية أم استخدمها لمجده الشخصي ولطموحه الوطني؟ وهل نجح أم فشل..؟ وهل كانت الوحدة السورية وحرب اليمن وحرب ٦٧ فشلاً إن لم تكن كوارث باهظة؟

قضية العروبة والوحدة:

لم يأت عبد الناصر من «فراغ» ولم يعلن نفسه عربياً وقد تفتح وعيه السياسي كما روى في مظاهرة خرجت تهتف بسقوط وعد بلفور ثم بقراراته ثم اكتمل هذا الوعي بالتجربة المريرة العميقة في حرب فلسطين ويروي أحد رفاقه من الأحرار في مذكرات نشرت «كان عبد الناصر نهماً كان لا يرى إلا ويحمل كتباً معه. وقد وضع لنا نظاماً لكي يقرأ كل منا كتاباً ثم نناقشه معاً،

وذات يوم دخل ومعه كتاب ضخم من خمسة أجزاء، وقال أن هذا من أهم الكتب التي يجب أن نقرأها ونناقشها معاً ووزع على كل منا جزءاً منه وكان عنوان الكتاب «الثورة العربية» بقلم أمين سعيد ولأول مرة نرى صورة حقيقية ومتكاملة للثورة العربية التي قادها الشريف حسين وأولاده خلال الحرب العالمية الأولى. وكانت تحوط بها الشكوك كثيراً في مصر، وذلك لإنضمام العرب إلى البريطانيين أعداء مصر. وأدركنا لأول مرة حقيقة المشكلة في فلسطين وكانت آراء معظم الضباط مستمدة من ضابط مصري وطني حارب مع الأتراك، هو محمود لبيب، وكان يراها قضية دينية يهود ومسلمين ولكن بعد قراءة ومناقشة كتاب أمين سعيد وضحت لنا كقضية قومية ضد الإستعمار البريطاني وازداد حماسنا لها. . وكان بداية تطوع كثيرين منا للإشتراك فيها».

وعلى كل ليس هناك تناقض بين أن يكون الإنسان وطنياً مصرياً وقومياً عربياً في نفس الوقت والوطنية المصرية رافداً من روافد المجرى القومي الكبير ويمكن أن يكون العربي مصرياً أو جزائرياً أو مغربياً أو عراقياً يحب قطره ولكن في إطار أمته الكبيرة. وهذه هي الوحدة في إطار التنوع، والفرعونية التي يتهم بها المصريون كثيراً أو ينسبونهم إليها كانت ظاهرة طارئة. . كانت مبالغة في تأكيد الذات المصرية وأن مصر شعب له وجود وله تاريخ واستمرار. . ويرجع إلى آلاف السنين وكان هذا رداً على كرومر والمدرسة البريطانية التي كانت تقول أن مصر حقيقة جغرافية وأن ليس هناك شعب في مصر وكان كرومر يؤكد دائماً بازدراء أن المصريين خليط متنافر متناقض من كل الشعوب والأديان والأقليات ولا يمكن أن يصبحوا شعباً.

وحينما اكتشفت الآثار الفرعونية التي بهرت العالم في العشرينات اتخذها المصريون حجة لدحض المقولات الإستعمارية وإثبات نسبهم إلى ذلك التاريخ المجيد. ولا بد أن كان هناك من أراد استغلال التراث الفرعوني ضد العروبة وفي ذلك الوقت كانت القضية الفلسطينية قد بدأت تثور وبدأت أصداؤها تتجاوب في مصر وبدأ الوفد يتحرك لإتخاذ موقف منها.

«والفرعونية» على أي حال ليست نقيضاً للعروبة لأن العرب لا شك ورثة شرعيون لكل الحضارات القديمة والوسيطة التي ازدهرت في وطنهم والحضارات الفرعونية والأشورية والبابلية هي تراث ثمين يملكه العرب المعاصرون وعليهم إعادة إكتشافه.

ولهذا لم يعلن عبد الناصر نفسه عربياً إلا لأن تراثاً عريقاً كان يكمن في أعماقه. . توارثته أجيال من قبله. . وربما يكون ما فعله هو إعادة إكتشافه والإضافة إليه. .

وقد قرأ عبد الناصر الخريطة «الجيوبوليتيكية» للعالم العربي، واكتشف كيف يكون موقع العرب الإستراتيجي والحضارة وسيلة لخلاصهم بعد أن ظل عدة قرون مبرراً لإستعبادهم.

وقد كان عبد الناصر لا شك وطنياً مصرياً. . ولكن وطنيته لم تكن تعني مصر أولاً وأخيراً أو مصر فوق الجميع، ولكن أن يبدأ الألف ميل بتحرير مصر وبتحرير القوة الذاتية لمصر. . وأن نتحرر ونتعلم ونتصنع ونتسلح. . ولهذا تصبح طليعة لتحرر العالم والأمة الكبرى التي تنتمي

إليها وهي الأمة العربية. . لم يكن ذلك حماية لمصر أو خلق سوق لصناعة مصر أو مجال حيوي لسيادة مصر ولكن لأن الحرية العربية لا تتجزأ ولأن الرخاء لا يتجزأ. . لم يكن عبد الناصر يريد أن يحمي مصر بإقامة حزام أمن عربي حولها ولكنه كان يرى أن الأمن الجماعي وهو يكمن في تحرير الإرادة الجماعية وانطلاق القوة «الجماعية» للعرب. . وأن أمن أي بلد عربي هو في أمن كل بلد عربي آخر ولن يتحقق أمن العرب إلا إذا أصبحوا قوة متناسقة متكاملة. . موحدة. . . في مواجهة عالم أصبحت تحكمه القوى العظمى والأعظم.

ولم يكن عبد الناصر يريد أن يفتح سوقاً عربياً للصناعة المصرية ولكن تصفية الحواجز التي قامت بين اقتصاد متكامل تكاملاً نموذجياً، ويحمل كل مقومات وإمكانيات تحقيق الوفرة والرخاء العام للجميع. . أن لا يسخر العالم العربي لخدمة المستغل المستثمر الأجنبي والمحلي بينما تتضور الجماهير العربية وتعيش وتموت محرومة. . لا يمكن أن يسخر بترول العرب لبناء مجد أوروبا أو مجد اليابان أو لزيادة ثراء أمريكا بينما يكتب على العرب التخلف والفقر الدائم.

ولم يكن لدى عبد الناصر صيغة مقررة للوحدة يريد أن يفرضها، وكان يؤمن أكثر من أي أحد آخر. . أن الوحدة معركة طويلة المدى. . وإنه لا بد من بحث ومن تجربة ولا بد من خطأ. . وذلك حتى يبدع العرب طريقهم الخاص والخلاق للوحدة. . وهو ليس نقلاً لأي طرق أخرى غربية أو شرقية. . بل تفيد منها ويضيف إليها. ولكن لا بد للعرب في النهاية من أن يحققوا هذه الوحدة لأن ليس لهم مصير آخر.

ولكن مهما كان الطريق إلا أن الوحدة الحقيقية والتي يمكن أن تبقى هي الوحدة التي تعبر عن إرادة شعبية جماهيرية حقيقية عن اختيار واع للشعب الحقيقي«وحلف طبقاته العامة» أي الفلاحين والعمال والمثقفين والرأسماليين الوطنيين. . هؤلاء أصحاب المصلحة الحقيقية في الأمن والرخاء وقد قامت التجزئة على أكتاف الفئات والطبقات القبلية والإقطاعية والرأسمالية الكبيرة، وهم الذين يتشبثون بها. . ولهذا لا يمكن أن تقوم الوحدة إلا لصالح «الأمة» الأخرى والعرب أمتان على حد قول دزرائيلي. .

لم تكن الوحدة بالنسبة لعبد الناصر هي مجرد تجميع العرب. . ولكنها كانت «وحدة الهدف لا وحدة الصف» ولهذا فإنها لم تكن تتحقق بمجرد الإستقلال أو جلاء الإحتلال ورفع العلم، ولكن بالتحرر الحقيقي لإرادة الأغلبية. . وذلك بتصفية الإستغلال والطبقات والفئات المستغلة. إن الطريق إلى الوحدة يبدأ بالحرية فالإشتراكية فالوحدة. . وهو لم يقل هذا سراً أو في غرف مغلقة ولكن في كل أحاديثه وخطبه عن الوحدة وفي وثيقة من أهم وثائق الثورة وهي مباحثات الوحدة الثلاثية سنة ١٩٦٣. . ولم يكن عبد الناصر يقول شيئاً ويفعل شيئاً آخر «لكنه كان يرى أن هناك أشكالاً مختلفة من التعايش بين النظم العربية. لا بد أن تفرضها ضرورات العمل المشترك. . ويمكن أن تكون مقدمات أو خطوات أو أن تستخلص منها العبر والدروس. ولكن الوحدة العربية الحقيقية هي الوحدة التي تتم بين جماهير الأمة العربية التي تملك إرادتها كاملة

والتي لا تناقض قط أو تعارض بين مبادئها ومصالحها والتي ليس لها مصير أفضل من الوحدة. وقد وقع عبد الناصر في أخطاء كبيرة وصغيرة وليس هناك زعيم أو قائد معصوم ولكن لا أحد ينكر كثيراً أن عبد الناصر كانت لديه الشجاعة أكثر من أي زعيم آخر في أن يعترف بأخطائه وأن يتعلم منها.. وهو قد اعترف بأخطائه بعد الإنفصال وقام بإعادة بناء النظام كله، وقد كان اعترافه «دراميا» مسهباً بعد النكسة عام ٦٧، وأكد على ضرورة «الثورة على الثورة» وحينما خرجت مظاهرات الطلبة سنة ١٩٦٨ تحتج على بطء التغيير، لم يقمعها ولكن بررها واستجاب إليها..

وحساب عبد الناصر عن القضية العربية والوحدة العربية ينبغي أن لا يكون حساباً جزئياً عن هذا الخطأ أو ذاك ولكن حساباً ختامياً شاملاً، عن القضية العربية قبل ثورة ١٩٥٢ والقضية العربية سنة ١٩٧٠.. وهو حساب لا بد أن يكون إيجابياً.. إن لم يكن مجيداً.

وقد قاد عبد الناصر «الثورة» في عصر جديد معقد متلاطم يختلف تماماً عن أي عالم سواه.. وهو عصر الدول الأعظم والكتل الإيديولوجية السياسية الإستراتيجية، والصراع «الكوني» بينهما، وعصر الذرة والثورة التكنولوجية وعصر ثورة المستعمرات في القارات الثلاث المستعمرة.

وحمل عبد الناصر التبعة وقام بالمهمة وأثبتت أهليته وجدارته.. واستجاب له العرب حتى آخر مواطن وخرج للعرب زعيم وبطل قومي يمثل عبقريتهم وفضائلهم ولم يكن هناك حدث من الأحداث لا يبدأ من القاهرة ويحسمه عبد الناصر.

وكانت التغيرات التي حدثت في خريطة العالم العربي، وفي الواقع العربي، هي أكبر وأعمق التغيرات التي تمت في تاريخه الحديث كله.. بل لقد غير العرب كل موازين القوى الدولية القائمة. إنتهت الأمبراطورية البريطانية في السويس، وانتهت الأمبراطورية الفرنسية في الجزائر ولم تستطع أميركا أن تملأ الفراغ الذي كانت تحلم بملئه.

قامت القوة العربية، ووضع العرب أقدامهم وثبتوها على مسرح التاريخ «الحديث» وأصبحت الوطنية المصرية هي «العلاقة مع بريطانيا علاقة الند للند وليست علاقة السيد والعبد ولم تعد القومية العربية هي دولة عربية في إطار الغرب، ولكن تجاوزت ذلك إلى نسق أعلى وأقوى.. الإستقلال الكامل لقوة عربية ذاتية خارج إطار ونطاق كل الدول والكتل الأجنبية.

والتحمت الثورة العربية بالثورة الكبرى ضد الإستعمار في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ليقوم العالم الثالث غير المنحاز وليكون عبد الناصر أبرز ثلاثة قادة لهذا العالم، وقد كانت «الثورة العربية» هي الجسر الذي يصل بين الثورة في آسيا وأفريقيا.

أصبحت القوة «العربية» جزءاً من عالم عريض وقوة ثالثة في العالم تستطيع أن تواجه القوتين

الأخرين أو أن تحالفهما من مركز قوة جماعي ولا يحتكران تقرير مصير العالم.

أصبح العرب طرفاً في صنع تاريخ العصر ولم يعد التاريخ يصنع بمعزل عنهم أو على حسابهم. وإزاء هذا السجل يمكن أن تعد أخطاء عبد الناصر تفاصيل ولكن لا بد من مواجهة أهم هذه الأخطاء والإجابة عن الأسئلة التي أثارها المستر ستيفنز.

* أدت حرب سنة ١٩٦٧ إلى نتيجة هامة كانت نقطة تحول «ونعمة» تمناها الجميع وهي سقوط «البورجوازية العسكرية» المصرية، وكان سقوطها مخزياً خلال الحرب وخلال محاكمات أقطابها، وكانت هذه هي الطبقة التي شوهت وجه الثورة، والتي هيمنت على الجيش وعلى الإرادة والتي وقفت عقبة أمام قيام أي تنظيم سياسي... وكانت نهايتها تحريراً لعبد الناصر من قوة مضادة كانت أقوى وأخطر بكثير مما تصور أحد...

لم ينكمش عبد الناصر أو ينحسر داخلياً أو عربياً أو دولياً، وهو في الداخل عدل ولكنه لم يعدل قط عن استمرار التطور الإشتراكي وصدر قانون إصلاح زراعي جديد، وصدر قانون تأميم تجارة الجملة، ومشروع قانون لتأميم المقاولات... وبدأت المرحلة الثانية من السد العالي وبدأت كهربة الريف من محطات السد العالي، وبدأت إقامة خمس قواعد رئيسية للصناعة الثقيلة أشهرها صناعة الألمنيوم.

وعربياً لم يتراجع عبد الناصر، ولم يتنازل للقوى التقليدية أو المحافظة، وهو تعايش مع كل القوى.. وكانت الضرورات تقضي بتأجيل الخلافات والصراعات الثانوية والجانبية ولكنه لم ينحن أو ينزو أو يهادن.

وقد فاض المد الثوري العربي بعد حرب ١٩٦٧ وأثبتت الأمة العربية حيويتها وخصوبتها التي لا تنضب والتي لا يمكن أن يتنبأ بها الأعداء.

وقد تفجرت الثورة الفلسطينية وتحول اللاجئون إلى مقاتلين وتسلموا مسؤولية قضيتهم مباشرة مع العدو، وتعمدت الثورة الفلسطينية في معركة صدت الإنهيار وردت الإعتبار وهي معركة «الكرامة» ودخلت قوة جديدة حاسمة إلى ساحة الصراع.

وقامت الثورة في السودان، وكان منذ الإستقلال الذي باركته مصر ميداناً لصراع إستعماري حاد يريد أن يقيم منه قاعدة لصد وحصار عبد الناصر، وسد الطريق إلى أفريقيا.. «واحتواء» الصلات بين الثورة العربية والأفريقية وانضم النظام السوداني الجديد إلى المعركة وانحاز تماماً إلى عبد الناصر.

ووقع الحدث الكبير، وقامت ثورة لم تخطر ببال أحد في ليبيا، وسقطت المنطقة الحرام، وحائط الفصل والعزل السميك بين عبد الناصر وشمال أفريقيا والذي هيء بكل الضمانات ليقوم بمهمته.

أعاد عبد الناصر بناء القوات المسلحة.. واتخذ القرار الذي كسب الحرب وهو تجنيد المثقفين وخريجي الجامعات وذلك ليقوم جيش مقاتل مثقف يدرك القضية التي يحارب من أجلها، ويستطيع ممارسة الحرب الحديثة بأسلحتها وأساليبها.. وقد تدرب هذا الجيش وتعلم خلال حرب الإستنزاف التي بدأت منذ سنة ١٩٦٨ وانتهت بأسبوع «الطيران» الحزين كما سمته غولدا مائير. وتهاوت أسطورة التفوق الإسرائيلي المطلق والسيادة الكاملة على سماء الشرق الأوسط. وكان هذا الجيش هو الذي كسب حرب ١٩٧٣ وهو «مفاجأة تلك الحرب» كما قال الجنرال الإسرائيلي أليعازر.

وحينما قبل عبد الناصر هدنة روجرز قبلها من مركز قوة وليس من مركز ضعف أو يأس. وهو قد فعل ذلك لكي يستطيع أن يبني حائط الصواريخ الذي اعتمدت عليه الحرب ولكي يعطي القوات المسلحة المصرية هدنة بسيطة قبل بدء المعركة الكبيرة.. والتي كان مقرراً أن تبدأ بمجرد نهاية الهدنة.

عبد الناصر والإشتراكية:

هل أفلست وسقطت إشتراكيته.. العربية؟ وهل تعثرت وتخبطت؟ وهل نجحت نجاحاً محدوداً لم يحل المشاكل الأساسية ولم يخفف سوى القليل من وطأة الإنفجار السكاني والبطالة المقنعة والمباشرة وانحطاط مستوى المعيشة عامة وتفاقم الفقر باضطراد؟

حينما قامت الثورة بتمصير رؤوس الأموال والشركات البريطانية والفرنسية بعد حرب السويس طالب الرأسماليون بأن تنتقل لهم ملكية هذه الأموال والمؤسسات لأنهم الأحق بها والأقدر على إدارتها..

ورأت الثورة المشاركة في هذه الأموال، وأن يقوم اقتصاد مختلط يبني قطاعاً حكومياً ليتولى المشاريع الطويلة المدى ويتولى القطاع الخاص المشاريع الأخرى المناسبة وأنشأت الدولة مؤسسات إقتصادية «حكومية» «رأسمالية دولة» ووضعت خطة تنمية توزعت مشاريعها واستثماراتها بين القطاعين. رفض الرأسماليون هذه السياسة والخطة والمؤسسة واعتبروها «انحرافاً» خطيراً وقرروا الإمتناع والإضراب عن الإستثمار..

تأكدت الثورة أن الرأسماليين المصريين لا يدركون حقائق العصر، ولا يتحملون مسؤوليات «الرأسمالي» الوطنية والإجتماعية في الدولة النامية والمتقدمة، وتولدت وقررت أن تتولى النصيب الأكبر في تنفيذ الخطة.

وقررت لهذا تأميم بنكين رئيسيين لتستطيع التمويل وهما «بنك مصر» بنك الشعب ثم البنك «الأهلي» ومعقل الرأسمالية الأجنبية الأول.

كانت هذه نقطة اللاعودة وأعلن الرأسماليون الحرب ورد عبد الناصر إننا سنحقق الخطة

بقروش وملاليم الشعب، وإننا سنبنيها بأظافرنا. . وكان من أشد الناس تنديداً بفشل الرأسمالية المصرية وإفلاسها وعجزها وبقصور نظرها الرئيس «محمد أنور السادات».

وأعلنت الإشتراكية. . وصدرت قوانين يوليو سنة ١٩٦١ وبدأ عصر جديد: الإنتقال إلى الإشتراكية وأطلق «الحدث» التاريخي، حماساً شعبياً انعكس على تنفيذ الخطة. . وكانت هذه نتائجه. تحققت الخطة الخمسية الأولى بنتائج ومعدلات قياسية، رغم التحديات العنيفة وغير المتكافئة التي واجهتها.

استطاعت الخطة الإشتراكية أن تحقق في أربع سنوات ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ إضعاف ما حققته مصر في تسع سنوات من التنمية الرأسمالية بل ما لا يمكن مقارنته وأثبتت بذلك صحة المنهج الإشتراكي في التنمية.

وأمكن بناء السد العالي أهم المشروعات وأكبرها والذي يعتمد عليه كل المستقبل وأصبح لدى مصر مقومات التنمية الرئيسية وهي الماء للزراعة والكهرباء للصناعة.

واعتماداً على مياه السد العالي استطاعت مصر أن تستصلح مليون فدان وهي أكبر مساحة استصلحتها خلال تاريخها الحديث كله، وأن تضاعف زراعة سبعمائة ألف فدان أخرى. .

وبدأ تحول الزراعة الصغيرة المتناثرة إلى الزراعة التعاونية العصرية والكبيرة. . ونحو الزراعة الإشتراكية. . واعتماداً على كهرباء السد العالي أمكن إقامة قاعدة متكاملة ومتوازنة من الصناعة الثقيلة والمتوسطة والإستهلاكية ومن الصناعات الحربية، وامتدت من أسوان إلى الإسكندرية وتوزعت في كل المحافظات وأبعدها.

وكسرت مصر الحصار الذي كان يثير أشد المرارة وتداركت كما قال عبد الناصر تخلفها عن الثورة الصناعية الأولى ولحقت بالثورة التكنولوجية المعاصرة. وتحقق التصنيع تحت شعار «الإنسان سيد الآلة» والصناعة في خدمة الإنسان، لم تعد المصانع تقام لحساب الرأسماليين، ولكن لبناء قوة مصر ورخائها.وفي هذا الإطار كان طبيعياً أن تنمو الطبقة العاملة المصرية وتصبح طبقة حاسمة في الإقتصاد والسياسة، وقد كفلت لها التشريعات النقابية حقوقها في العمل. . وكفلت لها التشريعات الدستورية ٥٠٪ على الأقل من السلطة السياسية والصناعية ونشأت طبقة تجمع بين الكفاءة المهنية والوعي النقابي والسياسي. واختفت لأول مرة البطالة المباشرة بين العمال.

وقد استطاعت الثورة. . وكانت حريصة تماماً على هذا، أن تكسب الطبقة الوسطى إلى التجربة الإشتراكية وأن تثبت لهم عقم التطلعات الطبقية الرأسمالية واستجابت الأغلبية وكان منهم المديرون والفنيون

والخبراء والعلماء ممن استوعبتهم المشاريع العديدة. ووفرت فرصة ممارسة مواهبهم وخبراتهم المشلولة والمبددة.. ووحد هؤلاء أنفسهم في بناء مصر الإشتراكية.

وتجنبت التجربة الإشتراكية المصرية التزمت أو التعنت إزاء الرأسمالية وتمسكت الثورة بالإقتصاد المختلط وأن يبقى القطاع الخاص وأن يجد مجالاً واسعاً لنشاطه إذا أراد، وأن تتحد الحدود بين القطاعين وأن يقوم التكامل في إطار ولاية القطاع الإشتراكي وقد ازدهر قطاع كبير من الرأسمالية الوطنية المتوسطة والصغيرة ومن الحرفيين أفاد من الإستقرار والتوسع الإقتصادي وتفتح على الأسواق الجديدة، التي تفتح عليها الإقتصاد في المعسكر الإشتراكي أو في العالم الثالث أو في الغرب أيضاً.

عبد الناصر والصراع الدولي:

هل كان عبد الناصر غير منحاز حقيقة؟ وهل استفز الولايات المتحدة الأميركية وبادأها العداء؟.. وهل تطرف في هذا العداء إلى حد لا تستطيع به قوته؟ وهل ذهب لأبعد مما ينبغي في علاقاته مع الإتحاد السوفياتي وفي الإعتماد عليه وتجاوز حدود عدم الإنحياز والموازين الدولية.. وفي النهاية هل بالغ في دور مصر على المسرح الدولي.. وأثقلها بالتزامات تفوق كثيراً قدراتها.. وتؤدي بها إلى مزالق خطرة.

ضد الأحلاف والإحتواء

بدأت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وطنية غير منحازة للشرق والغرب. وموضوعية تريد اكتشاف العالم الخارجي الذي تواجهه وكانت الولايات المتحدة قوته «الأعظم».

تصرف الأميركيون في القاهرة بعد الثورة، وكأنهم أصحاب «الحدث» وتدفقت على مجلس الثورة المذكرات، وتوافدت مواكب من الخبراء.. من كل الأجهزة والإدارات لترسم الخطط والسياسات وكشفت الوثائق والأوراق فيما بعد أن الولايات المتحدة كانت تعد لإنقلاب عسكري في مصر، ويقول رجل المخابرات المركزية الأميركية(مايلز كوبلاند) أن المستر دين اتشيسون وزير الخارجية الأميركية في حكومة ترومان دعا إلى مؤتمر كبير، أكبر مؤتمر عقد لبحث سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وقد مثلت فيه كل الأجهزة والوزارات وكل الدوائر العلمية المختصة بالمنطقة وقد انتهوا بالإجماع إلى أن نجاح أي سياسة أمريكية في الشرق الأوسط يعتمد على مدى وجود الولايات المتحدة في القاهرة لأن مصر هي مفتاح المنطقة.

وعهد إلى كيم روزفلت المسؤول عن المنطقة في المخابرات الأميركية أن يعد لانقلاب عسكري في مصر بزعامة «الملك فاروق» وكان صديقاً حميماً له، كما كان صديقاً حميماً لشاه إيران.. وقد قام بانقلاب «الزعيم» في سوريا.. وبدأ عصر الإنقلابات العسكرية على طريقة أميركا اللاتينية.. واكتشف «كيم» بعد قليل أن الملك فاروق لا يصلح ووافقه على ذلك السفير

الأمريكي جيفرسون كافري. . وكان أبرع سفراء الولايات المتحدة، وفي سجله أكثر من ثلاثين انقلاباً عسكرياً في أمريكا اللاتينية، ولكن قمة مجده كانت في فرنسا. . حيث استطاع بعد الحرب العالمية الثانية أن يصفي اليسار بل وأن يصفي ديغول، وأن يحول فرنسا إلى قاعدة وعاصمة حلف الأطلنطي. . وقد نقل إلى القاهرة لنفس المهمة، وهي أن يدخل بها إلى العصر الأمريكي. . وإلى عاصمة وقاعدة لحلف جديد يضم منطقة الشرق الأوسط.

وقد انهمكا معاً في البحث والتنقيب كما يقول كوبلاند حتى فاجأتهم ذات يوم ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، وقرأ النبأ في الصحف تماماً كما قرأناه نحن في واشنطن مع كل الأجهزة والإدارات الأخرى.

ولا شك كان الحرج شديداً بالنسبة لكيم روزفلت وبالنسبة لجيفرسون كافري. . ولهذا سارعوا جميعاً إلى انتحال ثورة يوليو ومحاولة استيعابها بعد أن فشلوا في اكتشافها أو التنبؤ بها.

ورفع السفير الأمريكي الكلفة، وأطلق على قادة الثورة لقب الأولاد وعين نفسه وصياً أبوياً. . وبدأ يلوح بقدرة الولايات المتحدة على تحقيق الحكم الوطني المصري والضغط على بريطانيا «المفلسة» حتى ترحل، وتملأ الولايات المتحدة «الفراغ» ويبدأ العصر «الذهبي» في مصر.

وفي سنة ١٩٥٣ وبعد أشهر فقط من قيام الثورة. احتاج الأمر إلى دبلوماسية وزير الخارجية الأمريكي نفسه، لكي يمكن ضم مصر إلى فلك الولايات المتحدة الأمريكية وكان الجمهوريون قد تولوا الحكم بزعامة إيزنهاور ودالاس. وأعلنا أن عصراً جديداً سوف يبدأ في السياسة والدبلوماسية الأمريكية.

وقال المستر جون فوستر دالاس أنه يذهب إلى الشرق الأوسط ليرى «ماذا يفعل الأولاد هناك» وبالطبع ليسدد خطاهم.

وكانت أول مرة يزور فيها وزير خارجية أمريكي القاهرة وتطلع الجميع إلى النتائج ولكن كانت الهدية التي جاء بها إلى «الأولاد» في أول زيارة تاريخية هي طلب الإنضمام إلى حلف جديد شامل. يضم الشرق الأوسط كله، وتكون مصر قاعدته وقيادته. . وتكون طليعته في حماية المنطقة من خطر داهم وهو الشيوعية والإتحاد السوفياتي.

وكانت فكرة الحلف قديمة، وسبق أن تقدمت بها الدول الغربية إلى حكومة الوفد سنة ١٩٥١، وتم ذلك في مظاهرة دبلوماسية استفزازية وصاخبة وتوالى سفراء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وتركيا. . على وزارة الخارجية المصرية، يحمل كل منهم نفس الطلب والإنذار، بأن تنضم مصر إلى أحلاف الدفاع عن العالم الحر، وألا تتحمل النتائج. . .

وقد رفضت حكومة الوفد الطلبات الأربعة وأعلنت أن مصر يجب أن تستقل لكي تقرر سياستها الخارجية ولم تكن الثورة أقل وطنية.

واعتذر عبد الناصر في أدب شديد إلى المستر دالاس، وشرح له أن قضية مصر الأولى والأخيرة والتي قامت بسببها الثورة وكل الثورات والإنتفاضات هي الإستقلال وأن العدو الذي يجمع عليه المصريون لا يرون عدواً سواه هو الإحتلال الجاثم منذ سبعين عاماً، ولا يمكن أن يقبل المصريون أن يبقى وأن يتحول فجأة إلى حليف وأن تنضم إليه قوات أجنبية أخرى ليقوم حلف عسكري غربي في مصر.

وشرح عبد الناصر بنفس الأدب للمستر دالاس، أن الولايات المتحدة التي تدافع عن الحرية ضد الشيوعية، يجب أن تقنع أقرب حليفة لها بالإعتراف بحقوق شعب مصر وأن ترد لها حريتها لتقرر سياساتها في الداخل والخارج، وشرح له أيضاً أن أفضل وسيلة لحماية مصر السلاح والمصانع.. وأن تبني مصر مجتماً يستحق الدفاع عنه، والدفاع الصحيح ينبع من القوة الذاتية ويعتمد على الداخل واستمع المستر دالاس ولم يعلق، ولم يقتنع ولكن خاب أمله في «الأولاد» وخاصة زعيمهم وهو قد جاء ليحقق مشروع «اتشيسون» ويضيف إليه ولهذا لا بد أن يراجع خططه ومشاريعه ويضع «استراتيجية» جديدة.. وإذا كانت القاهرة لم تقبل ولم تنصع للنصيحة فلا بد من الإلتفاف حولها والضغط عليها، ونقل المستر دالاس عاصمة مشاريعه من القاهرة إلى بغداد، وبدلاً من مهمة واحدة هي حصار الإتحاد السوفياتي لتحريره، أضيفت أخرى لا تقل أهمية، وهي احتواء الخطر «القائم» في مصر... حتى تصفيته...

واستفزت سياسات دالاس واستراتيجياته العالم شرقاً وغرباً وكانت أشد الدول قلقاً هي الدول الأسيويةوالأفريقية التي تحررت بعد الحرب. وقد أثارها «جنون الأحلاف» الذي سيطر على دالاس، حلف بغداد في الشرق الأوسط. وحلف مانيلا في شرق آسيا، وإقامة أحزمة من الأحلاف لتحرير الشعوب الأسيرة في أوروبا وطوي الشيوعية في الإتحاد السوفياتي والصين كالبساط.

ودعت الدول الأسيوية المتحررة إلى عقد مؤتمر باندونغ واستجاب عبد الناصر للدعوة وذهب، ولم يكن ممكناً أن تغيب مصر «الثورة» عن هذا الإجتماع وكان نقطة تحول في التاريخ الحديث، وفي موازين العصر.

اعتبر المستر دالاس رفض عبد الناصر لحلف بغداد وذهابه إلى باندونغ تحدياً واستفزازاً له، وهو قد أعلن «أن الحياد سياسة غير أخلاقية وأن ليس هناك حياد بين الشر والخير، وكان من نتائج مؤتمر باندونغ أن اعترفت مصر بالصين الشعبية، وكانت أكثر الدول الأسيوية اعترفت بها، ومن بينها باكستان، أخلص حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية وقاعدة كل أحلافها ولكن إعتراف مصر كان «لطمة» لا تغتفر، وقرر بعدها المستر دالاس ـ كما كشفت الوثائق والسجلات

ـ أن عبد الناصر يجب أن يذهب، ووافقه المستر إيدن ـ قبل حرب السويس ـ وبدأ تعاون بين المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية لإعداد «انقلاب» مشترك.

وبدأ الإستعداد بضربة مدوية.. وهي سحب تمويل مشروع السد العالي. وفي مظاهرة دبلوماسية خرقت كل عرف بين الدول.. صدر بيان أمريكي يشكك في قدرة النظام في مصر ويدعو المصريين إلى التخلص منه حتى ينعموا بمساعدة أمريكا.

ولم تكن «الأخلاق» هي التي تحرك المستر دالاس وتدفعه إلى التنديد باندونغ، ولكن العالم الثالث في آسيا وأفريقيا هو أهم المناجم والمزارع والآبار وهو أهم المواقع والقواعد، وهو الذي قامت عليه السيادة الأوروبية «خمسة قرون» وهو محور كل التطلعات الإقتصادية والإستراتيجية الأمريكية، ويجب أن ترثه كاملاً...

وقد أعلن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٨٩٨، أن القرن العشرين يجب أن يكون القرن الأمريكي كما كان القرن التاسع عشر هو «القرن الأوروبي» ولكن أقامت الأمبراطوريات الأوروبية سداً مانعاً أمامه... وأصبح كل ما تطلبه الولايات المتحدة هو «الباب المفتوح»... وظل الصراع حتى انتهت الحرب العالمية الثانية وجاء المستر دالاس ليحقق الحلم الأميركي ولأول مرة.

وكان انضمام «عبد الناصر» إلى جبهة باندونغ نقطة تحول بامتداد دعوة الحياد إلى الشرق الأوسط منطقة البترول.. وميدان الصراع الأول بين الكتلتين وعبورها إلى أفريقيا، مخزن المناجم والموارد «والحوش الخلفي» لأوروبا وحلف الأطلنطي...

وبانضمام عبد الناصر إلى «باندونغ» أصبح حصار الدعوة في آسيا، بين نهرو وسوكارنو، مستحيلاً وظهرت زعامة وقيادة جديدة «خطرة» في منطقة دقيقة حاسمة.

وكانت باندونغ أول خروج لعبد الناصر إلى العالم.. وقد فاجأ الجميع بشخصيته وأثار أكبر قدر من الإحترام والإعجاب.. والأمل.. وبايعوه زعيماً أسيوياً أفريقياً.

وقد تحدت مصر الأمبراطورية العثمانية وذهبت قواتها حتى اسطنبول.. تحقيقاً لإستقلال مصر. وتحدت الأمبراطورية البريطانية في ذروة قوتها في أواخر القرن التاسع عشر، وبعد انتصارها في الحرب العالمية الأولى.. وبعد الحرب العالمية الثانية وحتى سقطت نهائياً في حرب «السويس».

ولم يكن ممكناً أن تنحني مصر بكل تراثها وحضارتها وتاريخها للامبراطورية الأميركية الغازية.

عبد الناصر

والثورة الإفريقية

محمد فايق

وزير الإعلام ومستشار الرئيس عبد الناصر للشؤون الإفريقية

التقت الحركات الوطنية في العالم العربي مع الثورة المصرية وتجاوبت مع فكرها وحركتها في سرعة مذهلة، الأمر الذي دعم مصر في مواجهة تحديات الإستعمار. ولا شك أن ذلك كان من الأمور التي شجعت عبد الناصر ليعجل بمد نشاطه إلى أفريقيا والإتصال بحركات التحرير فيها.

إلا أن الوضع في أفريقيا كان مختلفاً كثيراً عن الوضع في الوطن العربي، فمجرد الإتصال بالحركات الوطنية في أفريقيا كان في البداية أمراً بالغ الصعوبة. كما أن المعلومات المتوفرة عن هذه الحركات كانت قليلة جداً، وقبضة الإستعمار القوية تقيم الحواجز بيننا وبين شعوب هذه المنطقة حتى أنه لم يكن يسمح بسهولة بإضافة القاهرة على جوازات السفر الأفريقية. كما كان أي مصري يجد صعوبة كبيرة في مجرد دخول هذه المستعمرات. ولذلك كان لا بد لنا من التحايل لدخول هذه الأقاليم لاستكمال الدراسات الميدانية والإتصال بالحركات الوطنية التي لم تكن بدورها تعلم الكثير عما يدور في مصر.

ومن أجل إقامة الإتصال مع الحركات الوطنية كنا نتصيد الزعماء المسلمين من أفريقيا عندما يذهبون للحج والقادة السياسيين عندما يذهبون إلى عواصم الدول الإستعمارية نفسها. واستفدنا بمعلومات الآلاف من الدارسين الأفارقة في الأزهر الذين ساعدونا كثيراً في الإتصال بالزعماء الوطنيين في بلادهم.

وسرعان ما تبدل الحال بعد أن توطدت علاقتنا بالعديد من الحركات الوطنية في أفريقيا وذاع صيت القاهرة كقاعدة للتحرير وخاصة بعد حرب السويس. وأصبح الأفارقة هم الذين يتحايلون للوصول إلى القاهرة والإتصال بها، رغم تشدد سلطات الإستعمار ومحاولتها وقف هذه الإتصالات أو تقييدها.

وقد قدمت ثورة يوليو نموذجاً جديداً للتحرير في أفريقيا، فلم تكن الحركة الوطنية في أفريقيا تعرف حتى ذلك الوقت طريقاً للإستقلال سوى طريق التطور الدستوري. وهو الطريق الذي أدى إلى استقلال الهند من قبل والذي تأثرت به الحركة الوطنية في أفريقيا، وخاصة في مناطق الإستعمار الإنجليزي حيث كان للهند صلات كبيرة من خلال الجاليات الهندية الموجودة في هذه المناطق، ولتأثر كثير من زعماء الحركة الوطنية بفلسفة المهاتما غاندي الذي بدأ حياته السياسية في جنوب أفريقيا.

وكان الجديد الذي جاءت به ثورة يوليو هو أسلوب استخدام القوة في الضغط على الإنجليز

لإجلاء قواتهم عن مصر وذلك بتنظيم المقاومة المسلحة ضد الوجود البريطاني في منطقة القنال.

واستطاع عبد الناصر أن يبهر الأفارقة ويجذب أنظارهم إلى القاهرة بعد النجاح الذي حققته هذه السياسة بجلاء القوات الإنجليزية عن هذا الموقع الإستراتيجي الهام وفشل العدوان الثلاثي الذي اعتبر بحق نقطة تحول أساسية في تاريخ نضال الشعوب بل أن الكثيرين يعتبرون ذلك هو النهاية الحقيقية للإستعمار التقليدي.

وكان خروج عبد الناصر من هذه المعركة منتصراً بعد أن أمم قناة السويس يعني الكثير بالنسبة للحركات الوطنية الإفريقية التي كانت ترى الشركات الأجنبية والإحتكارات الرأسمالية وهي تستولي على مقدرات وثروات بلادها.

وقد خرج عبد الناصر من معركة السويس أكثر تهيؤاً للقيام بدور جديد في أفريقيا. فقد فتح له هذا الإنتصارأبواب الإتصال بحركات التحرير الأفريقية التي رأت في عبد الناصر المثل والحليف القوي والعنيد. وأصبح الأفارقة هم الذين يتحايلون للوصول إلى القاهرة والإتصال بقادتها.

ثم بدأ عبد الناصر يدخل إلى قلب الحركة الإفريقية، وذلك من خلال مواقف عديدة. وتبني القضايا الإفريقية مستمراً في تحديه لقوى الإستعمار والإمبريالية فاستطاع أن يجمع حوله قوى الثورة في أفريقيا.

وسنعرض بعض هذه المواقف التي فتحت الطريق أمام جمال عبد الناصر وأمام مصر إلى قلب القارة الأفريقية.

بداية في السودان:

كان للسياسة التي اتبعتها الثورة المصرية حيال السودان أثرها الكبير في فتح مجال العمل الأفريقي أمام مصر، فقد قامت هذه السياسة على أساس إنهاء إحتلال السودان أولاً، والدعوة لوحدة وادي النيل، ولكن من خلال الإعتراف بحق الشعب السوداني في تقرير مصيره.

وقد استقل السودان في يناير سنة ١٩٥٦ بعد جلاء قوات الإحتلال وأصبح بذلك ثاني دولة إفريقية بعد مصر تحصل على استقلالها منذ القرن التاسع عشر وذلك بفضل اتفاقية ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ التي عقدتها مصر مع بريطانيا، بعد أن أصر جمال عبد الناصر على أن تبدأ المفاوضات بشأن مستقبل السودان قبل التفاوض على جلاء قوات الإحتلال عن أرض مصر.

وتم الإتفاق على فترة إنتقال مدتها ٣ سنوات يتم فيها تصفية الإدارة الثنائية وأن يكون للحاكم العام أثناء هذه الفترة السلطة الدستورية العليا تعاونه لجنة خماسية فيها عضوان سودانيان وعضو

باكستاني وآخر مصري علاوة على العضو الإنجليزي. وتقرّر تأليف جمعية تأسيسية منتخبة لتقرير مصير السودان على أساس أحد الإختيارين:

(أ) إرتباط السودان بمصر على أية صورة.

(ب) أو الإستقلال التام ـ أي الإنفصال عن مصر.

ورغم أن مصر عملت طوال سنوات فترة الإنتقال الثلاث على محاولة إقناع الشعب السوداني للإرتباط بمصر وتحقيق وحدة وادي النيل، إلا أنها لم تتردد في تأييد استقلال السودان ومباركته عندما أدركت أن هذه هي رغبة الأغلبية العظمى للشعب السوداني. فعندما أبلغت حكومة الأزهري في عام ١٩٥٥ حكومتي مصر وإنجلترا برغبة الجمعية التأسيسية في سحب جيش الإحتلال لإجراء الإستفتاء المنصوص عليه في جو حر محايد، سارعت مصر على الفور بسحب قواتها تاركة أسلحتها الثقيلة هدية لجيش السودان، واضطر الجيش الإنجليزي للرحيل هو الآخر منهياً بذلك إحتلاله للسودان.

وهكذا فإن مصر وإن كانت قد خرجت من السودان دون أن تحقق الوحدة التي كانت تنشدها إلا أنها كانت قد فتحت أمامها مجال العمل في أفريقيا كلها، بالتزامها وإخلاصها للمبادىء الأساسية التي قامت عليها سياستها الأفريقية بعد ذلك، وهي تصفية الإستعمار وحق تقرير المصير.

إلتزام مصر بمسؤوليتها الدولية في الصومال:

كان الصومال من أول البلاد التي اهتم بها عبد الناصر والتزمت مصر بمساعدة الحركة الوطنية بها. ولم يكن ذلك فقط من أجل موقع الصومال الإستراتيجي الهام في القرن الأفريقي وفي مواجهة ميناء عدن، ولا من أجل التكوين الأنثروبولوجي للشعب الصومالي الذي يعتبر ـ شأنه في ذلك شأن الشعب الموريتاني ـ همزة الوصل بين عرب أفريقيا وزنوجها، ولكن كان السبب الأساسي هو مسؤولية مصر الدولية في الصومال حيث كانت تشترك في عضوية المجلس الإستشاري التابع للأمم المتحدة في الصومال.

وتغير وضع مصر في الصومال بعد الثورة المصرية حيث قررت أن تتحمل مسؤولياتها الدولية كاملة مستفيدة من تواجد مندوبها في المجلس الإستشاري هناك فتبنت وجهة النظر الوطنية وتولت الدفاع عنها وقدمت المشورة السياسية والخبرة القانونية للأحزاب والحركات الوطنية هناك وساعدتها في مقاومة المناورات التي تهدف إلى تأخير تسليم السلطة للوطنيين، كما قامت بمقاومة الإدارة الإيطالية التي كانت تحاول طمس الملامح العربية للصومال.

أما القوة الإستعمارية الثانية فهي بريطانيا التي كانت في ذلك الوقت تستعمر جزءاً من

الأراضي الصومالية وهو ما عرف «بالصومال الإنجليزي» كما كان نفوذها متغلغلاً في الإقليم عن طريق بعض الشركات التي قامت عندما احتلت بريطانيا الصومال الإيطالي عام ١٩٤٢ عقب هزيمتها للإيطاليين أثناء الحرب العالمية الثانية إلى أن سلمت لهم الإدارة مرة أخرى عام ١٩٥٠ بناء على قرار الأمم المتحدة.

أما الخطر الثالث الذي واجهه الصومال فكان أثيوبيا التي كانت تسعى إلى ضم الإقليم إليها بصفتها «الوطن الأم» كما كانت تدعي ذلك بعد أن كانت قد نجحت في ضم جزء من الصومال هو إقليم الأوجادين. وكانت الولايات المتحدة الأميركية تقف وراء نشاط أثيوبيا وتدعمه.

ورغم تعارض أهداف هذه القوى الأجنبية الإستعمارية في الصومال، إلا أنها جميعها كانت متفقة على ضرورة القضاء على الملامح العربية الصومالية. كما كانت تتفق في حماسها لإيجاد علاقة إقتصادية بين الصومال وإسرائيل.

ووسط هذا الصراع العنيف لهذه القوى التي كانت تتآمر على مصالح الشعب الصومالي جاءت مصر بعد الثورة لتلعب دوراً تاريخياً في مساندة القوى الوطنية في الصومال في نضالها من أجل الإستقلال الحقيقي والإحتفاظ بمقومات الشخصية الصومالية بجذورها العربية الإفريقية الإسلامية.

وقد قدمت مصر مساعدات كثيرة للصومال في هذا المجال وذلك بإمداد المدارس العربية التي كانت تفتحها الجمعيات والأحزاب الوطنية بالمدرسين المصريين والكتب العربية. كما أعطت الكثير من المنح الدراسية في المدارس والمعاهد والجامعات المصرية لأبناء الصومال كما فتح الأزهر أبوابه لأعداد هائلة من الصوماليين وأرسل بعثة أزهرية إلى الصومال كان أعضاؤها يخطبون في الجوامع بجانب رسالتهم التعليمية وكان لهؤلاء أثر عظيم في تعبئة الشعور الوطني هناك وتوجيهه لمقاومة الإستعمار.

استمرت مساعدة مصر للقوى الوطنية في الصومال بعد أن تضاعف حجمها. كما استأنف المندوب المصري الجديد الدكتور محمد حسن الزيات نشاطه بنفس الحماس والإخلاص الذي بدأه سلفه كمال الدين صلاح والذي اغتيل بتحريض من الإحتلال البريطاني إلى أن استقل الصومال في الموعد الذي سبق أن حددته الأمم المتحدة وهو عام ١٩٦٠.

مصر تؤيد حركة الماوماو في كينيا:

كانت كينيا في مقدمة الأقطار التي استطاعت الثورة المصرية أن تتصل بالحركة الوطنية فيها وتؤيدها وتدعمها وتقيم أوثق الصلات مع زعمائها وعلى رأسهم جوموكينياتا.

فقد بدأت ثورة الماوماو بعد ثلاثة أشهر فقط من قيام الثورة المصرية عندما أعلن الإنجليز حالة الطوارىء في كينيا في أكتوبر سنة ١٩٥٢. وقامت حركة الماوماو بين قبائل الكيكويو والمساي

الذين طردهم المستعمر الإنجليزي من أرضهم ليعيشوا في أحياء قذرة على هامش المدن يعانون من البطالة والحرمان من أي حق في حياة كريمة.

وكان الإفريقيون المطرودون من هذه الأرض يذهبون للإقامة في مناطق خصصت للإفريقيين خارج هذه الأراضي أشبه بالمستودعات البشرية. وأصبح هؤلاء الذين لم يجدوا أماكن في هذه المناطق المزدحمة جداً، عبيداً في الأرض التي يمتلكها البيض، وأصبح هناك حوالي ربع مليون من هؤلاء العبيد، وكان يسمح لهم بزراعة ما يقتاتون به فقط مقابل تسخيرهم هم وعائلاتهم للعمل في أرض الملاك البيض.

وفي عام ١٩٥٠ قام زعماء إتحاد كينيا الأفريقي الذي كان يرأسه جوموكينياتا بحملة لجمع توقيع مليون شخص أفريقي لعرض قضيتهم على البرلمان الإنكليزي. ثم أرسلوا مندوبين إثنين عنهم يحملان هذه التوقيعات. ولكن لم يغير ذلك شيئاً من سياسة بريطانيا في جعل كينيا منطقة استيطان للرجل الأوروبي على غرار جنوب أفريقيا.

ومن أجل ذلك قامت حركة الماوماو وكانت أساساً من أجل الأرض. وقبض على جوموكينياتا ومعه عشرون آخرون في أكتوبر سنة ١٩٥٢، وقدموا إلى المحاكمة التي استمرت تسعين يوماً حكم عليه بعدها بالسجن سبع سنوات مع الأشغال الشاقة. وبعد شهرين من الحكم تم حل اتحاد كينيا الأفريقي بحجة أن تنظيم الماوماو استخدم هذا الإتحاد كغطاء لتنفيذ عمليات العنف والقتل التي قام بها ضد البيض.

واستغل الإنجليز هذه الأحداث وشنوا حملة إرهابية كان هدفها المضي في تحويل كينيا بالفعل إلى بلد الرجل الأبيض على غرار جنوب أفريقيا وتبني سياسة مماثلة.

عمليات القمع والإبادة:

قد وصل إجمالي الخسائر المعلنة في ٢٧ يناير ١٩٥٥ من واقع الإحصائيات الإنجليزية ٧٨٠٠ قتيل من أفراد الماوماو، ٧٩١ حكم عليهم بالإعدام ونفذ فيهم الحكم. وهذه الخسائر لا تشمل خسائر القصف بالطائرات والمدفعية. كما كان هناك ٧٠٠٠ أفريقي في معسكرات الإعتقال والسجون. وتم طرد ٦٠٠,٠٠٠ من أفراد الكيوكويو من أرضهم وتم تحطيم ١٥٠,٠٠٠ كوخ من أكواخهم.

كانت عمليات القمع والقتل والإبادة التي تقوم بها السلطات البريطانية ضد ثوار الماوماو تجسيداً لذلك الصراع الذي ذكره عبد الناصر في كتابه «فلسفة الثورة» والذي قال فيه: «إننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي الذي يدور في أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الإفريقيين».

وتبنت مصر قضية الوطنيين في كينيا، فقامت بحملة إعلامية ودبلوماسية مركزة ضد هذه

الأعمال الوحشية. وخصصت إذاعة موجهة باللغة السواحيلية باسم «صوت أفريقيا» إلى شعب كينيا وشعوب المنطقة الناطقة بهذه اللغة هاجمت فيها الإستعمار البريطاني بعنف شديد وحملته مسؤولية كل أعمال العنف والإبادة، وكشفت عن مخطط بريطانيا لجعل كينيا وطناً للرجل الأبيض. وقد بدأت هذه الإذاعة كإذاعة سرية في أول الأمر. وكان مقرها في إحدى الثكنات بمنشية البكري، وتتبع رئاسة الجمهورية مباشرة. ثم انتقلت بعد ذلك إلى الإذاعات الموجهة بالإذاعة المصرية ولكن تحت إشراف الشؤون الإفريقية برئاسة الجمهورية.

وجعلت مصر من قضية الماوماو وقضية الإفراج عن جوموكينياتا قضية أفريقيا كلها. وجعلت الإفراج عنه مطلباً على مستوى القارة الإفريقية كلها. وربما كانت هذه أول قضية أفريقية تأخذ هذا الطابع على مستوى القارة، وكان الفضل في ذلك لمصر.

لقد صادفت الإذاعة الموجهة باللغة السواحيلية إلى كينيا نجاحاً كبيراً وكان تأثيرها عظيماً في داخل كينيا.

وقد وجهت القاهرة بعد ذلك العديد من الإذاعات باللغات واللهجات الإفريقية على غرار الإذاعة السواحيلية. فكانت تذيع إلى غرب أفريقيا بلغات الهوسا واليوربا والبامبرا والولوف، وإلى وسط أفريقيا بلغات النيانجا والشونا والسنديبلي واللنجالا، وإلى جنوب أفريقيا بلغة الزولو وإلى شرق أفريقيا بالصومالية والسواحيلية والتجرينية وغيرها من لغات ولهجات أفريقية كثيرة علاوة على اللغات المستخدمة رسمياً في مناطق أفريقيا وهي الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية والإسبانية والعربية.

وقد استطاعت هذه الإذاعات بجانب مساهمتها الإيجابية في الثورة الأفريقية أن تنقل إلى مستمعيها في كل أنحاء القارة الأفريقية الإحساس بأن مصر هي بحق جزء من القارة الأفريقية إن لم تكن قد أصبحت بالفعل قلبها النابض وقاعدة التحرير فيها.

الثورة الجزائرية وتصفية الأمبراطورية الفرنسية:

لقد كان لوقوف الثورة المصرية بجانب ثورة الجزائر والمساعدة والتأييد الكامل الذي أعطاه عبد الناصر لهذه الثورة أثره الكبير في جذب حركات تحرير أفريقية جديدة إلى القاهرة بعد أن اتخذت الثورة الجزائرية من القاهرة قاعدة أساسية لكي تنطلق منها.

ومما لا شك فيه أن نجاح الثورة الجزائرية كان عاملاً أساسياً في تصفية الإستعمار الفرنسي من أفريقيا. فعندما قامت هذه الثورة عام ١٩٥٤ كانت الجزائر بنص الدستور الفرنسي جزءاً من الأراضي الفرنسية فيما وراء البحار وكان للجزائر أهمية خاصة لدى فرنسا أولاً لكثرة عدد الأوروبيين المستوطنين (حوالي مليون وربع) أصبح خمس أسداسهم من مواليد الجزائر نفسها لا يتصورون وطناً آخر لهم غيرها. وثانياً لقربها من فرنسا وثروتها الضخمة التي يمتلك معظمها

المستوطنون الأوروبيون، هذا بالإضافة إلى عامل خاص جعل فرنسا تستميت في محاولة الإحتفاظ بالجزائر كأرض فرنسية ألا وهو الطريقة المهينة التي خرج بها الجيش الفرنسي من الهند الصينية بعد هزيمة «ديان بيان فو» وحرص فرنسا على ألا تفقد هيبتها في أفريقيا كما فقدتها في آسيا.

وعندما تصاعدت المقاومة الجزائرية ووصل عدد القوات الفرنسية في الجزائر إلى ٤٠٠,٠٠٠ وهو أكبر عدد من القوات اشتركت به فرنسا في حرب استعمارية، ظهرت الأصوات المؤثرة داخل فرنسا نفسها تنادي بضرورة تطوير نظام الحكم في المستعمرات الفرنسية وتهيئتها للحكم الذاتي قبل أن تندلع فيها الثورة على غرار ما حدث في الجزائر.

وهكذا فقد لعبت الثورة الجزائرية دوراً خطيراً في تصفية الأمبراطورية الفرنسية والقضاء على فكرة امتداد الأراضي الفرنسية في أفريقيا وقد أدى ذلك إلى فتح أبواب الإتصال بيننا وبين حركات التحرير والتنظيمات الثورية في أفريقيا الفرنسية التي لجأ كثير من زعمائها إلى القاهرة للحصول على تأييد جمال عبد الناصر بعد أن عرف دور مصر في مساعدة الثورة الجزائرية ومن أمثال هؤلاء الدكتور فيلكس مومية زعيم حزب اتحاد شعب الكاميرون والزعيم الصومالي محمود حربي وجيبو بكاري زعيم سوابا Swaba في النيجر وغيرهم كثيرون من التنظيمات السياسية والزعماء الدينيين.

وهكذا أصبحت القاهرة نقطة الإلتقاء بين آسيا وأفريقيا ليس فقط بسبب موقعها الجغرافي ولكن أيضاً بفضل واقعها السياسي ونشاطها الواسع في المجالين الآسيوي والأفريقي.

المكاتب السياسية لحركات التحرير الأفريقية في القاهرة:

عندما اتسعت دائرة الإتصال بحركات التحرير والحركات الوطنية الأفريقية وامتلأت العاصمة المصرية بوفود وممثلي هذه الحركات شجعتهم القاهرة على فتح مكاتب سياسية دائمة على غرار المكاتب التي كانت قد فتحتها جبهة التحرير الجزائرية أثناء الثورة في القاهرة وفي أماكن أخرى بعد ذلك. وتكفلت الدولة بتكاليف الإنفاق على هذه المكاتب.

وكان الهدف من فتح هذه المكاتب هو جعلها حلقة الإتصال الدائمة والسريعة بيننا وبين حركات التحرير. كما تتلقى المساعدات المصرية في مختلف الميادين بما فيها المنح الدراسية واستجلاب الطلاب المؤهلين لها.

وكانت القاهرة بذلك هي أول عاصمة في العالم يتجمع فيها مثل هذا العدد من ممثلي حركات التحرير والحركات الوطنية التي جاءت من جميع أنحاء القارة ومن جميع مناطق الإستعمار في أفريقيا. وكان طبيعياً أن تقوم صلات وتبادل للآراء والخبرة بين هذه الحركات بعضها البعض الأمر الذي لم يكن موجوداً على هذا المستوى من قبل.

الرابطة الأفريقية:

أنشئت الرابطة الأفريقية في أواخر عام ١٩٥٥ على هيئة جمعية لها نشاط سياسي وثقافي يتلخص فيما يلي:

أولاً: تقديم كل التسهيلات الممكنة للمكاتب السياسية التابعة لحركات التحرير والحركات الوطنية الأفريقية من توفير المكان المناسب لهذه المكاتب إلى توفير الإتصال بأجهزة الدولة وتوفير وسائل الطباعة والنشر اللازمة لتقوم هذه المكاتب بمهمتها الإعلامية، كما تقوم الرابطة بتجهيز وإعداد اللازم لعقد المؤتمرات الصحفية باستقبال الوفود والمبعوثين الأفارقة التابعين لحركات التحرير في أي وقت وتقوم بترتيب اللازم لإقامتهم ومقابلة المسؤولين، وتوفر الرابطة الخبراء والمستشارين في مجالات السياسة والقانون لهذه المكاتب وتقدم لها الأبحاث اللازمة والمفيدة لقضايا بلادها وذلك في حالة طلبها. وتخصص المكان المناسب لإقامة الندوات والإجتماعات الخاصة بها.

ثانياً: وكان الهدف الثاني هو نشر الوعي الإفريقي بين المصريين وخلق المجال المناسب ليتعارف المثقفون المصريون والأفارقة من أعضاء المكاتب السياسية ومن الشباب الإفريقي وتثقيفهم سياسياً في هذا المناخ الثوري.

وكانت الرابطة تقيم الندوات الثقافية وتدعو إليها الشباب من الإفريقيين ومن المصريين وقد جذبت الرابطة عدداً من أساتذة الجامعة من المهتمين بالشؤون الإفريقية وبعض شباب الجامعات من المصريين الذين تحمسوا للنشاط الإفريقي وكرسوا له الكثير من وقتهم وجهدهم.

المساعدات المصرية لحركات التحرير:

في مجال المساعدات العسكرية كانت مصر أول دولة في العالم تفتح أبوابها لتدريب حركات التحرير الإفريقية عسكرياً. حدث ذلك بالنسبة لحركات التحرير من روديسيا وأنجولا وموزمبيق وجنوب أفريقيا، وهي المناطق التي كان الإستعمار فيها يرفض التطور الدستوري وأصبح من المسلم به أن أي تطور لصالح الوطنيين لن يكون إلا باستخدام القوة. وكان التدريب يتم في مدرسة الصاعقة التابعة للقوات المسلحة وهو نفس التدريب والأسلوب الذي سبق اتباعه مع مجموعات الفدائيين الجزائريين في بداية الثورة الجزائرية.

أما من ناحية السلاح فقد كان مكتب الشؤون الإفريقية برئاسة الجمهورية قد تسلم مخازن السلاح الذي كان يستخدم ضد القاعدة البريطانية وذلك بمجرد توقيع اتفاقية الجلاء. وبعد تسليح الجيش المصري بأسلحة روسية أصبح لدينا فائض كبير من الأسلحة الإنجليزية القديمة كانت مناسبة لتسليح حركات التحرير حتى لا يعرف مصدرها وهي في أيدي الإفريقيين،

وكانت مصر بذلك هي أول دولة أيضاً توفر السلاح لحركات التحرير الأفريقية وتتولى نقله بطرق مختلفة.

ولم تقتصر المساعدات المصرية لحركات التحرير على النواحي العسكرية فقط بل تعدتها إلى مجالات كثيرة أخرى، ففي مجال العمل الدبلوماسي تبنت مصر قضايا التحرر وتصفية الإستعمار وتقرير المصير في الأمم المتحدة.

واتبعت مصر تقليداً جديداً، فكانت تدعو حركات التحرير لإرسال مندوبين عنها للتواجد في نيويورك أثناء دورة انعقاد الأمم المتحدة في كل عام وتتكفل بنفقات سفرهم وإقامتهم.

ولقد وقفت مصر بجانب جميع الثورات الإفريقية التي قامت ضد الإستعمار منذ عام ١٩٥٢ إبتداء من ثورة الماوماو في كينيا ثم ثورة الجزائر عام ١٩٥٤ ثم ثورة الكاميرون في عام ١٩٥٦ عندما قام اتحاد شعب الكاميرون. U.P.C.بإشعال الثورة مطالباً بتوحيد أجزاء الكاميرون الموجودة تحت الإستعمار الإنجليزي وتلك الموضوعة تحت وصاية الأمم المتحدة والإدارة الفرنسية وذلك بهدف إيجاد دولة كاميرونية واحدة مستقلة.

ثم وقفت مصر مع ثورة الكونغو في عام ١٩٦٠ ثم ثورات انجولا وموزمبيق وغينيا بيساو. ووقفت مصر دائماً مع نضال شعب روديسيا (زمبابوي) بل أنها قطعت علاقاتها مع بريطانيا في ديسمبر سنة ١٩٦٥ احتجاجاً على موقفها بعد إعلان الحكومة العنصرية في روديسيا للإستقلال من جانب واحد ورفض بريطانيا التدخل لسحق هذا التمرد.

كما أيدت مصر حركات التحرير في جنوب أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا وجزر القمر وكومورو وكل مكان في أفريقيا. ويمكن القول بكل اطمئنان أنه لم يحدث أن قامت حركة ثورية تحررية في أفريقيا بعد عام ١٩٥٢ إلا وكان لها اتصال بالقاهرة وأيدها عبد الناصر ووقف معها.

★

عبد الناصر وحركة عدم الإنحياز

د. سامي منصور

(كاتب وباحث مصري)

إن العصر الذهبي لحركة عدم الإنحياز هو دون أدنى مبالغة التجسيد الحقيقي لدور جمال عبد الناصر الدولي. صحيح أنه لم يكن صاحب فكرتها ولكنه باليقين كان مصدر ديناميكيتها. ونقطة البداية للحركة الدولية لعدم الإنحياز هي من مؤتمر بريوني الذي عقد في ١٨ يوليو/تموز ١٩٥٦ بين جمال عبد الناصر وتيتو ونهرو. وإذا كان البعض يتصور أن مؤتمر باندونغ (ابريل/نيسان ١٩٥٥) ـ هو نقطة البداية فالواقع أن المؤتمر الأسيوي الأفريقي أوضح حقيقة أساسية هي فشل المؤتمرات التي تجمع اتجاهات سياسية متناقضة. فقد كان المؤتمر ـ باندونغ ـ يضم ٢٩ دولة موزعة بين المعسكر الإشتراكي وله دولتان والكتلة الغربية وتمثلها ٩ دول بينما هناك ١٥ دولة ترفض التحالف والإنحياز إلى أي من المعسكرين. وقد بدت آثار هذا التعدد في مناقشات وقرارات

المؤتمر ـ ولولا دور جمال عبد الناصر باعتراف حتى نهرو نفسه لانهار المؤتمر. وكان أخطر ما جرى عليه الصدام هو محاولة الخروج من المؤتمر بقرار يؤيد فكرة وسياسة الأحلاف تحت دعاوى حق الدفاع عن النفس. وقد استطاع جمال عبد الناصر الذي كان يرأس اللجنة الفرعية التي تولت صياغة قرارات الإستعمار أن يضيف فقرة إلى مشروع القرار أفسدت كل ما أريد من الدول المتحالفة مع الغرب. فقد وافق المؤتمر على مبدأ حق الدفاع الجماعي وكانت إضافة جمال عبد الناصر إلى ذلك شرط ألا يكون في خدمة المصالح الخاصة لأي من الدول الكبرى، أي أن يكون في إطار الدفاع المشترك الإقليمي بعيداً عن الأحلاف.

وفعلاً نجح جمال عبد الناصر في إنقاذ المؤتمر. ولكنه أدرك في نفس الوقت عبث العمل الدولي من خلال مؤتمرات تجمع كل التناقضات. وهي الحقيقة التي ظهرت بجلاء كامل في مؤتمر بريوني. فقد عبر بيان المؤتمر صراحة عن أن التشابه في نظر الدول الثلاث إلى المسائل الدولية أدى إلى التعاون الوثيق بينهم. وخاصة وأن تجربة كل من الزعماء الثلاثة قد أكدت على سلامة الخط السياسي الذي إتبعوه. وقد ذكر بيان المؤتمر ذلك صراحة بأنهم لاحظوا باغتباط أن السياسات التي تتبعها دولهم قد أسهمت إلى حد ما في تخفيف التوتر الدولي، وفي إنماء العلاقات الدولية بين الدول على أساس من المساواة». وقد انتهى المؤتمر إلى رفض سياسة التكتل باعتبارها تزيد من خطر الحرب وتهديد السلام، وفي نفس الوقت ضرورة إستمرار وتشجيع الإتصالات بين دول عدم الإنحياز. وهي نقطة البداية للعمل الجماعي بين دول عدم الإنحياز.

وكان من الممكن أن تستمر سياسة عدم الإنحياز مجرد مواقف لدول كل منفردة عن الأخرى دون أن تتحول إلى حركة سياسية لها دور في العلاقات الدولية. وخاصة أن نهرو باعتباره أول من رفع شعار عدم الإنحياز يرفض بإصرار غريب أي محاولة للعمل الجماعي. وهنا يأتي دور جمال عبد الناصر.

وكانت أبرز بصمات عبد الناصر على حركة عدم الإنحياز هي:

أولاً: تحويل السياسة من مجرد مواقف لدول إلى حركة وتيار سياسي له دور فعال في السياسة الدولية. فقد كانت فكرة عقد أول مؤتمر قمة لدول عدم الإنحياز هي فكرة عبد الناصر ثم ناقشها مع تيتو خلال إجتماع بينهما في الإسكندرية في ٢٢/ ٤/ ١٩٦١. وقد سجلت رسالة الدعوة للمؤتمر التي أرسلت لرؤساء دول عدم الإنحياز: إننا إذ نأخذ في اعتبارنا التطورات الدولية الجارية وخاصة ما توالى أخيراً من أحداث خطيرة تزيد من التوتر الدولي إلى الدرجة التي تهدد استقلال بعض الدول وتهدد السلام العالمي. فإننا نرى أن الحاجة تدعو إلى المزيد من التنسيق والتدعيم للنشاط الذي تقوم به الدول غير المنحازة التي تهدف إلى تقدم العلاقات الدولية والبعد بها عن سياسة القوة، والإتجاه إلى تسوية بناءة للمشاكل والخلافات الدولية المعلقة، والعمل على حماية السلام في العالم. وبعد دراسة لهذه المشاكل فإننا نعتقد أن الوقت الآن مناسب لرؤساء الدول غير المنحازة لكي يجتمع أكبر عدد ممكن منهم للتشاور والتباحث في المشاكل

الدولية العاجلة التي تعوق التعاون الدولي وتشكل تهديداً دائماً للسلم. وإننا نرى أن اجتماعاً كهذا يحسن أن يعقد في أقرب وقت ممكن، على أن يتم بأية حال قبل انعقاد الدورة السادسة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة، حتى تستطيع هذه الدول أن تشارك في تلك الدورة، وهي أكثر قدرة على العمل الفعال من أجل تحقيق السلام والإستقرار في العالم.

ثانياً: إعطاء دور إيجابي وفعال للحركة في المجتمع الدولي. فقد كان لجمال عبد الناصر الدور الأساسي في مؤتمر عدم الإنحياز الأول ـ بلغراد ـ في تحديد مهام المؤتمر ومواقفه. وكانت أغلبية الوفود ترى توجيه نداء إلى الدول الكبرى للعمل على تخفيف حدة التوتر والعمل من خلال الوسائل السلمية لحل خلافاتها خوفاً من أن يدخل العالم في دائرة الخطر بالإقتراب من حافة الهاوية لحرب أبسط ما توصف به أنها «إنتحار جماعي» للعالم.

ثالثاً: وكانت البصمة الثالثة لجمال عبد الناصر على حركة عدم الإنحياز هو أنه أعطاها سمة الواقعية بمعنى أنها قبله كانت مجرد دعوة يرددها نهرو بينما دعاة الأحلاف كان سلاحهم أمضى فقد قال مثلاً فاضل الجمالي مندوب العراق في مؤتمر باندونغ «إن الغرب لا يعطينا السلاح من أجل سواد عيوننا. ولذلك فليس أمامنا للحصول على السلاح سوى قبول الإنضمام إلى الأحلاف».

رابعاً: وكانت البصمة الرابعة من بين البصمات العديدة التي أخذت الحديث عنها حول دور جمال عبد الناصر في عدم الإنحياز باعتباره موضوع بحث يستغرق مجلداً كاملاً هو دور حركة عدم الإنحياز في تصفية الإستعمار. فقد كانت حركة عدم الإنحياز قبل انضمام عبد الناصر تدعو إلى تصفية الإستعمار وكأن المستعمرين ملائكة سوف يستجيبون للنداء. فقيادة الحركة الأسيوية تحت شعار رفض العنف كانت ترى في حروب التحرير ما يخالف قناعاتها ـ وهي لذلك ترفضها أوعلى الأقل لا تؤيدها. والقيادة الأوروبية كانت أسيرة الواقع الجغرافي فبقيت بعيدة خوفاً من شبهة التدخل.

وجاء عبد الناصر ليخوض المعركة ليس فقط في المجال السياسي بمعنى المؤتمرات والأمم المتحدة والبيانات وإنما بالعمل الجاد الحقيقي لحروب التحرير وهو التدريب والتسليح بل وأحياناً الدعم.

. . . ويكفي عبد الناصر أنه في جلسة افتتاح مؤتمر القمة الخامس في كولومبو أن تقف مسز باندرانيكا وهي تتسلم قيادة الحركة من الرئيس بومدين أن تقول أنه لا يمكن افتتاح مؤتمر لعدم الإنحياز، وأن أتولى رئاسة المجموعة قبل أن أدعوكم لتحية بطل عدم الإنحياز الزعيم جمال عبد الناصر. وصفق المؤتمر كما لم يصفق لتحية الرجل الغائب، عملاق كبير أعطى لعدم الإنحياز ما لم يعطه غيره وسقط على الطريق. وبقيت الحركة تحمل بصماته مهما أريد لها أن تضل الطريق.

الباب الثالث

من أقوال وخطب
الرئيس جمال عبد الناصر

من أقوال الرئيس

الحرية والديمقراطية

الديمقراطية معناها تأكيد سيادة الشعب ووضع السلطة في يد الشعب وتكريسها لخدمة أهداف الشعب.

الديمقراطية هي الحرية السياسية.

إحنا بنقول لا يمكن بأي حال أن يقال أن هناك حرية إلا إذا توفرت الديمقراطية الإجتماعية.

إن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تتحقق في ظل طبقة من الطبقات، وقلنا إن إحنا في تجربتنا من أجل حياة ديمقراطية سليمة، لا بد لنا أن نحقق الديمقراطية السياسية في إطار الوحدة الوطنية وفي إطار تذويب الفوارق بين الطبقات وفي العمل على تصفية الرجعية

(عيد الوحدة ٢٢ فبراير ١٩٦٦)

كنا نعني أن الحرية تعني التحرر السياسي ثم تعني أيضاً التحرر الإجتماعي. . كان التحرر السياسي والتحرر الإجتماعي ينادي ويطالبنا أن نقضي على الإقطاع وعلى الإحتكار وعلى سيطرة رأس المال. . وعلى الإنتهازية السياسية بكل معانيها. . كانت الحرية تنادينا أن نقضي على عدم التكافؤ بين ربوع جمهوريتنا حتى تكون هناك عدالة ومساواة وحتى يكون هناك تكافؤ الفرص. وكان هذا هو السبيل. . وكان هذا هو أمل كل فرد من أبناء الجمهورية العربية المتحدة. . وكنا نشعر أن الكفاح في هذه المرحلة من نضال الأمة العربية له مطالب تختلف عن مطالبه السابقة.

(عيد الوحدة ٢٢ فبراير ١٩٦٢)

الديمقراطية الإشتراكية

كانت الأمة تواجه مرحلتين من مراحل كفاحها، مرحلة التحرر السياسي ومرحلة التحرر الإجتماعي وكانت مطالب كل مرحلة تختلف عن مطالب المرحلة الأخرى. وربما كانت المشكلة

التي واجهتنا هي تداخل المرحلتين وتشابكهما مرحلة التحرر السياسي ومرحلة التحرر الإجتماعي أو الثورة الإجتماعية.

لقد تخلفنا طويلاً عن العالم، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نفصل الثورة الإجتماعية عن الثورة السياسية. فبدون الثورة الإجتماعية تصبح الرجعية ويصبح الإقطاع والإحتكار وسيطرة رأس المال ويصبحون جميعاً دكتاتورية تتحكم في الشعب وفي رقاب أبناء الشعب جميعاً.

(عيد الوحدة ٢٢ فبراير ١٩٦٢)

*** الشعب هو المعلم:**

«لقد كان هذا الشعب العظيم هو المعلم الأكبر الذي حمل على عاتقه في أعقاب بدء العمل الثوري في ٢٣ يوليو ٥٢ عمليتين تاريخيتين لهما آثارهما الضخمة:

١ ـ أن هذا الشعب المعلم راح أولاً:

يطور المبادىء الستة ويحركها بالتجربة والممارسة، وبالتفاعل الحي مع التاريخ القومي، تأثراً به وتأثيراً فيه، نحو برنامج تفصيلي يفتح طريق الثورة إلى أهدافها اللامتناهية».

٢ ـ ثم أن هذا الشعب المعلم راح ثانياً:

يلقن طلائعه الثورية أسرار آماله الكبرى، ويربطها دائماً بهذه الآمال، يوسع دائرتها بأن يمنحها مع كل يوم عناصر جديدة، قادرة على المشاركة في صنع مستقبله.

(الميثاق الوطني)

«إن هذه الثورة ليست ثورة فرد من أفراد ولكنها ثورة شعب كان يطالب دائماً بحقه».

(الإسكندرية ٢٦/٧/١٩٥٧)

«إن هذا الشعب الذي كافح الكفاح الطويل والذي صمم رغم الضغط المرير على سياسته المستقلة سينتصر بإذن الله حتى يحقق الأهداف الكبرى وسينتصر بعون الله».

(الحسكة ١٥/٣/١٩٦٠)

«إن أي نظام ثوري يستند على الجماهير وحدها، لا يكفي أن يكون الشعب وراءه راضياً ومؤيداً، وإنما هو يحتاج إلى أكثر من ذلك يحتاج إلى أن يكون الشعب أمامه موجهاً وقائداً».

(حلب في ١٨/٢/١٩٦٠)

«الشعب حينما قضى على أعوان الإستعمار كان يؤمن وكان يعلم وكان على يقين من أنه غلب على أمره لزمن، وأنه لن يغلب على أمره إلى الأبد، لا بد للشعب أن ينتصر لأن إرادة الشعب من إرادة الله».

(٢٣/١٢/١٩٦٠)

*** إرادة الشعب الواعي سبيلنا إلى النصر:**

«لا بد أن ننتصر لأن هذا الشعب إنما يشعر بأن روحه من روح الله».

(٢٢/٧/١٩٥٩)

«إن هذه الثورة ليست ثورة فرد أو أفراد ولكنها ثورة شعب كان يطالب دائماً بحقه».

(الإسكندرية ٢٦/٧/١٩٥٧)

النضال في سبيل الحرية والديمقراطية

إن كفاح الشعوب لا يتوقف عند غاية، ولا يستقر عند نهاية.. إنه طريق بعيد المدى.. مداه مدى الحياة نفسها.. كلما بلغ منه الشعب مرحلة لاحت أمامه في المنى مراحل..

إن الشعوب الحية لا تتهاون بعد ساعة النصر ولا تتراخى.. أنها في ذروة شعورها بالقوة تدرك أن النصر الذي حققته إنما هو مرحلة على الطريق وليس هو بحال من الأحوال خاتمة المطاف.

إن الأحلام والمنى حق لكل البشر ولكل الناس.. ولكن الحق لا يتأكد تلقائياً وبمجرد الرغبة فيه. وإنما الحق جهاد في سبيل المبادىء وعمل وتضحية وفداء في كل مراحل التاريخ.

إن هذا الشعب جاهد طويلاً وكافح وقاتل وناضل ولم يستسلم أبداً ولم يدر بخلده في أي يوم من الأيام أن طريقه هو الطريق السهل.

وخلال قرون طويلة، كانت أجيال شعبنا تكافح وتناضل.. كان الشهداء يسقطون على الأرض وبجوارهم أعلامهم مضرجة بالدماء. ولكن لا يستسلمون أبداً.. كانت المعارك لا تنقطع بين مد وجزر وتقدم وتأخر ولكن قوى المقاومة فينا ظلت تخفق وتنبض.. كانت الجموع تحتشد وتتكتل وتتقدم فلا يستطيع الحديد أن يوقف تقدمها.. ولا يستطيع البارود أن يخنق صيحة الحرية تنطلق من صدرها.

(عيد الجلاء ١٨/٦/٥٦)

ثورة يوليو بداية للنضال:

وكانت ثورة ٢٣ يوليو تتويجاً لكفاح المواطنين بنصر عظيم حتى يتولى أمره بنفسه وحتى يمسك زمام شأنه بيده.. ولكن الوطن ولكن الشعب استلهم العظة من ماضيه فقرر ألا يخدع كما خدع في أيام إبراهيم بك وفي أيام محمد علي فلم يطمئن إلى الأمراء ولم يطمئن إلى الحكام ولم يطمئن أبداً كما اطمأن في الماضي.. وكما وثق في الماضي.. ولكنه قرر أن يستمر في كفاحه.

(خطاب في ١٦/١/١٩٥٦)

إن طريق الحرية الوحيد، هو الجهاد وتكوين جيش مدرب من الرجال والنساء في كل قرية وفي كل مدينة حتى يصبح الشعب كله قوياً.

(خطاب ١/١/١٩٥٤)

إن الكفاح مرحلة طويلة لا تنتهي عند غاية من الغايات ولكنها تتجه قدماً فالغاية تتحدد والأماني تتزايد والمطالب تظهر دائماً أمام الشعوب.. إننا اليوم قد اختتمنا مرحلة من مراحل الكفاح وبدأنا مرحلة جديدة.. إن الطريق أمامنا لا يزال طويلاً.. الطريق من أجل البناء.. من أجل تعزيز الكفاح.. فقد انبلج الفجر بالأمس فقط حينما ارتفع العلم المصري يرفرف فوق أرض الوطن.. إنه البداية

(خطاب ١٩/٦/١٩٥٦)

المعركة ضد الأحلاف والقواعد الأجنبية:

رفضنا الدعوة إلى الأحلاف وقلنا لنا فكرة نؤمن بها كل الإيمان لأن أي تحالف مع الدول الكبرى يعني السيطرة.. فطلبنا من الدول العربية أن تتضامن تحت لواء الدفاع المشترك لأن هذه الأحلاف هي أحلاف الذئب مع الحمل ولا بد أن يأكل الذئب الحمل.

(٩/٧/٥٧)

إن مصلحة الأمة العربية لا تتحقق إلا باتباع رفض الأحلاف والتكتلات وتوحيد السياسة العربية الخارجية في كل ما يمس حاضر الشعوب العربية ومستقبلها.. تحويل الضمان الجماعي العربي إلى حقيقة واقعة.

(خطاب في ٢٢/٢/١٩٦٦)

معركة السد العالي كانت معركة كل واحد فيكم بل كل واحد عربي من أبناء الأمة العربية كان يعتبر معركة السد العالي معركة العزة.. معركة الكرامة لما سحب تمويل السد العالي اعتقدوا أن

سحب التمويل أن السد العالي لن يبنى. ان إحنا حنركع على رجلينا ونستجدي ونشحت علشان يبنوا السد العالي. إحنا شعب عمره ما ركع على رجليه ولا أستجدى ولا شحت.

السد العالي علشان ينبنى خضنا معارك.. تأميم قنال.. التهديد.. الحصار الإقتصادي، تجميد أموالنا.. العدوان الثلاثي.. الحرب النفسية.. المؤامرات..

(٨/٣/١٩٦٥)

معركة تأميم قناة السويس:

إننا لن نكرر الماضي.. سنقضي على الماضي بأن نستعيد حقوقنا من قناة السويس، هذه الأموال.. وهذه القناة ملك لمصر لأنها شركة مصرية. ولهذا فقد وقعت اليوم ووافقت الحكومة على القانون الآتي:

باسم الأمة.. رئيس الجمهورية.. مادة واحد.. تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية..

(٢٦/٧/١٩٥٦)

حينما أممنا قناة السويس، كنت أعلم أن تأميم القناة يدخلنا في حرب مع بريطانيا وفرنسا، ولكن كان علينا أن نستخلص حقنا المغتصب وكنا نعتقد أننا قد نتعرض للعدوان ورغم هذا كنت على ثقة من أن هذا الشعب سيقاتل في سبيل الحرية والكرامة وفي سبيل المبادىء التي آمن بها.. والشعب لم يتوان ولم يتأخر.. حينما واجهنا الإنذار البريطاني والفرنسي بأنهم يطلبوا تسليم بور سعيد والإسماعيلية والسويس في ١٢ ساعة فسيتدخلوا في الحرب اللي كانت بقالها ٢٤ ساعة ما بيننا وبين إسرائيل.. رفضنا هذا الإنذار.. بعد كده بدأ العدوان علينا في اليوم التالي. وكنا نواجه معركة مع إسرائيل، وفي نفس الوقت في انتظار عدوان.. أما في بور سعيد أو في الإسكندرية أو عن طريق ليبيا لأن القوات البريطانية موجودة في ليبيا ولم نشعر أبداً بأننا قد نخسر هذه المعركة أمام دولتين من الدول الكبرى هي فرنسا وبريطانيا ومعهما إسرائيل.

(١٠/٣/١٩٦٥)

في أول سنة ١٩٥٧ وجدنا أو بالأحرى أممنا المصالح الأجنبية كلها الإقتصادية.. ابتدينا بالإنجليزية والفرنسية وكانت تمثل الجزء الأكبر، ثم بعد هذا البلجيكية ده قبل قرارات يوليو ١٩٦١. رغم هذا ورغم الحصار اللي عمل علينا ما قدرناش نجيب قمح.. ما قدرناش نجيب أدوية.. استطعنا ان إحنا نعيش ونطلع من المعركة منتصرين.

من المعركة وفي بور سعيد، ومن قلب النار.. خرجت قرارات التمصير الإقتصادي لأصحاب البلد الحقيقية. قوى الشعب العاملة، اللي خرجوا يدافعوا عن البلد بأرواحهم..

ومن المعركة في بور سعيد، ومن قلب النار، خرجت الخطة الشاملة لمضاعفة الدخل القومي في عشر سنوات تحقيقاً للكفاية والعدل . .

ومن المعركة في بور سعيد ١٩٥٦، ومن قلب النار، خرجت قوانين يوليو الإشتراكية التي أعلنت في سنة ١٩٦١ . .

ومن المعركة في بور سعيد ١٩٥٦، ومن قلب النار، استلهم الميثاق وأهم فصول الميثاق وأحكام الميثاق ليكون منهاجاً للعمل الثوري الكامل سعيه لأهدافه الشاملة. ومن أجل قوى الشعب العاملة . .

ومن المعركة في بور سعيد ١٩٥٦، ومن قلب النار . . لاحت مقدمات معارك المستقبل.

كانت الهزيمة اللي لاقاها الأعداء، واللي لاقاها العدوان، لم تكن بأي حال من الأحوال، نهاية المعارك، ولكنها كانت تدل على أن هناك مقدمات لمعارك المستقبل نعيش فيها.

(عيد النصر في ٢٣/ ١٢/ ١٩٦٢)

كان العدوان قد اندحرت قواته العسكرية عن مصر، يجرب بكل طاقاته، محاولة تحقيق أهدافه عن طريق غير طريق القوة العسكرية . . كانت الحرب الإقتصادية على مصر تحاول أن تحقق بالتجويع ما فشلت في تحقيقه بضرب القنابل . . وكانت الحرب النفسية مع حرب التجويع تتجه إلينا تحاول أن تزرع الشك على أراضينا المؤمنة . . وتنشر رياح السموم في أجوائها الطاهرة.

(٢٠/ ٧/ ١٩٦٠)

معركة من أجل الوحدة العربية:

وكانت المحاولة تجري على قدم وساق لأحداث الغزو من الداخل بتهريب السلاح وتجنيد العملاء . . وكان الجو في المنطقة العربية كلها من حول مصر وسوريا مليئاً بالنذر ملبداً بالغيوم. كان الأسطول السادس الأمريكي يستعرض عضلاته في البحر أمام بيروت يدفع حاملات الطائرات المزودة بالصواريخ والأسلحة الذرية والمدمرات تجري أمامنا على الموج إنذاراً وتحذيراً وكان النشاط البريطاني في الأردن على أشده يحاول أن يوقف تيار التحرر أو يحول مجراه . . وفوق ذلك كله كانت إسرائيل تملك المناورة الحرة لقواتها وكان حلف بغداد يحاول أن يستعيد ضراوته وشراسته التي فقد كثيراً منها خلال العدوان على مصر سنة ١٩٥٦. وكان مشروع إيزنهاور يحاول بالمال أن يسد الثغرات المفتوحة بين القواعد العسكرية لحلف بغداد . . تلك الصورة على حقيقتها في بداية ١٩٥٨ . . ومع ذلك ففي هذا الوقت العصيب وفي هذا الجو المكفهر بالعاصفة . . وحين تصور أعداؤنا أن القومية العربية ليس أمامها إلا أن تقصر خطوطها لتقلل جبهة تعرضها للهجوم . . وأن تتراجع وتتوارى . . أن تقبع في الخنادق لتأمن . . وأن تحبس أنفاسها عليها

تسلم. في وسط هذه الصورة وخلال هذا الوقت العصيب والجو المكفهر وسط هذا كله قامت القومية تحشد قواها كلها في وثبة وتركز أعصابها في لحظة من العمر تحزم فيها أمرها وتتخذ قرارها.. ثم إذا هي تنطلق إلى الأرض الرحبة الواسعة ناشرة أعلامها زاحفة إلى أعظم أمانيها ضاربة ضربتها الكبرى.. واصلة هدفها الأسمى.

لا بديل لهذه الأمة غير النصر وهي تقدر عليه إذا أحسنت الإستفادة من طاقاتها وظروفها وإذا استطعنا أن نؤمن ونبني جبهتنا الداخلية على أساس المعركة.

(عيد الثورة ٢٣/ ٧/ ٦٨)

إرادة الشعب.. أقوى من الإستعمار:

إن كفاح الشعوب لا يتوقف عند غاية ولا يستقر عند نهاية.. إنه طريق بعيد المدى.. مداه مدى الحياة نفسها.. كلما بلغ منه الشعب مرحلة لاحت أمامه في المنى مراحل..

إن الشعوب الحية لا تتهاون بعد ساعة النصر ولا تتراخى.. إنها في ذروة شعورها بالقوة تدرك أن النصر الذي حققته إنما هو مرحلة على الطريق وليس هو بحال من الأحوال خاتمة المطاف..

(خطاب في ١٨/٦/١٩٥٦)

إن الشعب نفسه هو الذي يتحتم عليه الآن أن يقود التطور، وأن يشق طريقه بعقيدته الوطنية إلى غده الذي يتطلع إليه ويناضل بشرف لكي يشرق فجره، ومن حسن الحظ، أن حصيلة التجارب الثورية لوطننا قد خلقت الآن ظروفاً يمكن معها للديمقراطية الحقيقية المتحررة من السيطرة الخارجية ومن الإستغلال الداخلي أن تحقق وجودها الفعلي والحيوي..

ما من شعب تراكمت عليه آثار الماضي وتبعاته.. بل وعقده النفسية مثل شعبنا.

ما من شعب تآمر عليه المحتلون الغرباء ومشوا بالجبروت والطغيان عليه مثل شعبنا.

ما من شعب وقع فريسة الإستغلال والتضليل والتغرير مثل شعبنا.

القضاء على الإحتلال.. مقدمة للحرية الإجتماعية:

إن شعوبنا لا تصنع بالإستقلال علماً ونشيداً وصوتاً في عداد الأصوات في الأمم المتحدة فحسب، ولكنها تريد، إلى جانب ذلك، أن يكون للإستقلال مضموناً إجتماعياً، يصون كرامة البشر، كما يصون الإستقلال كرامة أرضهم.. كل واحد واجه هذا التحدي حين كان يظن أن أصعب الأوقات قد فاتت بالخلاص من الأجنبي.. وكل منا بغير جدال وقف أمام هذا التحدي سأل نفسه. والآن ماذا أفعل؟

(مؤتمر القمة الأفريقي ١٧ / ٧ / ١٩٦٤)

لقد كان أعظم الملامح في تجربتنا الفكرية والروحية. . إننا لم ننهمك في النظريات بحثاً عن حياتنا، وإنما انهمكنا في حياتنا ذاتها بحثاً عن النظريات.

إنه ينبغي لنا مهما كان الثمن ألا نسمح بظهور طبقة جديدة تظن أن الإمتيازات إرثاً لها. . بعد الطبقة القديمة.

وعلينا أن نقاوم مثل هذا الإنحراف ونقومه، ونثور عليه إذا اقتضى الأمر، ونجرده من أي سلاح يكون قد حصل عليه.

لا بد أن نتحقق من أن الأعداء لا يتكالبون علينا إلا لأنهم يشعرون أننا نتقدم. . وأننا نحقق وأننا ننجز. .

لو كنا في مكاننا قابعين لما اهتم بنا أحد. .

الحرب ضدنا دليل على سلامة طريقنا.

لا بد أن نصمم على خلق التطور الإقتصادي والتطور الإجتماعي. . طريقاً للحرية وللإشتراكية.

إن ٥ يونيو كان صدمة. . ولكن جماهير شعوب الأمة العربية، أثبتت عملياً وصممت على الرفض . . رفض الهزيمة. . ويجب أن نلح على الرفض. . أنها أثبتت عملياً لكي تفرق بين الرفض الإرادي، والرفض الإنفعالي الذي يصدر عن العاطفة وحدها. . أن الأمة العربية حينما خرجت تعلن عن تصميمها على القتال كانت تعبر عملياً عن رفضها للهزيمة وعن استعدادها للتضحية وعن استعدادها لتقديم دمائها وأرواحها فداء لكرامتها. . وفداء لأراضيها وفداء لشرفها وفداء لوطنها.

(عيد العمال ١/ ٥/ ١٩٧٠)

الثقافة والجماهير

إن العلم في جميع المجالات، هو بمثابة المصابيح الكاشفة، نوجهها إلى كل ما حولنا للنسج بالنور تصورنا لشكل المستقبل، ثم لنخطو بالنور وصولاً إليه.

فبغير المصابيح الكاشفة للعلم في جميع المجالات فإن تصورنا للمستقبل وحركتنا إليه، تصبح تحسساً أو تخبطاً في المجهول وفي الظلام.

(خطاب في ١٤/ ١٢/ ١٩٦٤)

الثقافة والإلتزام.. ودور المثقف:

المثقف ملتزم. . الإلتزام الوحيد هو الإلتزام بالإرتقاء بالمجتمع، وبالإرتقاء بالحياة، عن طريق المشاركة في العمل، والتوجيه السياسي والفكري.

ويؤدي المثقف هذا الدور بالإقتراب وبالإندماج في المجتمع. . وحتى يؤدي هذا الدور لا بد للمثقف من دراسة أحوال المجتمع، ويعاني ما يعانيه المجتمع، ويستوعب مشاكل المجتمع، ويستوعب مشاكل المجتمع وأماني المجتمع، ويحلل حركاته واتجاهاته.

وبهذا يكون المثقف فعلاً يؤدي دوره كمثقف ثوري يعمل لمصلحة الجماهير، ولمصلحة الشعب، ولمصلحة الحياة.

إن الثورة الثقافية هي سلاح قوى لجماهير الشعب. والثورة الثقافية لها أهمية كبرى بالنسبة للحركة التطبيقية الثورية. من أجل إقامة مفاهيم لنا تنبع من ضميرنا وتنبع من مصالح أمتنا بمجموعها، لا من مصالح فئة قليلة من أبنائها.

جيش الثقافة. . جماهير الشعب في كل أنحاء الجمهورية. بهذه الثقافة نستطيع أن نتغلب على الحرب التي تشنها ضدنا الدوائر الإستعمارية.

(خطاب في ٢٨/ ١٢/ ١٩٦١)

المثقفون عليهم واجب كبير. . الشعب دائماً ينظر بأمل، لأنهم الناس اللي وجدوا الفرصة ليتعلموا. . عليهم واجب كبير بالنسبة للناس اللي موجدوش الفرصة.

الشعب ينظر للمثقفين بأمل، لأنه يعلم أنهم مش أبراج عاجية وحيكونوا معبرين عن إرادته، ومعبرين عن أمانيه وحيكونوا مدافعين عن حقه في الحرية والحياة، على بناء المجتمع السعيد، المجتمع الذي ترفرف عليه الرفاهية.

(خطاب في ٢٧/ ٧/ ١٩٧٢)

لا بد للثورة الثقافية، أن تفرض وجودها، لأن الثورة الثقافية إنما هي الثورة الفكرية التي تمكننا من أن نحافظ على انتصارنا، وتمكننا من أن نقضي على الإستبداد السياسي وتمكنا من أن نضع مطالب الشعب موضع التنفيذ. وتمكننا من أن نقيم بين ربوع بلادنا حياة كريمة. حياة نشعر فيها بالعدالة الإجتماعية. حياة متحررة من الظلم الإجتماعي.

(خطاب في ٢٨/ ١٢/ ١٩٦١)

الوحدة العربية

إن الوحدة. . ليست نداء يردد أصداء الماضي. . وإنما الوحدة العربية أصلاً وأساساً. . هي نداء بالتجمع. . وانطلاق إلى بناء المستقبل وتوفير رخائه.

إننا جزء لا يتجزأ من أمة عربية واحدة، تاريخها واحد، ونضالها واحد، ومصيرها واحد.

(مجلس الأمة ٢٠/ ١/ ١٩٦٥)

إن الوحدة العربية ليست حركة عنصرية. . وإنما هي حركة أمة واحدة. . عاشت نفس التاريخ. . وتعيش نفس النضال. . وتتجه لنفس المصير.

(حديث صحفي ٥/ ٧/ ١٩٦٤)

عروبة مصر ليست مسألة سياسية ولا مسألة تكتيكية. . وإنما قدر ووجود، وحياة أمة واحدة.

صف واحد. . نضال واحد. . مصير واحد.

(عيد الثورة الثالث عشر ٢٢/ ٧/ ١٩٦٥)

النضال والكفاح المشترك..

إن قصة كفاح الشعب العربي، وخطوات الكفاح واحدة، لسبب واحد بسيط. . سبب كل فرد في الأمة العربية يعرفه ويعلمه. . هو تشابه الظروف الكامل. . وتوافق هذه الظروف وترابطها.

وإذا قارنا مقارنة تاريخية، بين كفاح الشعب العربي، في كل مكان، وفي كل بلد من بلاد الوطن العربي. . في العراق. . وفي سوريا. . وفي لبنان. . وفي مصر. . فإننا نرى الترابط بين المشاعر والترابط في الحوادث.

في كل وقت ثارت فيه بغداد، كانت القاهرة تثور، لأن المشاعر تجمع بين بلدين.

في كل وقت ثارت فيه دمشق. . ثارت فيه بيروت لأن الحوادث كانت تجمع بين بلدين.

كانت الحوادث في العالم العربي مرتبطة متصلة. . العالم العربي كله يشعر بمشاعر واحدة في وقت واحد. لأن قضية العالم العربي هي قضية واحدة. . وقصة الكفاح في العالم العربي قصة

واحدة.. وإذا كان هناك تفاوت في الزمن.. فإن هناك اتفاق في الأهداف.. واتفاق في الآمال.

(عيد الثورة ١٩٥٨/٧/٢٢)

عندما كان العرب وحدة متماسكة، استطاعوا رد المعتدين على أعقابهم، كما حدث أيام الحروب الصليبية.. ولكن بعد أن فرق المستعمرون بين العرب أصبحوا عرضة للهزيمة. وفريسة للسيطرة الأجنبية.. وكانت هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني طوال فترة المناقشة التي كانت تدور حول وسائل الدفاع عن مصر.

ولأول وهلة، اتضح لنا أن مصر مثلها في ذلك مثل كل جزء من أجزاء الوطن العربي لا يمكن أن تضمن سلامتها إلا مجتمعة مع كل شقيقاتها في «العروبة» في وحدة متماسكة قوية.

إن موقع مصر الجغرافي والإستراتيجي الهام، كان هو دائماً نقطة الضعف بالنسبة لها.. وأنه لسبب هذا الموقع الممتاز، تسابقت الدول إلى احتلالها.. لذلك كان هدفنا أن نجعل من هذا الضعف قوة.

وقمنا بعد ذلك بدراسة ثروات العرب وخاصة البترول.. وعرفنا أن هذا البترول يمكن استخدامه لصالح العرب.. وهذا هو نفس الذي حدث للقنال.. وهكذا اتخذت القومية العربية طابعها، كضرورة استراتيجية.. وذلك لضمان سلامة الوطن العربي.. وكمذهب سياسي.

(حديث مع الصحفي الإنجليزي ديزمونت ١/٤/١٩٥٧)

إن تيار التاريخ يسير إلى الأمام.. وأن الدول الكبرى التي حاولت أن توقف هذا التيار لم تستطع أن تتغلب على التيار الطبيعي للتاريخ.. بالنسبة لشعب آمن بأن القومية العربية والتضامن العربي سبيل الأمان والسبيل الوحيد للحماية، والسبيل الوحيد لرفع مستواه، والسبيل الوحيد لتطويره إجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.

(خطاب بدء تنفيد السد العالي ١٩٥٩/١١/٢٦)

القومية العربية.. ليست من وحي فرد..

إن القومية العربية التي انطلقت لا يمثلها واحد، ولا يمثلها حفنة من الناس.. لا يمثلها جمال عبد الناصر ولا يمثلها أي شخص آخر.. ولكنها أنتم.. كل فرد منكم.. يمثل هذا الشعب الذي قاتل.. يمثل هذا الشعب الذي صمم على الحرية، وصمم على أن ينتصر.

إن شعلة القومية العربية ستبقى أبد الدهر عالية مرتفعة، لأنها لا تنحصر في شخص واحد

هو جمال عبد الناصر ولا تنحصر في أفراد آخرين. . هم من يعملون مع جمال عبد الناصر. . ولكنها تمثل الشعب العربي. .

القومية العربية هي أنتم هنا في دمشق. . وأخوة لكم في بغداد. . وأخوة لكم في القاهرة. . وأخوة لكم في عمان. . وأخوة لكم في بيروت.

القومية العربية أخوة لكم في السودان. . وأخوة لكم في اليمن. . وأخوة لكم في ليبيا هذه هي القومية العربية التي لن تستطيع أية قوة في العالم أن تحطمها أو تقضي عليها. .

ليست القومية العربية من وحي رجل واحد. . أو من وحي فرد واحد. . ولكنها من وحيكم أنتم ومن وحي آبائكم. . من وحي أولئك الذين استشهدوا في سبيل هذه الأيام التي نعيشها، لنرى فيها الأمة العربية وهي تتحرر.

(خطاب بدمشق ١٨/٧/١٩٥٨)

ينبغي الفصل بين الوحدة العربية كتيار تاريخي قديم ومستمر، وبين أي فرد يتحمل في لحظة من اللحظات مسئولية العمل من أجلها. . أن دعوة الوحدة العربية بدأت من قبل جمال عبد الناصر. . وستبقى بعد جمال عبد الناصر.

(حديث صحفي ٥/٧/١٩٦٤)

إن الحرية السياسية والحرية الإجتماعية مقدمات ضرورية للوحدة. . وليس معنى هذا أنه يتعين علينا الإنتظار حتى يتحقق ذلك كله تماماً في كل أرض عربية. . لكي نبدأ الحديث أو العمل من أجل الوحدة. . أهداف النضال متداخلة. . أهداف النضال تعطي لبعضها، وتأخذ من بعضها، وتعزز إحداها الأخرى، وتتعزز بها.

(عيد الوحدة ٢٢ فبراير ١٩٦٧)

إن تجربة الوحدة بين مصر وسوريا. . علمتنا الكثير. . علمتنا أن الوحدة ممكنة. . فلقد تحققت بالفعل في سنة ١٩٥٨. . وغيرت خريطة الشرق الأوسط. . بغير إرادة الذين تحكموا طويلاً في الشرق الأوسط.

ففي يوم واحد سنة ١٩٥٨، استطاع الشعب العربي في مصر، والشعب العربي في سوريا، في يوم واحد، من أعز أيام التاريخ العربي الحديث، وأغلاها. . أن يقوما بعمل واحد مشترك. . يقتحمان الحواجز والموانع والمؤامرات والخطط، ويتحديان جميع أعداء الوحدة، ويصنعان دولة الوحدة العربية الأولى «الجمهورية العربية المتحدة». .

وإذا كان أعداء الوحدة العربية، هؤلاء الأعداء جميعاً، قد استطاعوا أن ينظموا صفوفهم بعد اليوم العظيم. . وأن يحشدوا جيوشاً ضخمة من قوى الشر. . وأن يهددوا دولة الوحدة في

حرب مضنية نفسية واقتصادية وسياسية.. ثم يشترون من داخل دولة الوحدة ذاتها، بعض عناصر الخيانة لكي تكون الضربة من الداخل طعنة خنجر في الظهر وفي الظلام.. فإن هذا مهما كان نجاحه المبدئي أو الظاهر عمل ضائع مقضى عليه بالفشل قد يعطل المسيرة بعض الوقت.. لكنه لا يعرقلها.. قد يعوق الوحدة لبضع سنوات، لكنه لا يحطمها..

إن دولة الوحدة، التي ضربت من الظهر والظلام في سوريا بقيت مرددة نشيدها، رافعة أعلامها، ماضية في طريقها.. تناضل من أجل ما هو حق وخير.. وتناضل بقوة مضاعفة تأكيداً للأمل وتعويضاً على النكسة..

(عيد الوحدة ٢١/ ٢/ ٦٥)

دور مصر الطليعي

إننا جزء لا يتجزأ من أمة عربية واحدة.. تاريخها واحد.. ونضالها واحد.. ومصيرها واحد.. وإذا كنا قد وصلنا بالكفاح إلى حيث يكون مقدورنا أن نعطي وأن نساند. فإنه من الضروري أن نعرف واجبنا.. ونقبل بأعبائه. إن سلامة الأمة العربية الواحدة لا تتجزأ.. والعدوان على أي جزء منها عدوان على الكل.. وإذا كان غيرنا يتعرض لظروف لا تمكنه من الإسهام في الكفاح المشترك إلا بقدر محدود.. ولنذكر باستمرار أن الجميع يقاتلون بما في أيديهم.. لتكون لهم القدرة غير المحدودة على الإسهام في معركة المصير المشترك.. وكان في أيدينا من وسائل الكفاح أمضى وأفعل.. فذلك شرف لنا بقدر ما هو أمانة..

إن الإستعمار لن يحمل عصاه على كاهله ويرحل من كل الأرض العربية بالإقناع.. وبالمنطق.. كذلك فإن إسرائيل لن تنزاح من مكانها في وسط الأمة العربية رضا وسلاما.. وإذا كان الجزء الأكبر من المسؤولية في هذه المرحلة علينا.. فإن قوى الطليعة العربية تتزايد كل يوم وسوف تتكامل طاقاتها باستمرار النضال اليومي للجماهير على كل أرض عربية..

(بيان مجلس الأمة ٢٠/ ١/ ١٩٦٥)

إن وجود مصر ضعيفة.. ضعف للنضال العربي كله.. ووجود مصر مغلولة.. شلل للنضال العربي كله.. وليست هذه حقيقة جديدة.. وإنما هي استقراء التاريخ والطبيعة، ولعل ذلك من وجهة نظر السياسة الإستعمارية من بين الأسباب التي قصدها الذين مهدوا للعدوان الإسرائيلي.. بين أسبابهم في هذه المؤامرة.. أن يعزلوا مصر وراء حاجز الصحراء في سيناء عن الشرق العربي كله، ليمنعوا اتصالها به. وليسهل على إسرائيل أن تواجه جبهات عربية ممزقة ومتباعدة. وليسهل عليهم بدورهم أن يتعاملوا مع عالم عربي مشطور في منتصفه..

إن تأكيد الذات العربية لمصر.. وجه ضربة ضد المخطط الإستعماري.. ثم بدأت عملية بناء القوة الذاتية المصرية ثورياً تعمل على تصحيح آثاره.. وتوقف تداعيها.. والأمل معلق

باحتمالات الثورة العربية، لتصفية هذا الخط الإستعماري تماماً. وأن تقتلع من الأرض العربية جذوره الخبيثة.

إن أيام النضال في الجزائر.. ترتبط بأغلى الذكريات وأعزها في قلوبنا.. إني أذكر أول شحنة من الأسلحة وصلت إلى الجزائر قبل بدء الثورة في سنة ١٩٥٤.. قامت من الإسكندرية.. على اليخت «فخر البحار» واتجهت إلى الجزائر.. والتقى رجال فخر البحار برجال الثورة الجزائرية.

تونس.. كانت تكافح الإستعمار والإحتلال الفرنسي وكانت الجمهورية العربية المتحدة تجند كل ما يمكن أن تجنده في سبيل خدمة قضية استقلال تونس.. ولا أريد أن أتكلم عن التفاصيل.. هذا وقت تاريخه مضى ولكنه معروف.. حتى استطاعت تونس أن تحصل على الإستقلال.

أعلنا دائماً أننا نساند المغرب.. حينما طالبت بجلاء القوات الأجنبية.. وحينما طالبت بتصفية القواعد الأمريكية.. وجدت من شعب الجمهورية العربية المتحدة كل تأييد لأن هذا هو طريق الإستقلال.

وحينما تصدت قوات الإستعمار، ونزلت القوات الأمريكية في لبنان.. والقوات البريطانية في الأردن.. وكان في هذا النزول تعرضاً لثورة العراق.. انبرى شعب الجمهورية العربية المتحدة.. وأعلن شعب الجمهورية العربية المتحدة أنه يتضامن مع شعب العراق لأن كل عدوان على شعب العراق.. أو على العراق.. إنما هو عدوان علينا.. وأننا سنحارب من أجل العراق ومن أجل مصيره.. لأن مصيرنا واحد..

(خطاب في ٢٦ يونيو ١٩٦٢)

أما إحنا فحنساعد القوى الوطنية في الجنوب المحتل بكل إمكانياتنا.. وبقول لجبهة التحرير كل ما تطلبه منا لا بد أن نلبيه.

الشعب اليمني فرض الثورة.. وبإرادة التغيير قامت الثورة.. وحينما طلب إلينا أن نساند هذه الثورة.. ذهبت قواتنا إلى اليمن وهي تعتقد أنها تقوم بواجب أصيل في إرادة التغيير العربية.

إننا أخوة الشعب الليبي سنعمل دائماً بكل طريقة وبكل وسيلة على أن نتضامن، وعلى أن نتكاتف، وعلى أن يساعد بعضنا البعض من أجل التنمية ومن أجل التطور. ويجب على كل فرد من أبناء هذه الأمة أن يقاوم الحرب النفسية التي توجه إلى الأمة العربية حتى تفرق بين أبناء الأمة العربية..

إننا نقدر الثورة الليبية.. الطريق الذي اختاروه، الطريق الصعب.. الطريق الذي ينتج عنه

الخير لأبناء الشعب الليبي. وأبناء الأمة العربية كلها، ونقول لهم بكل تواضع أيضاً أننا معكم.. أن الشعب المصري معكم يساندكم.. ويسير معكم في معركتكم في السراء وفي الضراء.. وإذا قاتلتم فإن الشعب المصري سوف يقاتل معكم.

(المؤتمر القومي العام ٢٣/ ٧/ ١٩٧٠)

نحن نريد السلام ولكن السلام بعيد ونحن لا نريد الحرب ولكن الحرب من حولنا وسوف نخوض المخاطر مهما كانت دفاعاً عن الحق والعدل، حق وعدل لا سبيل لتحقيقهما غير طرد قوى العدوان من كل شبر من الأرض العربية المحتلة سنة ١٩٦٧، من القدس.. من الجولان من الضفة الغربية.. من غزة.. من سيناء.. وحق وعدل لا سبيل لتحقيقهما غير استعادة الشعب الفلسطيني لحقوقه الشرعية وخروجه من خيام اللاجئين ليدخل مدنه وقراه ومزارعه وبيوته.. ويعود مرة أخرى إلى قلب الحياة بعد أن أرغمته الظروف أن يبقى أكثر من عشرين سنة على هامش الحياة..

هذه قضية شعبنا وقضية أمتنا العربية.

وليس هناك علم شريف يرفرف على الأرض العربية، إلا وكانت يد الشعب المصري أول الأيادي التي امتدت لتساعد على إقامته.

(المؤتمر القومي العام ٢٦/ ٧/ ١٩٧٠)

الهزيمة دائماً لأعداء التاريخ، وأعداء التقدم.. والنصر دائماً للسائرين مع تيار التاريخ مع تيار التقدم.. وهذه كلها معارك يتحقق فيها النصر لشعبنا. ولشعوب الأمة العربية.. ولكن النصر النهائي في حرب المصير كلها.. يتحقق ويتأكد بالقوة الذاتية الشاملة في جميع الإتجاهات.

بعد ١٩٦٧ وبعد النكسة، حينما قال الأعداء أن الأمة العربية، قد تفتتت وأن الأمة العربية قد انتهت وأن روح القومية العربية قد ضاعت وأن الثورات التقدمية في طريقها إلى الزوال وفي طريقها إلى الإنهيار..

بعد هذا شهدت أرض الأمة العربية، الثورة السودانية، وقامت الطلائع من القوات المسلحة السودانية، الطلائع الوطنية.. وقد أعلنت الثورة، وتحرير البلاد.. وصممت الثورة في السودان على أن تحرر كلياً من النفوذ الأجنبي.. وعلى أن تعمل بكل طاقاتها في إطار التضامن العربي.

وفي إطار الوحدة العربية.. ومن أجل الحفاظ على استقلال وحرية الدول العربية.

لقد حصل النضال العربي، على دور ليبيا كاملاً، لصالح الثورة العربية، ولصالح التحرير

العربي.. بقيام الثورة فيها.. وقيام الثورة في ليبيا لا يمكن أن يقدر بمال.. نجاح الثورة في ليبيا، كسب بغير حدود.. دخول ليبيا إلى مطار الدول العربية المتحررة التقدمية المناضلة.. هو أمل بدأ في مثل هذه الظروف كأنه خيال ولقد حققت الثورة فعلاً ما كان يبدو خيالاً.

ظهرت المقاومة الفلسطينية، واستطاعت المقاومة أن تحرك الشعب الفلسطيني من شعب من اللاجئين، إلى شعب من المقاتلين. واستطاع العمل الفلسطيني أن يفرض نفسه على كل العالم.

إن البعث الذي حدث لشعب فلسطين ظاهرة تكاد لا تصدق. ولكن هذه الظاهرة دليل حياة لا تموت، وأصالة لا تتحول. ولا نستطيع في هذا أن ننكر دور جماهير الشعب الفلسطيني. الشعب الفلسطيني الذي يرزح تحت الإحتلال يناضل نضالاً مستمراً.

ليس هناك معيار أوفى، ولا أدق، من الموقف الذي يتخذه أي فرد أو أي جماعة، أو أي حكومة، من قضية المقاومة ومساعدتها، والتمكين لها، وتدعيم جهودها.

النضال ضد الإستعمار والتخلف:

إننا ندرك، أن القوى المعادية لحرية الشعوب، لن تستطيع إيقاف ساعة التاريخ.. ولن تستطيع إعادة عقاربها إلى الوراء..

وأن أقصى ما تستطيعه هذه القوى، المعادية لحرية الشعوب، لا يمكن أن يكون أكثر من عارض عابر. ومع ذلك، فإننا لا نستطيع أن نعتمد على حركة التاريخ وحدها.. وإنما لا بد من تدعيمها بنضال مشترك عميق ومتسع..

أممت قنال السويس، وعادت القنال إلى أهلها.. إلى الشعب المصري إلى الشعب العربي.. وأخذ الحقد يتأجج في النفوس.. في نفوس أعدائنا. فقرروا العدوان، ولكن لم يكن من السهل عليهم أن يعتدوا بدون ذريعة.. بدون حجة.. ففكروا في إسرائيل.. أن تكون إسرائيل الذريعة.. وأن تكون إسرائيل الحجة.

وكانت بريطانيا تريد الحيلولة دون قيام قوة ذاتية وطنية في مصر، اقتصادية وسياسية وعسكرية.

وتريد أن تقمع بالإرهاب احتمالات تفاعل التأثير والتأثر، بما يخلق قوة كبرى في هذه المنطقة، تتحدى سيطرة الإستعمار عليها اقتصادياً وسياسياً.

فرنسا كانت تريد بالدرجة الأولى ضرب مصر، باعتبار مصر قاعدة لحركة الثورة العربية.

وكانت فرنسا تريد أن تحول دون مصر وأداء دورها المشروع والحق، في تأييد شعب

الجزائر.. كانت فرنسا تريد إخضاع القاهرة، وكانت تعتقد أنها بذلك تستطيع إخضاع ثورة الجزائر.

(عيد النصر في بور سعيد ٢٣/١٢/١٩٦٦)

إن ما حدث في فلسطين خطير. يوازي في خطورته ما يحدث أمامنا الآن في روديسيا الجنوبية.. إن لم يزد عنه خطورة. فإن الإستعمار اغتصب متخفياً وراء الحركة الصهيونية المتحالفة معه، قطعة من قلب الأمة العربية وطرد شعبها.. وأقام عليها وسط الأرض العربية قاعدة عدوانية مسلحة تهدد مطالب الحرية العربية، مطلب الوحدة العربية ومطلب التقدم العربي.

(مؤتمر عدم الإنحياز ١٥/١٠/١٩٦٤)

ففي الواقع فإن إسرائيل إلى جانب ما تحتويه من عدوان عنصري.. فهي أيضاً عدوان إستعماري، بل إنه لولا العدوان الإستعماري، ما تمكن العدوان العنصري من الإعتداء الذي اغتصب به ما اغتصب من الأرض الفلسطينية العربية.. وذلك يعني أننا نواجه ما نواجه من ظروف المرحلة، ضرورة تبين جبهة العدو على امتدادها، ومهما كانت أساليب التخفي والتمويه، فينبغي أن يدرك أننا لا نمارس مواجهتنا للمهمة وللمرحلة في فراغ..

(مؤتمر القمة العربي الثالث بالدار البيضاء ١٣/٩/١٩٦٥)

روديسيا العنصرية

إن مشكلة روديسيا ليست بعيدة عنا.. بل لربما كنا نحن أقرب إخواننا الإفريقيين إلى فهم طبيعتها، فهي في صميم الأمر تكرار لمؤامرة إسرائيل.. أقلية غريبة، تدعي لنفسها عنصرياً حقاً في وطن شعب آخر.. وتحت ظل الإستعمار.. تتقدم لتمسك بمفاتيح الثورة الوطنية والسلطة الفعلية.

ثم تفرض بالقوة سيطرتها، إلى حد إعلان استقلال مزعوم، ويتظاهر الإستعمار بعدم الرضا.. مع أنه يملك فرصة التغيير ووسائله، ولكنه في الواقع شريك نفس المخطط العدواني مهما تظاهر، ومهما كان التنويع في الأدوار..

إن تجارب الماضي.. وتجارب الحاضر.. تنطق أمامنا بالعبرة الأولى للتاريخ.. وهي أنه لا يقوم سلام إلا على العدل.. لا بالقوة ولا بتوازن القوى.. ولا بموازين الرعب..

وإنما بالعدل وحده.. يقوم ويدوم السلام..

(مجلس الأمة ٢٥/١١/١٩٦٥)

إن سلام عهد الأمبراطوريات الكبيرة قد اندثر . . فلقد قام على القوة وحدها تقمع بغير تردد كل مقاومة تتصدى لها، ناسية أنها في حقيقة الأمر تقاوم إرادة التطور والإرتقاء.

كذلك فإن سلام توازن القوى قد فشل. . ولقد قامت حربان عالميتان ثمناً لهذا الفشل. . الذي لم يكن منه مفر. فإن الأرض لا يمكن أن تتحول إلى غنيمة يتقاسم شرائحها الأقوياء بسيوفهم.

ثم رأينا في زماننا توازناً آخر، يراد له أن يقوم على موازين الرعب النووي. ولكن أخطار مثل هذا التوازن فادحة. . تنادينا جميعاً بأن نتحرك لإنقاذ السلام من القوة النووية الرهيبة، التي يجب أن تخدم السلام ولا تستخدمه. . وتحرره ولا تستعبده. .

هذا الشعب يسعى دائماً إلى السلام، لأنه يشعر بأن السلام هو السبيل الذي مكننا أن نبني وطننا، وأن نعوض ما فاتنا، ولهذا فإننا نؤمن بأن علينا مسئوليات تجاه السلام العالمي، وأن علينا أن نقوم بدورنا في المحافظة على هذا السلام، على أساس من العدل.

إن السلام يجب أن يكون قائماً على العدل. . لأن السلام الذي لا يقوم على العدل يصبح معناه التهديد باستخدام القوة.

* نحن على استعداد لأن نعطي من حجم العمل، ومن حجم الدم، ما هو لازم لترجيح كفة الحق والخير والسلام. .

* إن قواتنا المسلحة لا تستطيع أداء دورها على الوجه الأكمل، بغير تلاحم كامل بين الجيش والشعب. .

* إن قواتنا المسلحة لا تستطيع أداء دورها على الوجه الأكمل، بغير تلاحم من أجل التحرير مهما كانت الظروف لأن ذلك حقنا المشروع.

* إننا سوف نقاتل دفاعاً عن كل ذرة رمل في صحارينا. . وعن كل عود خضرة على سهولنا ووديانا. . وعلى ربانا الغالية العزيزة.

* الذين يقاتلون يحق لهم أن يأملوا في النصر. . أما الذين لا يقاتلون فليس يحق لهم أن ينتظروا شيئاً إلا القتل. .

* يد تعمل للبناء. . ويد تحمل المدفع.

* نحن الآن في معركة طويلة. . ونحن على استعداد لمعركة طويلة.

* نحن نبني طاقة الحياة والأمل والحرية. . والعدو يفجر القوى المدمرة للقتل والحريق والخراب. .

* إن تواريخ الشعوب العظيمة تكتبها دماء الشهداء..

* إن الآمال لا تتحقق جزافاً.. لكن الآمال تشتريها التضحيات وبمقدار ما يتسع الأمل يرتفع الثمن..

* إن مصدر القوة العظيمة هنا للثورة، هو أن الشعب قد تحرر وسوف يقدم الرجال واحداً بعد واحد.. ويصنع المعجزات معجزة بعد معجزة.. في ثبات وفي عزم وفي دوام..

* لكي نستطيع مواجهة العدوان.. فإنه من الضروري تدعيم الثورة الإجتماعية في مصر..

* لا يمكن أن نقبل السلام بمعنى الإستسلام..

* نحن نسعى للسلام من أجل السلام.. ونحن لا نريد الحرب لمجرد الحرب.. ولكن السلام له طريق واحد هو طريق انتصار المبادىء. مهما تنوعت الوسائل، ومهما زادت الأعباء والتضحيات..

* نحن نريد السلام.. ولكن السلام بعيد. ونحن لا نريد الحرب. ولكن الحرب من حولنا.. وسوف نخوض المخاطر مهما كانت، دفاعاً عن الحق والعدل..

الباب الرابع

محطات حاسمة في مسيرة الثورة
من ٢٣ يوليو/تموز ١٩٥٢
إلى ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٧٠

قيام الثورة

إن هذه الثورة ليست ثورة فرد، ولكنها ثورة شعب كان يطالب دائماً بحقه.

- **العملية : نصر**
- **ساعة الصفر : منتصف الليل**
- **اليوم : ٢٣ يوليو / تموز ١٩٥٢**

لخصت المبادىء الستة والتي أعلنتها الثورة بعد نجاحها وكذلك البيان الأول والذي أذيع باسم اللواء محمد نجيب وبصوت البكباشي أنور السادات فجر يوم ٢٣ يوليو أهداف وأسباب قيام هذه الثورة :

١ — القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة.

٢ ـ القضاء على الإقطاع

٣ ـ القضاء على الإحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم.

٤ ـ إقامة عدالة إجتماعية

٥ ـ إقامة جيش قوي.

٦ ـ إقامة حياة ديمقراطية سليمة.

البيان رقم واحد:

. . . اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون في هزيمتنا في حرب فلسطين.

. . . وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم ولا بد أن مصر كلها ستلقى هذا الخبر بالإبتهاج والترحيب.

. . . إني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور مجرداً من أية غاية.

في منتصف ليل ٢٣ يوليو ـ تموز ١٩٥٢ تحرك الضباط الأحرار في الجيش المصري بقيادة جمال عبد الناصر للقيام بثورة ناجحة أدت إلى الإطاحة بالنظام الملكي ـ نظام الملك فاروق ـ ونجحت قوات الثورة في الإستيلاء على مبنى هيئة الأركان ومراكز القيادة والإذاعة والمرافق الكبرى بالقاهرة.

في الساعة السابعة صباحاً أذاع اللواء محمد نجيب بياناً إلى الشعب أعلن فيه قيام الجيش بحركة ثورية تستهدف صالح الوطن. وفي اليوم نفسه استقالت وزارة أحمد نجيب الهلالي. وفي ٢٤ يوليو ـ تموز وافق الملك على طلبات الجيش وأهمها تعيين محمد نجيب قائداً عاماً للجيش وتشكيل حكومة جديدة برئاسة علي ماهر وإبعاد الفاسدين من حاشية الملك.

وفي ٢٦ يوليو طالب الجيش بتنازل الملك فاروق عن المُلك لولي عهده ليرحل مساءً إلى إيطاليا.

تألف مجلس الوصاية ثم ألغي حينما أصدر مجلس قيادة الثورة (١٨ حزيران - يونيو ١٩٥٣) بياناً بإعلان الجمهورية وإلغاء النظام الملكي في مصر.

تألف مجلس قيادة الثورة من الضباط:

جمال عبد الناصر، أنور السادات، حسن ابراهيم، حسين الشافعي، جمال سالم، زكريا محي الدين، صلاح سالم، عبد الحكيم عامر، عبد اللطيف البغدادي، خالد محي الدين، محمد نجيب.

وقد أبعد المجلس خالد محي الدين ومحمد نجيب عام ١٩٥٤ وألغي المجلس بانتهاء فترة الإنتقال وصدور الدستور في شهر حزيران - يونيو ١٩٥٦ حيث تولى عبد الناصر رئاسة الجمهورية.

أحدثت الثورة زلزالاً لم يقتصر صداه على الوطن العربي وعلى دول عدم الإنحياز فقط بل تخطاها للعالم أجمع حيث فرضت هذه الثورة نفسها بأهدافها ومبادئها على مسيرة الصراع بين قوى التحرير والإستعمار فانحازت لقوى التحرر والإستقلال مما جعل حجم التضحيات الذي قدمتها كبيراً جداً بحجم التحديات التي واجهتها.

***

الجلاء

(إن نضـال شـعبنا يعكس نفس صورة كفاحنا، قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كيف كانت أحوال بلادنا؟ الاحتلال إنجليزي ... قوات بريطانية، ٨٠ ألف عسكري يتربصون بنا ويرفضون أن يعطونا الاستقلال.)

في ١٩ أكـتوبر ١٩٥٤ تقـرر جلاء القوات البريطانية جلاءً تاماً عن الأراضي المصرية خلال فتـرة عشرين شهراً ـ وتقرر إنهاء معاهدة ١٩٣٦ والتي رسمت حينها معاهدة الصداقة والتحالف بيـن مصر وبريطانيا.

قـاد جمـال عـبد الناصر مفاوضات الإجلاء للقوات البريطانية و لم يكن من السهل والممكن إخضـاع بريطانيا لمنطق الثورة بأن الاستقلال الحقيقي هو استقلال الإرادة إذ لا يمكن التعايش بين الاستقلال ووجود ثمانين ألف جندي محتل بريطاني في القناة.

حاول الاستعمار البريطاني المراوغة بالانسحاب تارة بالتهديد وطوراً بالترغيب.

لكن جمال عبد الناصر كان قاطعاً وقف يعلن قطع المباحثات:

الانسحاب دون قيد أو شرط.

كسر احتكار السلاح(*)

إننا حينما نستطيع أن نسلح جيشنا بلا قيود

ولا شروط نعصى على التحكم . التحكم

الذي كنت أشعر به وكنتم تشعرون به تحت اسم التسلح .

كان يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٥ والأيام القليلة التي تلته فترة غريبة ومثيرة في القصة المعقدة للعلاقات المصرية الأمريكية .

في ذلك اليوم ٢٦ سبتمبر كانت عناصر الصورة كما يلي :

● " جون فوستر دالاس" في حالة هياج في واشنطن ، فقد تأكد له ما رفض لزمن طويل تصديقه من أن جمال عبد الناصر سوف يلجأ إلى السوفييت ليحصل منهم على ما عز الحصول عليه من الولايات المتحدة : سلاح يدافع به عن مصر وعن الأمة العربية ضد غارات إسرائيل المستمرة على مواقع الحدود المصرية ، وعلى مواقع خطوط الجبهة الأردنية .

في ذلك اليوم جاءه شقيقه الان دالاس ، مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، يقدم له تقريرا موثوقا حصلت عليه إدارته من براغ – عاصمة تشيكوسلوفاكيا – يفيد أن صفقة سلاح قد عقدت بالفعل بين مصر والاتحاد السوفييتي .

● " جون فوستر دالاس" يخطر السفارة الأمريكية في القاهرة بأن مبعوثا يمثل الرئيس الأمريكي هو الآن في طريقه إلى القاهرة ، ويصلها مساء يوم ٢٧ سبتمبر ، وعلى السفارة أن تطلب موعدا مع الرئيس جمال عبد الناصر ، وأن يتولى هنري بايرود بنفسه عملية ترتيب هذا الموعد .

و لم يكن "دالاس " يعرف بطبيعة الحال أن العلاقات بين "هنري بايرود " وجمال عبد الناصر مقطوعة منذ أيام بسبب حادثة المستر فينش الملحق العمالي في السفارة ، والطريقة التي عرض بها بايرود هذه الحادثة في العشاء الذي إقامة الدكتور أحمد حسين قبل ذلك بأيام .

وهكذا وجدت نفسي في خضم الحوادث الغريبة والمثيرة لهذه الفترة ولهذا فإني أؤثر أن أنقلها من دفتر مذكراتي عن تلك الأيام .

صباح الثلاثاء ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥

المصدر : محمد حسنين هيكل ، كتاب قصة السويس .

في الساعة الواحدة والثلث صباحاً رن التليفون بجوار فراشي، ومددت يدي نصف نائم أرد عليه.

كان المتكلم هو «إيكلبرجر» الوزير المفوض في السفارة الأمريكية، وكان صوته غريباً، فلم يكن فقط في حالة انفعال، وإنما أظنه أيضاً كان في حالة زاد معها العيار ثلاثة كؤوس أو أربعة.

قلت له:

ـ «ايك» ـ كما نسميه اختصاراً لاسم ايكلبرجر ـ ماذا حدث لتوقظني في هذه الساعة؟

وقال:

ـ شيء خطير جداً. . . هل عقدتم صفقة أسلحة مع الإتحاد السوفييتي؟

قلت:

ـ ماذا تقول؟ وما الذي يدخلني في مثل هذا الموضوع، وهو أمر يخص العسكريين بالدرجة الأولى؟ ثم أما كان بمقدورك الإنتظار حتى الصباح؟

وقال ايكلبرجر:

ـ محمد. . . الموضوع جد. . . الموضوع خطير. . . وهو بالغ الخطورة، وهو لا يتصل بالعسكريين كما تقول، ولكنه قرار سياسي، وقد وقع فعلاً، وقد تلقت واشنطن معلومات عنه من براغ، ثم إننا هنا حصلنا على تأكيد له من صحفي يراسل مجلة أمريكية، وكان في هذا المساء مع مصدر مصري كبير، وتحقق له مما سمع أن الصفقة عقدت فعلاً.

وقلت:

ـ ذلك أمر لا علم لي به.

وقال وانفعاله يشتد، والكلمات يزداد اعوجاجها على لسانه:

ـ أرجوك. . . أرجوك أن تتصل بالرئيس الآن فوراً. . . . أرجوك أن تنصحه بالإنتظار لأن هناك رسولاً موفداً إليه من الرئيس الأمريكي.

من الأهمية بمكان أن تنتظروا. . . أرجوك. . . أن تلح على الرئيس ناصر أن لا يحرق جسوره.

وقلت:

ـ «ايك»، إنني لا أعرف ما تتحدث عنه، ولكني على أي حال سوف أتصل بالرئيس في الصباح وأروي له ما سمعت منك.

وقال ايكلبرجر:

ـ بل الآن تتصل به أرجوك. . . لا تنتظر إلى الصباح. . . كل دقيقة لها قيمتها.

وقلت:

ـ سوف أرى ما أستطيع عمله.

وضعت سماعة التليفون مكانها ورحت أفكر.

بعد عشر دقائق اتصلت بالضابط النوبتجي في بيت جمال عبد الناصر وسألته عما إذا كان الرئيس نائماً، أو هو بعد ساهر مع بعض عمله أو بعض زواره.

قال لي الضابط النوبتجي بعد أن غاب عن التليفون دقيقة أو أقل أنه نظر من نافذة غرفته إلى نافذة غرفة نوم الرئيس ووجد أنوارها مطفأة ولا بد إذن أن الرئيس نائم.

وترددت ثم قلت:

ـ هناك مسألة هامة ولكنها تستطيع ـ فيما أظن ـ أن تنتظر حتى الصباح.

. . . .

. . . .

صباح الثلاثاء ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥

في الساعة الثامنة والثلث صباحاً اتصلت مرة أخرى بالضابط النوبتجي في بيت جمال عبد الناصر أسأل إذا كان الرئيس قد استيقظ من نومه.

قال لي الضابط النوبتجي أن الرئيس قد استيقظ مبكراً، وأنه طلب صحف الصباح في غرفة نومه في الساعة السابعة والربع، وسألني الضابط النوبتجي عما إذا كنت أريد أن يحول مكالمتي على غرفة نوم الرئيس، وقلت له أنني سوف أطلبه على التليفون المباشر في غرفة النوم.

وفعلت.

سألت جمال عبد الناصر عما إذا كنت أستطيع مقابلته، وقال: تعال الآن.

ذهبت إليه. وجدته بانتظاري في غرفة المكتب يرتدي بنطلوناً رمادياً وقميصاً أبيض. رويت إليه حديث «ايكلبرجر». كان ينصت باهتمام. كان أول تعليق له هو قوله:

ـ لا يدهشني أنهم عرفوا الآن. . . وإنما يدهشني أنهم لم يعرفوا قبل الآن!

واستطرد وكأنه يتحدث مع نفسه، وفي الحقيقة فإنه ـ فيما بدا لي ـ كان يفكر بصوت عال:

نحن أمام مشكلة.

ليست المشكلة أننا عقدنا صفقة سلاح مع الإتحاد السوفييتي، فذلك أمر يخصنا ولا نسمح لهم أو لغيرهم بالتدخل فيه، وعلى أي حال فحين اتخذنا قرارنا كنا نعرف أن القرار سيضعنا في موقف صدام مع أمريكا.

المشكلة التي نحن أمامها الآن هي هذا الرسول الموفد من إيزنهاور.

إذا جاء وسألني، فسوف أقول له: نعم، لقد عقدنا صفقة سلاح مع الإتحاد السوفييتي، وهذا قرار يخصنا وحدنا ولا يخص غيرنا.

ولكن المسألة هي: لماذا أعطيهم هم حق سؤالي «بلا» أو «بنعم» ولماذا يكونوا هم أول من أقول لهم ما حدث، في حين أن الشعب في مصر لا يعرف، وكذلك لا تعرف بقية الشعوب العربية، وهم جميعاً سندنا في الصدام القادم بسبب صفقة السلاح مع الإتحاد السوفييتي».

واستطرد جمال عبد الناصر:

ـ الحل الوحيد لهذه المشكلة هو أن نعلن اليوم نبأ الصفقة وأن يجيء الإعلان بطريقة تبدو وكأنها طبيعية، فلا يظهر لهم أننا قفزنا إلى إصدار بيان رسمي ـ مثلاً ـ فور سماعنا منهم بأنهم عرفوا بنبأ الصفقة».

توقف جمال عبد الناصر عن الكلام. مد يده إلى سماعة التليفون على المكتب فرفعها يتصل بمكتبه. الرئيس يسأل سكرتيره عما إذا كانت هناك مناسبات عامة دعي الرئيس لحضورها. سكرتيره يقول له أنه ليس أمامه شيء يشير إلى مناسبة عامة دعي الرئيس لحضورها. الرئيس يقول له: «إبحث»، ويضع سماعة التليفون، ويستطرد في حديثه معي:

ـ سوف أجد مناسبة أعلن فيها نبأ صفقة السلاح اليوم، لأني لا أريد لمبعوث ايزنهاور أن يجيء ليسألني: «حدث أم لم يحدث؟» وإنما أريده حين يجيء أن يجد نفسه أمام أمر واقع، ويكون سؤاله لي: «ثم ماذا بعد الآن؟»».

تحدثنا في احتمالات «ماذا بعد الآن؟»، وما هي فحوى الرسالة التي يحملها مبعوث ايزنهاور؟ أي تأثير للإعلان قبل وصوله وقبل تسليم الرسالة؟ تركت جمال عبد الناصر لبرنامج عمله اليومي وعدت إلى مكتبي.

اتصل بي جمال عبد الناصر في الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة بعد الظهر. جاءني صوته على التليفون يقول بمرح:

– ألا تريد أن تحضر حفلة افتتاح معرض صور تقيمه إدارة الشؤون العامة بالقوات المسلحة في مبنى المعرض في الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم ؟

واستطرد :

– لم أجد مناسبة عامة يمكن أن أعلن فيها ما أريد إعلانه غير هذه المناسبة .

لقد وجدت الخبر في إحدى الصحف ، واتصلت بمدير الشؤون العامة بالقوات المسلحة أسأله : ألا تريد أن أحضر لافتتاح المعرض مساء اليوم ؟ وذهل الرجل ، وأظنه ما زال حتى هذه اللحظة مذهولاً يضرب أخماساً في أسداس ؟ !

مساء الثلاثاء ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ ذهبت إلى معرض الصور الذي أقامته إدارة الشؤون العامة للقوات المسلحة في سراي الجزيرة . جاء جمال عبد الناصر بعد الخامسة بدقائق . طاف بلوحات الصور المعروضة ، ثم توجه إلى قاعة صغيرة يلتقي فيها بالمدعوين لحضور حفل افتتاح المعرض ، وبينهم عدد كبير من المصورين الذين اشتركوا فيه .

فجر قنبلته السياسية الكبرى ... أكبر قنبلة أمام اصغر جمهور وقف خطيباً أمامه، ومع ذلك فهم لا يعرفون أنهم بالنسبة له كانوا فرصة نزلت عليه من السماء. علينا الآن أن نستعد للسؤال الكبير . ثم ماذا بعد الآن ؟ .

دخل جمال عبد الناصر إلى القاعة وبدأ يتكلم : " .. إننا حينما نستطيع أن نسلح جيشنا بلا قيود ولا شروط نقضي على التحكم ... التحكم الذي كنت أشعر به وكنتم تشعرون به تحت اسم التسلح... وتحت اسم الإمداد بالسلاح فهؤلاء الذين يتكلمون عن النفوذ الأجنبي يعرفون أننا نقصد القضاء على النفوذ الأجنبي ..

قدمنا طلب التسلح باسم مصر إلى أمريكا وإنجلترا وفرنسا وإلى روسيا وإلى تشيكوسلوفاكيا .. إلى باقي الدول . وانتظرت الرد .. وانتظرت الرد .. المسألة بالنسبة لنا كانت مسألة حياة أو موت .. فماذا كانت النتيجة ؟ وصلتني ردود من بعض الدول توافق على تسليح الجيش ولكن بشروط

رفضنا كل هذه الشروط .. وانتظرنا حتى وصلنا رد هذا الطلب من حكومة تشيكوسلوفاكيا تقول أنها مستعدة أن تمدنا بالسلاح حسب حاجتنا وحسب حاجة الجيش وبالطريقة التي تناسبنا .. على أساس تجاري وعلى أساس المقايضة ثمن السلاح منتجات مصرية قطن أو أرز فقبلنا في الحال ، قبلنا هذا العرض شاكرين " .

تأميم قناة السويس

باسم الأمة.. رئيس الجمهورية..

مادة واحد : تؤمم الشركة العالمية

لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية .

ظهر الخميس ١٩ يوليو ١٩٥٦ ، أبلغت الولايات المتحدة الأمريكية مصر وعبر وزير خارجيتها حينها جون فوستر دالاس القرار الأمريكي بسحب عرضها في تمويل السد العالي ، هذا السد الذي كـــان حلم الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر في سبيل تنميتها الاقتصادية والاجتماعية وتأكيد استقلالها الوطني .

... لعلي لا أتجاوز إذا قلت إنني كنت أول من سمع بعبارة "تأميم قناة السويس " تخرج من فم جمال عبد الناصر باعتبارها خطوته القادمة في لعبة الشطرنج الهائلة التي كانت تجري في ذلك الوقت من يوليو ١٩٥٦ على رقعة الشرق الأوسط (*) .

كـــانت اللعبة السابقة لعبة دالاس ، سحب فيها عرض المساهمة الغربية في تمويل السد العالي ، واعتبر تلك اللعبة آيته الكبرى التي تدفع جمال عبد الناصر إلى الحافة وتهوي به وراءها بعد أن رفض ناصر كل الشروط الأمريكية وأهمها الصلح مع إسرائيل لتمويل السد .

وعندما ذهبت إلى لقاء جمال عبد الناصر بعد ظهر يوم السبت ٢١ يوليو ، بادرني بقوله :

– إذن فقد استنتجت الخطوة التالية التي أفكر فيها ؟

ولم ينتظر حتى أجيب ، بل استطرد قائلاً :

– ما رأيك ؟

وقلت :

– مسألة كبيرة وخطيرة ... كبيرة جداً وخطيرة جداً .

(المصدر السابق) .

وقال:

ـ كبيرة جداً وخطيرة جداً بالفعل، ولا بد أن نحسب كل شيء فيها بدقة، ولو فعلنا وتحملنا بمسئوليتها ومخاطرها فإنها في اعتقادي تكون الحل الأمثل من عدة نواحي.

نستطيع بدخلها تمويل السد العالي.

نسترد بتأميمها حقاً مصرياً يراود أحلام المصريين.

نؤكد بذلك استقلالنا الكامل واستقلال إرادتنا السياسية.

نضيف قيمة القناة إلى أرصدة مصر الإستراتيجية.

واستطرد:

ـ إنني طول اليوم أفكر في هذا الموضوع، وقد عدت إلى أيام عملي كضابط «أركان حرب» وكتبت تقديري لموقفنا على الورق... وفوق ذلك كتبت تقديري لمواقف الأطراف الأخرى.

وراح يتطلع إلى مجموعة أوراق أمامه ملأها كتابة بخطه المشهور بزواياه الحادة...

سبعة أوراق من حجم نصف فولسكاب بالطول... والكتابة عليها بالقلم الرصاص، وأول صفحة فيها عنوانها: «موقفنا»، وتحت العنوان خط.

ثم تداعت أفكاره من خلال الحديث، وأحسست أنه وهو يتحدث إلي إنما يفكر بصوت عال، ويحاول مراجعة ما توصل إليه.

قال:

ـ لنترك تقدير موقفنا... كل ما فيه تستطيع أن تتصوره.

أهم ما فيه أنه لا بد لنا أن نبني السد العالي لأهميته في مستقبلنا، ثم لأن السد أصبح رمزاً لقيم حيوية بالنسبة لنا، أولها قيمة الإعتماد على النفس.

ولكي لا يكون تصميمنا على بناء السد العالي اعتماداً على أنفسنا مجرد «إنشاء»، فإنه لا بد لنا من تدبير موارد إضافية، وقناة السويس مورد حقنا الشرعي فيه ثابت، واستردادها علينا واجب، فضلاً عن أن دخلها كله بالنقد الأجنبي، وهو ما نحتاج إليه تماماً.

تأميم قناة السويس من الناحية العملية هو الحل النموذجي... والآثار السياسية لمثل هذا الحل ظاهرة وواضحة.

نترك هذا كله إلى موقف الآخرين.

واستطرد جمال عبد الناصر:

- الخطر الذي يجب أن نحسب حسابه هو احتمال التدخل العسكري، وسوف يكون ذلك أول ما يفكرون فيه. . .

حاولت أن أحصر الأطراف التي يمكن أن تفكر في التدخل العسكري.

نظرياً، كلهم يستطيعون التفكير في التدخل العسكري لأول وهلة، ولكن بعضهم سوف يتردد عندما يفكر في الموضوع مرة ثانية.

الولايات المتحدة لن تقدم - فيما أتصور - على تدخل عسكري لأن ذلك بالنسبة لها إفلاس سياسي أمام دولة صغيرة كمصر.

فرنسا هي الأخرى لا تستطيع أن تتدخل بمفردها، فهي مشغولة بحرب الجزائر، ووضعها العالمي كله - خصوصاً بعد هزيمة الهند الصينية - لا يمكنها من عمل مسلح ضد مصر.

إسرائيل أيضاً قد تفكر في التدخل ولكنها لا تستطيع اتخاذ تأميمنا لقناة السويس ذريعة لشن الحرب، ثم أن تدخل إسرائيل ضدنا سوف يجعل معركتها ضد مصر حرباً ضد الأمة العربية كلها، وهذا يفرض على أمريكا محاولة «فرملة» إسرائيل، ثم أن إسرائيل من مصلحتها أن تنتظر لكي ترى أن صراعنا مع الغرب كله يشتد ويعنف.

الطرف الذي أخشى من تدخله هو بريطانيا، وأعتقد أن بريطانيا سوف تفكر في التدخل لأول وهلة، وعندما تفكر في الأمر ثانية سوف يزداد إصرارها على التدخل.

واستطرد جمال عبد الناصر:

من هنا الموقف البريطاني. . . هو مفتاح الموضوع كله.

كيف تتصرف بريطانيا، وكيف يتصرف إيدن؟

المشكلة أن ايدن في موقف ضعيف. . . ولأنه ضعيف فإنه قد يكون عنيفاً.

كانت منطقة الشرق الأوسط هي المنطقة التي يريد أن يثبت فيها نفسه باعتباره خبير في شؤونها كما يقول، ثم باعتبارها المنطقة التي لم يتم ترتيب أمورها في وقت تشرشل. . . في وقت تشرشل رتبت الأمور في أوروبا بحلف الأطلنطي، ورتبت الأمور في آسيا بحلف جنوب شرق آسيا.

الشرق الأوسط بقي وحده بغير ترتيب غربي، وكان ايدن يعتبر أن هذه هي المنطقة التي تدعوه إلى التدخل فيها لترتيب أمورها، لكنه حين بدأ يفعل ذلك شاءت الظروف أن نكون نحن المتصدين له.

منذ وقت خروج جلوب من الأردن، بدأ يعتبرني عدوه الرئيسي في المنطقة، وقد فكروا في عمليات اغتيال، وفي تدبير انقلاب، ولم ينجحوا حتى الآن، ولكنهم في حالة تعبئة نفسية ضدنا إلى الحافة.

وخطوة مثل تأميم قناة السويس سوف تكون القشة التي تقسم ظهر البعير، ويصبح ايدن تحت ضغوط نفسية من داخله وضغوط سياسية من حزبه ومن الرأي العام البريطاني، تدفع كلها إلى التدخل المسلح ضدنا، خصوصاً وأن الجو الدولي العام الذي سيخلقونه بدعايتهم حول تأميم قناة السويس سوف يعطيه الأرضية الصالحة للتدخل المسلح.

لكنه هنا لا بد أن يتصرف فوراً ليستفيد من هذا الجو الدولي العام.

لا بد أن يتصرف فوراً، وفي ظرف أسبوع على الأقل، وإلا بدأ الجو العام يبرد يوماً بعد يوم.

تقديري أن التدخل العسكري ضدنا سيكون بنسبة ٨٠ في المائة خلال أسبوع من قرار التأميم.

إذا مضت هذه الفترة الحرجة فسوف تتناقص احتمالات الخطر.

في الأسبوع الثاني والثالث من أغسطس سوف يكون الخطر بنسبة ٦٠٪.

في الأسبوع الرابع من أغسطس سوف يكون الخطر بنسبة ٤٠٪.

خلال شهر سبتمبر سوف يكون الخطر بنسبة ٣٠٪.

حتى نهاية أكتوبر سوف يكون الخطر بنسبة ٢٠٪، ثم يبدأ في التلاشي بعد ذلك لأن الفرصة تكون قد أفلتت تماماً.

واستطرد جمال عبد الناصر، وهو ينقل بصره ما بين أوراقه المكتوبة، وما بين عيني يحاول أن يقرأ فيهما تأثيرها بقوله علي:

ـ على هذا الأساس أمامنا سؤال يتقدم غيره من الأسئلة:

ـ ما هي القوات الجاهزة في منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض مما يستطيع ايدن أن يستعمله لعملية عسكرية فورية ضدنا؟

إذا كانت لديه قوات جاهزة كافية، فمعنى ذلك أن التدخل المسلح ضدنا حتمي.

وإذا لم تكن لديه قوات جاهزة، فما هو الوقت الذي سيمضي من الآن وحتى تجهز قواته؟»

واستطرد:

ـ يجيء بعد ذلك سؤال آخر: ما نستطيع نحن أن نفعل في فترة الوقت التي تمضي من الآن وحتى يكون جاهزاً للتدخل، وهل نستطيع القيام بمبادرات سياسية تطوق احتمال تدخله حينما تجهز قواته.

ـ إذا فرغنا من ذلك، فلنا أن نبحث ما هي أشكال التدخل المحتملة:

● هل يحاول بالأسطول أيضاً ـ كما فعل الأميرال سيمور أيام عرابي ـ أن يضرب الإسكندرية أو بور سعيد من البحر... ذلك لا يكفي في رأيي، فضلاً عن أن عرابي لم يكن يملك مقاتلات وقاذفات تستطيع الإغارة على قطع الأسطول البريطاني المعتدية.

● هل يحاول القيام بعملية إنزال في بور سعيد تمهيداً لاحتلال منطقة القناة؟ هل يحاول عملية إسقاط مظلات حول القاهرة؟

مثل هذه العمليات ـ الإنزال أو الإسقاط ـ لا بد من تعزيزها خلال أربعة وعشرين ساعة بجيش كبير. وإلا تعرضت قوات الإنزال أو الإسقاط لخطر حصارها وإبادتها.

ثم من أين يمكن أن يجيء جيش التعزيز... من ليبيا مثلاً... أو من قبرص؟

هذا كله يعود بنا إلى السؤال الأصلي:

● ما هو حجم القوات البريطانية القريبة منا، وما هي درجة استعدادها؟

إذا أجبنا على هذا السؤال، استطعنا بدقة أن نحسب كل عوامل موقفنا حساباً دقيقاً نستطيع التصرف على أساسه.

صباح يوم الأحد ٢٢ يوليو كان جمال عبد الناصر يحاول أن يجد الإجابة على سؤاله الحيوي الذي يتوقف عليه كل شيء:

● ما هو حجم القوات البريطانية في الشرق الأوسط والبحر الأبيض والبحر الأحمر، وما هي درجة استعداد هذه القوات؟

وكانت هناك عدة جهات كلفها جمال عبد الناصر بالبحث والتقصي.

وكانت هناك ميادين محددة لكل جهة من هذه الجهات تبحث فيها وتتقصى.

كان جمال عبد الناصر يتصور أن بإمكانه إعلان تأميم قناة السويس يوم الإثنين ٢٣ يوليو في الإحتفال بالعيد الرابع للثورة، ولكن صباح ٢٣ يوليو بدأ والمعلومات لم تصل بعد لتجيب على السؤال الحيوي الذي يتوقف عليه كل شيء.

ثم وجد جمال عبد الناصر نفسه ـ وهو يفكر في الإعلان عن قرار التأميم ـ يواجه سؤالاً آخر أمامه:

ـ «على فرض أن المعلومات جاءت وكان قراره على أساسها إعلان تأميم قناة السويس، فأين هو الجهاز المصري الذي يتولى مسئولية العملية؟ ومن الذي يقود مثل هذا الجهاز؟».

وذهب جمال عبد الناصر إلى احتفالات يوم ٢٣ يوليو، وقد اقتصرت سنتها على حفل لإفتتاح خط أنابيب البترول بين السويس ومسطرد، وكان مقرراً أن يتحدث عبد الناصر في هذا الإحتفال، ولكنه ذهب إليه بأسئلته كلها معلقة في الهواء دون جواب يطمئن إليه ويتصرف على أساسه، وتصور أن يعتذر عن الحديث في ذلك الإحتفال على وعد بأن يتحدث بعد ثلاثة أيام في احتفالات الإسكندرية بذكرى خروج الملك في ٢٦ يوليو، ولكنه وجد اعتذاره عن الكلام قد يساء تأويله دولياً وعربياً، وأبسط ما يمكن أن يستنتج من هذا الإعتذار هو أنه ليس لدى مصر ما ترد به على التحدي الأمريكي، وما تنقذ به حلمها المستقبلي الكبير في السد العالي من حافة الهاوية.

وبدأت مراسم الحفل، وطاف جمال عبد الناصر بأرجاء محطة نهاية خط الأنابيب، ولا أظنه رأى كثيراً من معالمها، فقد كان ذهنه مشغولاً تماماً بأشياء أخرى، وجلس يستمع إلى خطاب المهندس محمود يونس الذي أشرف على بناء الخط، وفجأة لمع خاطر... أمامه على الإجابة على سؤاله الثاني: جهاز تنفيذ عملية تأميم قناة السويس، والرجل الذي يقود ذلك الجهاز.

وفرغ محمود يونس من خطابه، ووقف جمال عبد الناصر على المنصة، ولا أظنه كان قد فكر قبلها في تفاصيل ما يمكن أن يتحدث به إلى الناس... كان الخطاب فعلاً من وحي اللحظة، ولم يكن قادراً على أن يترك نفسه على سجيتها ويسترسل مع الحديث كما يجيء، وأظنه لم يبق من خطابه في مسطرد إلا عبارته الشهيرة موجهة إلى الذين سحبوا عرض المساهمة في تمويل السد العالي جميعهم: «موتوا بغيظكم»، وكانت هذه العبارة ترجمة لمزاجه، منفصلة عما كان يدور في رأسه.

وحين انتهى من الإحتفال، وعاد إلى سيارته، ومشى معه محمود يونس يودعه، لم يزد جمال عبد الناصر على أن قال له:

ـ محمود... أفرغ من بقية ما لديك الآن هنا، واتبعني.»

وتبعه محمود يونس.

وقضى معه بقية يوم الإثنين ٢٣ يوليو كله، وعاد إليه يوم الثلاثاء ٢٤ يوليو بخطط التنفيذ وخريطة إنشاء جهاز صغير يقود عملية تأميم قناة السويس، وإدارة القناة بعد تأميمها، وكانت

لجمال عبد الناصر ملاحظات عليها، وأعيدت الدراسة، ثم جاء محمود يونس صباح يوم الأربعاء ٢٥ يوليو بالصورة الكاملة.

ومع ذلك فقد كانت الصورة الكاملة حتى هذه اللحظة مجرد استعداد لقرار محتمل، ذلك أن صدور قرار نهائي كان ما زال بعد معلقاً بسؤال لم تتحدد الإجابة عليه، حول حجم القوات البريطانية الموجودة في منطقة الشرق الأوسط ودرجة إستعدادها.

وحين بدأ جمال عبد الناصر يعد الخطوط العريضة لخطابه يوم ٢٦ يوليو، فإنه أعد في الحقيقة مشروعين:

مشروع يؤدي سياقه إلى إعلان قرار تأميم قناة السويس.

ومشروع آخر يتحدث عن الموقف وتفاصيله، وينتهي بأن مصر لن تسكت، وأنها ستبني السد العالي ولو حتى «بالمقاطف».

وكان جمال عبد الناصر يعرف أن أمامه فرصة ثالثة للكلام أمام الناس في احتفالات جامعة الإسكندرية، وخطر له أنه يستطيع تأجيل هذا الإجتماع لأي سبب لمدة يومين أو ثلاثة، لو اقتضى الأمر، ويعلن فيه قرار تأميم قناة السويس إذا جاءته الإجابة على سؤاله الحيوي.

مساء يوم الأربعاء ٢٥ يوليو اتخذ جمال عبد الناصر قراره العظيم.

في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم جاءته تفاصيل ما كان يحاول أن يسأل عنه، واكتملت أمامه صورة عن أوضاع القوات البريطانية في المنطقة ودرجة استعدادها. . . وأثبتت الأيام فيما بعد أن هذه الصورة كانت دقيقة إلى حد كبير، وأن الإستنتاجات التي قامت على أساسها كانت سليمة في معظم ما توصلت إليه.

كانت الصورة كما يلي:

● القوة البحرية البريطانية في المنطقة: حاملة طائرات راسية الآن في مالطا.

ثم مدمرة واحدة في البحر الأبيض تقوم بأعمال الدورية أحياناً في مثلث يمتد بين قبرص والإسكندرية وحيفا.

ثم مدمرة واحدة في البحر الأحمر في طريقها الآن من بور سودان إلى عدن.

● القوات البرية في المنطقة:

الفرقة العاشرة المدرعة في ليبيا.

فرقة الهوسار ـ مشاة ـ في الأردن.

مجموعة قوات في قبرص تتكون من: لواء الحرس الثالثة المشاة ـ لواء الكوماندوز الثالث ـ لواء مظلات.

وقرأ جمال عبد الناصر تقرير المعلومات المعروض عليه عن أوضاع القوات البريطانية في المنطقة ودرجة إستعدادها، وأعاد قراءته أكثر من ثلاث مرات، وقارن المصادر المتعددة للمعلومات ببعضها، ثم كتب بخط يده تحت التقرير حاشية تتضمن مجموعة ملاحظات نصها ـ كما نقلته فيما بعد من الوثيقة الأصلية حين كنا نحاول تسجيل قصة السويس كاملة، وأظن أن الوثيقة الأصلية موجودة حتى اليوم في خزانة مكتب الرئيس جمال عبد الناصر في الدور الأرضي من بيته ـ كما يلي:

- لا تستطيع الحكومة البريطانية أن تتدخل عسكرياً ضدنا بالفرقة المدرعة الموجودة في ليبيا. صعب استعمال بلد عربي كقاعدة لغزو بلد عربي آخر.
- نفس الشيء ينطبق على فرقة المشاة الموجودة في الأردن.
- قوات قبرص غير كافية لأية عمليات.
- قوات الأسطول عاجزة عن الهجوم أو المعاونة.
- يمكن للحكومة البريطانية أن تنسق مع الحكومة الفرنسية لعملية مشتركة، ولكن القوات الفرنسية مشغولة بالجزائر، وعملية نقلها وتعبئتها والإتفاق على عمليات مشتركة، تحتاج إلى ثلاثة شهور على الأقل.
- مستحيل أن تلجأ بريطانيا وحدها، أو بريطانيا بالتنسيق مع فرنسا، إلى الإستعانة بإسرائيل في أي عملية ضد مصر لأن ذلك «يقلب الدنيا» في العالم العربي ضدهما. بريطانيا لا يمكن أن تدخل في عملية من هذا النوع بالتنسيق مع إسرائيل.. ولا يمكن لايدن أن يفعل ذلك بسبب المصالح البريطانية والعلاقات اليريطانية مع الملوك والشيوخ العرب.

. . . .

. . . .

وتلقى محمود يونس الإشارة النهائية بالمضي قدماً في الخطة.

وأخرج جمال عبد الناصر قلماً من جيبه وقع به مرسوم تأميم الشركة العالمية لقناة السويس، وكان مشروع المرسوم قد أعد ـ تحسباً وانتظاراً ـ بواسطة لجنة رأسها السيد محمد أبو نصير الوزير الأسبق ـ رحمه الله ـ وكان من أعضائها البارزين الدكتور الحفناوي الذي كان أكبر الخبراء المصريين في كل ما يتعلق بشركة قناة السويس فضلاً عن حماسته الزائدة والدائمة لتأميمها.

وكان يوم الخميس ٢٦ يوليو ١٩٥٦ يوماً من أروع الأيام في تاريخ العرب الحديث، وفي القصة الحافلة لحياة جمال عبد الناصر.

دعا إلى إجتماع مشترك لمجلس الوزراء وأعضاء مجلس قيادة الثورة، وعقد الإجتماع في بيت كان يستأجره تلك السنة في الإسكندرية، وهو بيت مقام على ربوة مجاورة للعمارة الضخمة التي يملكها صندوق تأمين القوات المسلحة قرب شاطىء سان استفانو.

وانعقد الإجتماع في الساعة الخامسة بعد الظهر، واستمع حضوره إلى القرار وموجباته وأهدافه، وكان معظمهم يسمع بموضوع تأميم قناة السويس لأول مرة، بل لعلي أقول أن الذين كانوا يعرفون السر الكبير من بين المشتركين في هذا الإجتماع لم يكن عددهم يزيد على خمسة.

وجرت مناقشة كان الكل فيها مأخوذاً بجرأة القرار وجسارته.

ثم جاء الوقت ليتحرك الموكب من بيت عبد الناصر إلى ميدان المنشية، حيث تنتظر جماهير ضخمة سماع خطاب جمال عبد الناصر.

وتحركت سيارته ووراءها سيارات بقية حضور الإجتماع والمشتركين فيه.

كان الخطاب الذي حفظته الأمة العربية كلها عن ظهر قلب، وكانت كلمة السر فيه أن ينطق جمال عبد الناصر بإسم «فرديناند دليسيبس» فيعرف محمود يونس ويعرف المشتركون معه في عملية الإستيلاء على شركة قناة السويس في مقرها الرسمي في القاهرة، أو في مقرها العملي الضخم في الإسماعيلية، أن القرار نهائي لم يطرأ عليه أي تغيير، ومن ثم يشقون طريقهم نحو التنفيذ.

ونطق جمال عبد الناصر بإسم «دليسيبس».

وسمعها محمود يونس من جهاز راديو كان معه وهو يقود قافلة صغيرة من السيارات قرب مبنى شركة قناة السويس في الإسماعيلية.. وتحرك.

وكرر جمال عبد الناصر إسم «دليسيبس» أكثر من مرة... كرره سبعة عشر مرة - بلا ضرورة في بعض الأحيان - ليتأكد أن محمود يونس تلقى الإشارة المتفق عليها... وفي الحقيقة فإن محمود يونس تلقى الإشارة من أول مرة ورد فيها إسم «دليسيبس» على لسان جمال عبد الناصر.. تلقاها وتصرف، وكان داخل مبنى شركة قناة السويس فعلاً حين بدأ جمال عبد الناصر يتلو «قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس.

وقامت الدنيا كلها...

قامت ولم تقعد!

عاصفة

على بيت رئيس وزراء بريطانيا(*)

تلقى السير انتوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا نبأ تأميم قناة السويس حوالي الساعة العاشرة مساء بتوقيت لندن. وكان ايدن في قاعة الطعام الرئيسية بمقره الرسمي رقم ١٠ دوانبج ستريت. وكان يكرم على العشاء ضيفين من العالم العربي هما الملك فيصل ملك العراق وقتها، والسيد نوري السعيد رئيس وزرائه.

وكان من حول مائدة العشاء عدد من الضيوف الآخرين، بينهم بعض الساسة البريطانيين والوزراء ورؤساء هيئات أركان الحرب البريطانية.

وجاء أحد موظفي وزارة الخارجية البريطانية عبر الشارع الذي يفصل بينها وبين المقر الرسمي لرئيس الوزراء يحمل البرقية العاجلة في يده، وصعد إلى الدور العلوي، وتوقف عند باب قاعة الطعام حيث خرج إليه «ويليام كلارك» سكرتير ايدن الذي أخذ منه البرقية العاجلة، فألقى نظرة عليها وامتقع وجهه، وأدرك أنها لا تستطيع الإنتظار إلى ما بعد إنتهاء العشاء، وأن رئيس الوزراء يجب أن يراها فوراً.

ودخل سكرتير رئيس الوزراء إلى حيث كان يجلس رئيسه في وسط المائدة، ثم همس في أذنه وناوله البرقية، وراح السير انتوني ايدن يجري بعينيه على سطورها ووجهه يحتقن ويزداد احتقاناً، والكل من حول المائدة يتطلع إليه مدركاً أن شيئاً خطيراً قد حدث، مما يستدعي مقاطعة رئيس الوزراء البريطاني بينما هو في وسط عشاء يقيمه تكريماً لواحد من ملوك البترول العربي.

(ولعلي أضيف على الفور هنا أن اعتمادي في وصف هذا المشهد وما تلاه ليلتها في لندن يرتكز على عدة مصادر بينها مذكرات اللورد كيلموير عضو مجلس الوزراء البريطاني الذي كان يحضر عشاء تلك الليلة، إلى جانب مذكرات ايدن نفسه التي نشرها بعنوان «دائرة كاملة»، فضلاً عن رواية شاهد عيان سجلها المؤرخ البريطاني الشهير الأستاذ هيو توماس في دراسته الهامة عن وقائع السويس).

فرغ ايدن من قراءة البرقية، ورفع رأسه، فوجد الكل ينظرون إليه عبر المائدة، وأحس أنه مطالب بإيضاح أمامهم، فقال بصوت تبدو فيه محاولة السيطرة على الإنفعال:

ـ إن ناصر أعلن تأميم شركة قناة السويس!

وتعالت همسات من حول المائدة، بعضها يقول: «شيء غريب»، وبعضها يقول: «غير معقول».

(*) المصدر السابق.

وتطلع ايدن ناحية نوري السعيد وسأله :

- هل كان لديكم من المعلومات ما يشير إلى أن شيئا من هذا النوع محتمل الوقوع ؟

وقال رئيس وزراء العراق :

- إطلاقا ، لا بد لك أن تضربه .. وتضربه بشدة ... وتضربه الآن .

وقد اشتهرت هذه العبارة ضمن وقائع ذلك العشاء المثير ، فقد نقلها بالنص أكثر من مصدر، أبرزهم اللورد كيلموير .

***

حرب السويس

(العدوان الثلاثي)

حنحارب .. حنحارب

الله أكبر .. الله اكبر

حرب السويس : ١٩٥٦

وجاءت الحرب يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦

بد أ تنفيذ معاهدة " سيفر " (*) بعد أربعة أيام من توقيعها، ففي الساعة الخامسة بعد الظهر تحرك لواء ميكانيكي إسرائيلي في اتجاه منطقة الكونتيلا، ومع آخر ضوء تم إسقاط كتيبة مظلات إسرائيلية في منطقة سدر الحيطان في ممر ميتلا .

معاهدة سيفر : سيفر قرية في إحدى ضواحي باريس ، أطراف المعاهدة :

سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا، كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا ودايفيد بن غوريون وزير خارجية إسرائيل.

هدفت هذه المعاهدة بين أطراف العدوان الثلاثي على مصر على :

١ – إعلان الحرب من قبل إسرائيل على مصر يوم ٢٩ أكتوبر وبدء الاجتياح باتجاه قناة السويس .

٢ – تدخل الطيران العسكري البريطاني بالإغارة على المطارات المصرية .

٣ – توجيه إنذار بريطاني فرنسي مشترك لكلا الطرفين المتحاربين (مصر وإسرائيل) بالابتعاد مسافة عشرة أميال من القناة وذلك تحت حجة حماية قناة السويس من العمليات العسكرية . وإعلان إسرائيل عن الموافقة على هذا الإنذار بعد أن تكون قد قاربت القوات الإسرائيلية المهاجمة من القناة . وذلك لإعطاء الذريعة للقوات البريطانية – الفرنسية للتدخل عسكريا بعد أن تكون إسرائيل قد قبلت الإنذار ورفضته مصر .

٤ – تأمين الأجواء والسواحل بواسطة سلاح الجو والبحرية لتتفرغ القوات الإسرائيلية للعمل على خط الجبهة مع مصر.

وعرف جمال عبد الناصر بنبأ الهجوم من بيان رسمي إسرائيلي أذيع من تل أبيب، يعلن قيام وحدات عسكرية إسرائيلية بمهاجمة الكونتيللا.

كان جمال عبد الناصر ساعتها يشترك في احتفال بعيد ميلاد إبنه عبد الحميد، وسلمت إليه برقية وكالة «يونايتدبرس» تنقل البيان الرسمي الإسرائيلي، وقرأ عبد الناصر البرقية ثم ناولها إلى عبد الحكيم عامر، وكان يحضر حفل عيد الميلاد، وخرج الإثنان من القاعة المليئة بالأطفال، وتوجها إلى غرفة مكتب عبد الناصر، ومن هناك راح عبد الحكيم عامر يتصل بمقر القيادة العسكرية المصرية في كوبري القبة، ولم تكن الوحدات المصرية في الميدان قد أبلغت بعد عن حدوث شيء.

هل توقع عبد الناصر في تلك الساعات حجم العملية... أو هل جال في ذهنه احتمال «التواطؤ»؟

أكاد أقول أنه حتى تلك اللحظة كان يستبعد من ذهنه احتمالات التواطؤ، ثم أن الطريقة التي بدأت بها العملية لم تنقل إليه الإحساس بأنه أمام شيء خطير.

كانت لديه تحفظاته التي تجعله يقطع بأن بريطانيا بالذات لديها من الروادع ما يصدها عن الإشتراك مع إسرائيل في عمل عسكري ضد مصر.

وكان تحت تصور أن مشكلة قناة السويس ـ بعد مناقشات مجلس الأمن وموافقته على النقاط الستة ـ في طريقها إلى حل سياسي عندما يجتمع الدكتور محمود فوزي مع سلوين لويد وكريستيان بينو في جنيف بحضور همرشولد، وكان مقرراً لهذا الإجتماع يوم ٢٩ أكتوبر .... يوم بداية الهجوم الإسرائيلي.

وأتذكر أنني كنت مساء يوم ٢٩ أكتوبر في فندق مينا هاوس ضيف عشاء مبكر على سفير اليونان في القاهرة وقتها، ووصلت إلى فندق مينا هاوس، ثم اتصلت كالعادة بمكتبي أسأل عن آخر التطورات، وعرفت بالبيان الإسرائيلي، وقرىء علي في التليفون نصه.

وأتذكر أنني من كابينة التليفون في مينا هاوس طلبت خطاً خارجياً وأدرت بيدي رقم تليفون مكتب جمال عبد الناصر، وكان هو الذي رد علي، وكانت الساعة حوالي السابعة والنصف، وقال لي أن بياناً إسرائيلياً ثانياً قد صدر في هذه اللحظة وفيه إشارة إلى أن القوات الإسرائيلية تعمل بالقرب من قناة السويس، وكانت هذه العبارة قد لفتت نظره، ولم تكن الأخبار قد جاءت بعد عن نزول قوات مظليين في سدر الحيطان، وكرر في التليفون مرتين تعجبه من رنين عبارة «منطقة قناة السويس» في البيان الإسرائيلي، وسألته «إذا كان يريدني أن أذهب إليه؟» وكان تعليقه «عندما تفرغ من عشائك مر علي».

وعدت إلى السفير اليوناني ورويت له آخر الأنباء، وكان تقديره أن العملية لا تزيد عن أن تكون واحدة من تلك الغارات الإسرائيلية على مراكز الحدود المصرية، وربما كان نطاقها هذه المرة أكبر، تعبيراً عن غيظ إسرائيل من قرب تسوية أزمة قناة السويس مع بريطانيا وفرنسا.

ولم يدخل تفسير السفير اليوناني في عقلي، وبعد دقائق وجدتني أقول له بصراحة أنني سوف أتركه وحده لعشائه، أما أنا فأشعر أنه لا بد لي أن أذهب إلى حيث أستطيع متابعة ما يجري.

وحاول الرجل إقناعي بالبقاء لعشاء سريع، وأصررت وخرجت وخرج معي هو الآخر في اللحظة التي كان عشاؤنا يدخل فيها قاعة الطعام الشرقية في مينا هاوس القديم، ولا أعرف ماذا قال الذين جاءوا بالعشاء فوجدوا الذين طلبوه يهرولون إلى باب الخروج!

وذهبت إلى بيت جمال عبد الناصر، ولكنه كان قد غادره متوجهاً إلى القيادة العامة للقوات المسلحة، تاركاً لي إشارة بأن ألحق به هناك.

وفي القيادة العامة كانت الصورة تتضح، فقد بدأت التقارير تتوالى عن حجم قوة الهجوم على الكونتيلا ونخل وتمد، كما أن معركة حامية الوطيس كانت تدور في سدر الحيطان، فقد اصطدمت كتيبة مصرية بكتيبة المظلات الإسرائيلية التي نزلت في ممر ميتلا، وكان موقف المظليين الإسرائيليين في منتهى الخطورة، وكانت خسائرهم عالية جداً وبأكثر مما هو محتمل ـ طبقاً لمذكرات موشي ديان نفسه.

كان الموقف العسكري في سيناء مكشوفاً لأن القوات المصرية قد أمرت بالإنسحاب عندما كان التهديد البريطاني الفرنسي بالنزول في منطقة قناة السويس قائماً، وعندا كانت أزمة السويس على أشدها في الفترة ما بين أغسطس إلى منتصف أكتوبر ١٩٥٦.

كان جمال عبد الناصر يخشى مع وجود قوات كبيرة في سيناء أن تتبعثر قوة الجيش المصري بين الصحراء ومنطقة القناة، ثم أن يتم عزل قوات سيناء إذا وقع إنزال بريطاني فرنسي في بور سعيد، وهكذا لم يكن باقياً في سيناء غير ثمانية كتائب، اثنتان في أبو عجيلة، واثنتان في رفح، واثنتان في العريش، وكتيبة واحدة في ممر ميتلا (ذهبت في آخر لحظة)، وكتيبة في شرم الشيخ.

وأعتقد أن احتمال التواطؤ كان ما زال بعيداً عن الأذهان، حتى عندما اجتمعت القيادة العامة للقوات المسلحة تلك الليلة في كوبري القبة برئاسة جمال عبد الناصر، والدليل على ذلك هو أن القرار في تلك الليلة كان هو «ملاقاة الهجوم الإسرائيلي في وسط سيناء في منطقة بير روض سالم، وتوجيه الضربة الرئيسية إليه هناك بواسطة الفرقة الرابعة المدرعة»، التي كانت قد بدأت تتحرك في اتجاه قناة السويس تعبرها تحت الظلام!

وكان جمال عبد الناصر حتى ظهر يوم ٣٠ أكتوبر ـ الثلاثاء ـ ما زال يستبعد التواطؤ، فقد اتصل بي ظهر اليوم يطلب مني أن أتوجه إلى مقابلة السفير الأميركي «ريموند هير» وأنقل إليه

على لسان الرئيس أن «طائرة بريطانية من طراز كانبيرا شوهدت قبل ساعة فوق منطقة بحيرة البردويل، ومن الواضح أنها كانت تحاول القيام بعملية استطلاع فوق أرض المعركة، وأن مثل هذا التصرف مثير للشكوك والريب».

وفعلت ما طلبه مني جمال عبد الناصر، ولكني تركت السفير الأمريكي «ريموند هير» ورأسي مليء بالوساوس، فقد سمعت منه أن أمراً قد صدر إليه من واشنطن بترحيل كل الرعايا الأمريكيين من مصر حفاظاً على سلامتهم، ونقلت ما عرفت إلى جمال عبد الناصر، وهكذا فإني لم أبدد شكوكاً بدأت تساوره، وإنما أضفت إلى الشكوك... شكوك!

وفي الساعة الرابعة لم يبق مجال للشك، فقد جاء الإنذار البريطاني الفرنسي يطلب إلى مصر أن تبتعد بقواتها عشرة أميال إلى الغرب من القناة، وأن تسمح بنزول قوات بريطانية فرنسية تحتل المراكز الرئيسية في منطقة قناة السويس، حتى يتم الوصول إلى تسوية سلمية تضمن حرية الملاحة لجميع الدول.

وكان يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر يوماً من أعظم الأيام في حياة جمال عبد الناصر.

كانت الكتائب المصرية في أبو عجيلة ورفح والعريش تقاتل معركة رائعة، واستطاع موقع أبو عجيلة وحده أن يوقف تقدم اللواء الإسرائيلي المدرع السابع، وأن يكبده خسائر عالية، واضطر ديان بنفسه أن يذهب إلى قيادة اللواء المدرع السابع ليتعجل قيامه بمهمته، وهي اقتحام أبو عجيلة، بل أن ديان ـ طبقاً لما يقوله هو نفسه في مذكراته ـ عزل قائد اللواء السابع وعين قائداً جديداً له.

وكانت القوات المصرية تتدفق إلى سيناء لملاقاة الهجوم الإسرائيلي وضربه طبقاً للخطة في منطقة بير روض سالم، وكانت الفرقة المدرعة الرابعة طليعة هذه القوات الزاحفة إلى سيناء.

وكان قد رفض الإنذار البريطاني الفرنسي.

وكانت السفارة البريطانية في القاهرة منقسمة على نفسها. كان السفير السير «همفري تريفليان» ـ لورد تريفليان فيما بعد ـ يعتقد أن عبد الناصر سوف يقاوم إلى النهاية.

وكان المستر «تريفور ايفانز» المستشار الشرقي فيها يعتقد أن مجرد توجيه إنذار بريطاني فرنسي سوف يرغم جمال عبد الناصر على التراجع، وإذا أصر على المقاومة فإن المظاهرات سوف تخرج إلى الشوارع لتسقط النظام المصري من أساسه، وتجيء بنظام جديد يستطيع البريطانيون والفرنسيون أن يتعاملوا معه.

وفرضت قيود على السفارة البريطانية، فلم تكن على اتصال بما يجري في «البلد» ـ على حد قول «تريفور ايفانز» لي فيما بعد ـ وكان قد أصبح سفيراً في الجزائر، ولكن ذكريات تلك الأيام كانت تشده دوماً إلى الحديث عنها.

وكانت الحراسة قد فرضت أيضاً على الرعايا البريطانيين، تحسباً لكل احتمال.

ودق جرس التليفون لأسمع صوت جمال عبد الناصر يقول لي ما معناه «لقد انكشفت العملية بكل أبعادها الآن... نحن أمام تواطؤ صريح... غريبة، لم يخطر لي مطلقاً أن ايدن يمكن أن يشترك في لعبة مع إسرائيل. كيف لم يخطر لي؟ لقد سمعت أزيز الطائرات وأنا جالس مع السفير الأندونيسي، وكان صوت قاذفات، وتركته إلى سطح البيت، وشاهدت القصف على مطار ألماظة... كانت الطائرات قاذفات بعيدة المدى... كانبيرا» بريطانية في الغالب... وعلى العموم فلا أحد يملك في المنطقة قاذفات بعيدة المدى غير الإنجليز».

وكان جمال عبد الناصر في مقر قيادة القوات المسلحة في كوبري القبة يواجه مواقف بالغة العنف.

دخل هو إلى القيادة وفي ذهنه أن الإنسحاب الكامل من سيناء ضروري حتى لا تقع كارثة كان يخشاها ويتحسب لها، وكان عبد الحكيم عامر يعارض قرار الإنسحاب من سيناء، وحاول عبد الناصر أن يتكلم بهدوء في بداية الأمر ويقول لعبد الحكيم عامر:

ـ ألا ترى أن استمرار تدفق قواتنا على سيناء معناه أننا نجري بأقصى سرعة لكي نضع أنفسنا في فخ؟

إن قواتنا سوف تجد نفسها والإسرائيليون أمامها والإنجليز والفرنسيون وراءها، ولا بد من تجميع القوات كلها في منطقة قناة السويس وإلى الغرب منها لخوض المعركة ضد العدو الرئيسي وهو بريطانيا وفرنسا، وبعدها يكون أمر إسرائيل سهلاً».

ويقاوم عبد الحكيم عامر لأسباب عاطفية قرار الإنسحاب، ويصر جمال عبد الناصر، ويبعث الإشارات موقعة منه إلى قادة الوحدات المتقدمة في سيناء يأمرهم فيها بالإنسحاب.

ويتوافد جمع من أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين ومن الوزراء إلى مبنى القيادة، ومن بينهم صلاح سالم ـ يرحمه الله ـ ويروي صلاح سالم أن الإصرار على رفض الإنذار مع بداية التدخل العسكري البريطاني الفرنسي هو أمر لا يمكن أن تحتمله، ويقول لجمال عبد الناصر:

ـ إن بريطانيا وفرنسا أعلنتا أنهما لاتعاديان الشعب المصري وإنما معركتهما معك أنت، وأنا أرى إنك قدمت لمصر خدمات عظيمة وأجدك اليوم مطالباً بخدمة أخرى سوف يذكرها لك التاريخ، وهي أن تذهب إلى السفارة البريطانية فتسلم نفسك وتنقذ البلاد من أهوال التدخل البريطاني الفرنسي، فضلاً عن إسرائيل».

ويصعق جمال عبد الناصر لهذا الإقتراح، ويقول «أنه لو كان الأمر متعلقاً به شخصياً لفعل ذلك فداءاً لمصر، ولكن الأمر أكبر من ذلك... فهو الآن أمر إرادة مصر المستقلة وكرامتها.»

ثم يترك جمال عبد الناصر هذا كله، ويلتفت إلى تنظيم مقاومة للغزو، وكانت خطته على النحو التالي:

١ ـ أن الكتائب الأصلية الثمانية التي كانت موجودة في سيناء من الأصل عليها أن تقاوم مهما كان الثمن، وحتى إلى آخر رجل وآخر طلقة، لمدة ثمانية وأربعون ساعة، وذلك حتى توقف تقدم الجيش الإسرائيلي في سيناء، فلا تشتبك مع القوات المتدفقة عليها بينما هي الآن تحاول الإنسحاب عائدة إلى غرب قناة السويس.

٢ ـ على كل القوات المتدفقة عبر قناة السويس إلى الشرق، وفي مقدمتها الفرقة الرابعة المدرعة، أن تكمل انسحابها من سيناء في ظرف ستة وثلاثين ساعة، مهما كان الثمن، وعليها أن تتمركز في منطقة القناة وفي مناطق شرق الدلتا، لتكون مستعدة لمواصلة القتال مع العدو على الجبهة الرئيسية للمعركة.

٣ ـ تعطيل الملاحة في قناة السويس، ونسف بعض السفن المحملة بالإسمنت فيها وسط المجرى الملاحي، ووضع كل غزاة القناة أمام أمر واقع جديد.

٤ ـ على الطيران المصري أن لا يشتبك مع العدو لأن المعركة غير متكافئة، وليس مهماً تدمير الطائرات المصرية، وإنما المهم الحفاظ على الطيارين المصريين المدربين، وعددهم محدود، وإذا تمكن العدو من اصطيادهم في الجو وإسقاط طائراتهم وهم فيها، وقتلهم، فسوف تمر عشر سنوات قبل أن يكون لمصر طيارين قادرين على العمل، والأوضاع الحالية لا تترك للطيران المصري فرصة، فأمامه قرابة ألف طائرة بريطانية فرنسية إسرائيلية، وليس لمصر أكثر من مائة وعشرين طياراً مدرباً، ولسوف ينتهي الغزو البريطاني الفرنسي يوماً وتبقى إسرائيل أمامنا، ولا نستطيع أن نواجهها بغير طيارين.

٥ ـ الإستعداد لحرب شعبية ممتدة ضد الإحتلال، حتى لو توقفت الحرب المنظمة واستطاعت قوات الغزو أن تتغلب على القوات النظامية للجيش المصري.

وتم ما طلبه جمال عبد الناصر.

● إستطاعت الكتائب المصرية الثمانية في سيناء أن تقاتل وأن تصمد في قتالها على مدى الثمانية والأربعون ساعة المطلوبة منها، ولم تستطع القوات الإسرائيلية أن تتقدم على محاور سيناء الأربعة إلا بعد أن توقفت مقاومة هذه الكتائب ـ بعد الموعد المقرر لها ـ وبدأ انسحابها، وكان رأي قادتها أنها لا تستطيع الإنسحاب بطريقة منظمة، خصوصاً وأنها أبليت في القتال بلاء حسناً، وهكذا كان الأمر لها «كل رجل على مسئوليته».

● عادت القوات التي كانت تتدفق على سيناء، وفي مقدمتها الفرقة الرابعة المدرعة، وكان الطيران البريطاني الفرنسي قد ركز عليها لتدميرها أثناء إنسحابها، ولكنه لم ينجح إلا في إصابة

بعض مركباتها الخفيفة، وأما القوة المدرعة الرئيسية فقد تمكنت سالمة من العودة إلى مواقعها الجديدة.

● تم تعطيل قناة السويس، وتوقف شريانها الحيوي عن الضخ، ووجد الذين كانوا يحاولون ضمان حرية الملاحة في القناة أن القناة توقف نبضها.

● ابتعد الطيارون المصريون عن سماء المعركة أمام تفوق لا قبل لهم به، وهو كفيل بالقضاء عليهم جميعاً واحداً واحداً.

● كان الإستعداد لمواصلة الحرب الشعبية على قدم وساق، واختار جمال عبد الناصر موقعاً في وسط الدلتا قرب طنطا ليكون مقر قيادته في حرب كل الشعب ضد الغزو، إذا كانت هناك ضرورة لذلك.

وقال لي الجنرال اندريه بوفر ـ وكان نائب قائد القوات البرية في الحملة البريطانية الفرنسية ـ وما قاله لي كان تعزيزاً لما ذكره في كتابه عن حرب السويس:

ـ كنا نحن الفرنسيين في صراع مع زملائنا البريطانيين في قيادة قوات الغزو. كنا نشعر أن قيادتهم السياسية مترددة في اتخاذ قراراتها، ولم يكن الهدف السياسي من المعركة واضحاً أمام الجنرالات.

كنا نشعر أن القرارات بطيئة، وأن القوات أقل من حجم المهمة المطلوبة منها، ولقد جاء وقت شعرنا فيه أن قرار مصر باستمرار المقاومة قد قلب التوازن في الخطة رأساً على عقب، فقد كانت الخطة موضوعة وفي تصور الموجهين لها سياسياً أن الظروف لن تضطرنا إلى تكملتها لأن الجبهة المصرية الداخلية سوف تبدأ في التهاوي والإنهيار.

وهكذا، فإن مجرد القرار المصري بمواصلة الحرب واجهنا بالحقيقة التي كنا نحاول أن نتجنبها اعتماداً على وعود السياسيين لنا ـ وهي حقيقة أن قواتنا غير كافية لاحتلال منطقة قناة السويس والتقدم بعدها إلى القاهرة.

ولم ترتفع معنوياتنا بعد نزولنا في بور سعيد، فقد كنا ندرك أن تلك مجرد خطوة على الطريق، وأن أي جيش مهاجم يستطيع أن ينجح فيها لأنه كان يوجه قبضته ووراءها كل قوته إلى نقطة محددة ومحدودة على جبهة العدو، ولكن المهم هو الخطوة الثانية بعد الخطوة الأولى.

وهكذا أستطيع أن أقول:

إن حملة السويس فشلت عسكرياً في نفس اللحظة التي قررت فيها مصر رفض الإنذار البريطاني الفرنسي، وحمل السلاح مهما كان الثمن.

الوحـــــدة

٢١ فبراير / شباط ١٩٥٨

إن الوحدة ليست نداء يردد أصداء الماضي .. وإنما الوحدة العربية أصلا وأساسا هي نداء لتجمع وانطلاق إلى بناء المستقبل ، وتوفير رخائه .

خروج جمال عبد الناصر من معركة العدوان الثلاثي (١٩٥٦) منتصرا فرض نفســـه زعيمـــا "قوميا " بلا منازع ليس فقط على الخارطة العربية ولكن على خارطة العالم أجمـــع وأصبحـــت الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج تتطلع إليه قائدا فذا يمثل طموحاتها وتطلعاتهـــا المســـتقبلية في الحياة الحرة الكريمة وهـــذه الزعامة تخطت بحدودها حدود الأمة العربية لتصل إلى كل شـــعوب العالـــم المتطلعة إلى فجـــر الحرية الاستقلال الوطني .

كان ظهور جمال عبد الناصر في مصر تجسيداً للأمل العربي في أحلام الجماهير العربية بأن يخرج يوماً ما من بين صفوفها مَن يرفع علم الوحدة العربية ويتصدى لكل أعداء العرب ويقف في وجههم صامداً قوياً لا يقهر يذود عن عرضهم وشرفهم ويستعيد لهم كرامتهم المهدورة بفعل عوامل الاستعمار والاستعباد .

في هذا الوقت بالذات كانت شخصية البطل تصقل بشخصه وقوته وإرادته .

هنا أحست الأمة العربية كلها والشعب العربي السوري فيها بالذات أنه في قلبها وصوتها المدوي والمعبر بصدق وقوة عنها أحست هذه الأمة أن العرب لم يعودوا أمة لا هم لها غير أن تعيش أمجاد الماضي وإنما هي القادرة على تشكيل التاريخ وصنع المستقبل .

في مطلع عام ١٩٥٨ - كانت الجماهير العربية السورية كلها تردد بصوت واحد كالرعد هتافها التاريخي الذي يحمل كل المشاعر الفوارة والصادقة والتي فجرها ظهور شخص البطل : عبد الناصر يا جبار ... يا محطم الاستعمار .

وبدأت أصداء هذا الهدير الشعبي الجماهيري تصل إلى كل مكان داخل سوريا .. إلى القوى السياسية وقوى الجيش المتصارعة والمتنافسة في ما بينها للإمساك بالسلطة وإلى كل فئات الشعب العربي السوري .

وبدأت الأصداء تسمع في كل العواصم العربية المشتركة في الصراع داخل سوريا وعلى سوريا. وكان هناك حلف بغداد (١) الذي استغل الانقسام السياسي الحاصل داخل سوريا وبدأ يستعد للانقضاض .

في ذلك الوقت القاتم والمهيمن بثقله على الساحة السورية اجتمع قادة الكتل العسكرية المتصارعة في شبه هدنة مؤقتة بينهم وبعد مناقشة الأوضاع استقر رأيهم أخيراً : على أن لا حل ولا أمل في سوريا إلا بوحدة مع مصر .

تستجيب أولاً لنداء الجماهير وتنهي ثانياً لعبة الصراع بين القوى السياسية والعسكرية المتصارعة لاستلام السلطة .

(١) حلف استعماري بريطاني أميركي لمواجهة المد الشيوعي وقد ضم دول العراق وتركيا وباكستان وإيران، مقر الحلف كان بغداد .

وكانوا في ذلك الوقت ٢٢ ضابطاً يمثلون ٢٢ كتلة في الجيش السوري وافقوا جميعاً على الحل بالوحدة.

ركبوا جميعاً الطائرة يوم ١٤ يناير ١٩٥٨ متوجهين للقاهرة لعرض ما اتفقوا عليه على جمال عبد الناصر.

في اليوم التالي كان الإجتماع والذي كان وسوف يكون من أهم أيام التاريخ العربي المعاصر.

تحدثوا جميعاً، عن المخاوف والأخطار التي تهدد سوريا من الداخل والخارج وساقوا كل المبررات والحجج التي تحتم التعجيل بالوحدة.

استمع جمال عبد الناصر لهم جميعاً وقال:

هذا كله لا يبرر قيام الوحدة تلك كلها أسباب سلبية، سوف تكون عبئاً على الوحدة أكثر ما تكون ثورة دافعة لها، إن الوحدة ليست بالعمل السهل، إن أملي هو بناء مصر قوية وقاعدة متينة من الناحية السياسية والإجتماعية لنضال باقي الشعوب العربية، إني أريد أن نجعل مصر البلد النواة للتطوير العربي ولسوف يكون لذلك كله أثره في تدعيم الدعوة إلى الوحدة عملياً وواقعياً وإيجابياً، لقد بدأنا الآن - بالكاد - بعد معارك عنيفة مع الإستعمار نوجه كل طاقاتنا لبناء مصر.

استمعت مجموعة الضباط لجواب ناصر والذي بالتأكيد لم يلبي مطالبهم عندها قالوا له:

تريد أن تعمل ذلك لمصر.. وتترك سوريا التي علقت آمالها على مصر وعليك.. أنت بذلك تتخلى عن دعوة القومية العربية كلها من أجل مصر وحدها، إن الشعب في سوريا كله يطلب الوحدة.

وابتسم جمال عبد الناصر.. وتطلعوا إليه جميعاً وقال لهم على الفور:

أريد أن أتكلم معكم بكل وضوح. أنا أعرفكم جميعاً وأعرف حسن مقاصدكم ولكني أريد أن أسألكم سؤالاً واحداً:

ما هي صفتكم في الحديث معي عن هذا الأمر، وأنتم غير مسؤولين. هل يعلم الرئيس شكري القوتلي أنكم هنا تتحدثون معي في ذلك كله.

أجاب أحدهم: سوف نحمل إليه رأي الجيش وليس أمامه إلا أن يقبل، لا يقدر على أن يعارض ما نطلبه.

متأسف.. لا أستطيع أن أقبل هذه الأوضاع، إنني أعلم أنكم تمسكون بزمام القوة الحقيقية في سوريا، لكني لا أستطيع التعامل إلا مع حكومة مسؤولة.

بهذا الجواب أنهى عبد الناصر الإجتماع الأول مع مجموعة الضباط. وساد الصمت لحظة.. عندها اقترح أحد الضباط العودة إلى الإجتماع مجدداً في الغد بعد أن تكون الحكومة السورية قد أرسلت من يمثلها لحضور هذه الإجتماعات ويحمل موافقتها على الوحدة.

وفي اليوم التالي غادرت مطار القاهرة طائرة تحمل أحد الضباط متوجهة إلى دمشق لإحضار وزير الخارجية السوري حينها صلاح البيطار ممثلاً للحكومة السورية في المباحثات ولنقل موافقة الحكومة السورية على الوحدة.

مساءً عاد الموفد ومعه وزير الخارجية ومجدداً استمرت المناقشات والحوارات.

وعند منتصف الليل.. في الدقيقة الأولى من يوم ١٧ يناير ١٩٥٨ كانوا جميعاً في بيت الرئيس جمال عبد الناصر الذي جلس أمامهم وبجواره المشير عبد الحكيم عامر.

تكلم وزير الخارجية السوري صلاح البيطار أولاً وقال:

أن الحكومة السورية موافقة على الوحدة بين مصر وسوريا، بل أن الحكومة ترحب بذلك كمطلب شعبي وطريق لاستقرار سوريا.

ومضت محاولات الإقناع ساعات وساعات.

الرئيس عبد الناصر متردد في القبول حرصاً على نجاح التجربة.

ومجموعة الضباط ومعهم الحكومة السورية متمثلة بوزير الخارجية يضغطون من أجل إتمامها.

... وأخيراً حسم الرئيس عبد الناصر هذه النقاشات وقال:

- إنني مستعد لقبول المبدأ ولكن على أساس ثلاثة شروط:

- إنني أقبل المبدأ تحقيقاً لمطلب الشعب السوري ولكي لا تضيع سوريا.. ولكن شروطي الثلاثة هي:

أولاً - أن يتم الإستفتاء على الوحدة من قبل شعبي مصر وسوريا.

ثانياً - أن يتوقف النشاط الحزبي في سوريا توقفاً كاملاً

ثالثاً - أن يتوقف تدخل الجيش في السياسة تدخلاً كاملاً

وساق الرئيس عبد الناصر مبررات فرضه للشروط الثلاثة.

خرج المجتمعون من اللقاء الثاني على أمل اللقاء في اليوم التالي بعد أن يكونوا قد فكروا وتباحثوا في الشروط الثلاثة.

خرجوا من بيت الرئيس جمال عبد الناصر، لم يناموا دقيقة واحدة وإنما جلسوا يتحدثون ويتناقشون وأكثر من ذلك يتصايحون بالحدة والعصبية.

كان واضحاً أن الشرطين الأخيرين لجمال عبد الناصر لمسا الأوتار الحساسة في الحياة السياسية في سوريا وبالطريقة التي كانت تجري عليها.

لم يكن الإستفتاء الشعبي موضوع سؤال فقد كان التيار الشعبي الوحدوي جارفاً.

ولكن الأحزاب السورية؟ هل تقبل أن تحل نفسها؟

وضباط الكتل في الجيش السوري، هل يتنازلون طواعية عن سلطان القوى؟

كانت هناك آراء متضاربة، متصارعة، وخصوصاً أنه كان لبعض ضباط الجيش ولاءات حزبية وسياسية معينة أرسلوا وراء عبد الحميد السراج وزير الداخلية في سوريا ليسألونه: كيف الناس؟

وقال السراج: أن تيار الوحدة متدفق ولا يمكن إيقافه.

في الليلة الأخيرة اجتمعوا جميعاً مضافاً إليهم عبد الحميد السراج إلى الرئيس عبد الناصر .

كان الرئيس لا يزال عند شروطه كلها، لم يتنازل عن واحد منها، وخرجوا من عنده قرب الفجر يركبون طائرة تعود بهم إلى دمشق.

وكانت الحقيقة الكبرى في الطائرة معهم وهم عائدون:

- إن التيار الشعبي وأوضاع سوريا الخارجية والداخلية وما بينهم هم أنفسهم، تجعل الوحدة أمراً محتماً مهما كانت شروط الرئيس عبد الناصر.

* * *

وجاء كل الساسة من سوريا. . وفي طليعتهم الرئيس شكري القوتلي

وبين الظروف الواقعة وبين شروط جمال عبد الناصر لم يكن هناك مخرج ثالث سهل. كان الإلحاح الشعبي السوري يكاد يقتحم كل غرفة من غرف الإجتماعات وكانت إرادة الجماهير السورية هي العامل الضاغط والموجه.

وكان الهدير الوحدوي أقوى من أن يوقفه الحسابات الضيقة لبعض الساسة السوريين.

كان فيهم من أسعده الخلاص من المسؤولية وهنا تبقى كلمة الرئيس القوتلي تعبيراً صادقاً عن مدى ألمه من الواقع الذي أُوجد فيه كرئيساً للجمهورية السورية.

قال شكري القوتلي بعد أن وقع بإمضائه على اتفاق الوحدة:

- ها .. أنت لا تعرف ماذا أخذت يا سيادة الرئيس ؟

- أنت أخذت شعباً يعتقد كل من فيه أنه سياسي، ويعتقد خمسون في المائة من ناسه أنهم زعماء . ويعتقد ٢٥ في المائة منهم أنهم انبياء ، وهناك عشرة في المائة على الأقل يعتقدون أنهم آلهة .

ونظر جمال عبد الناصر إلى شكري القوتلي وقال ضاحكاً :

لماذا لم تقل لي قبل أن أوقع على الاتفاق بإمضائي (١).

* * *

وقامت أول تجربة للوحدة العربية يوم ٢١ فبراير ١٩٥٨ بعد موافقة الشعبين السوري والمصري على الوحدة نتيجة الاستفتاء الشعبي الكاسح لصالح الوحدة وكرست هذه الوحدة جمال عبد الناصر مجددا زعيما قوميا صلبا على خارطة الوطن العربي وعالم عدم الانحياز والداعم لكل حركات التحرر في العالم أجمع بعد انتخابه رئيسا للجمهورية العربية المتحدة وهو الإسم الجديد لدولة الوحدة الفتية.

الإنفصال

إن دولة الوحدة التي ضربت من الظهر والظلام في سوريا ، بقيت مرددة نشيدها رافعة أعلامها ماضية في طريقها .. تناضل من أجل ما هو حق وخير ... وتناضل بقوة مضاعفة تأكيدا للأمل وتعويضا عن النكسة .

جمال عبد الناصر

١٩٥٦/٢/٥

٢٨ سبتمبر / أيلول ، ١٩٦١

فجر ٢٨ أيلول ١٩٦١ ، تحركت مجموعات عسكرية من معسكر قطنة في سوريا للقيام بانقلاب عسكري هدفه ضرب الوحدة بين مصر وسوريا ، وتحرك هذه المجموعات العسكرية كان مدعوما بشكل مباشر من كل المعادين لقيام الوحدة داخليا وخارجيا : تلاقت هنا أهداف إسرائيل وأمريكا وبعض الأنظمة العربية مع قوى الإقطاع والرأسمالية في الداخل السوري والتي تضررت مصالحها بفعل الإنجازات الاجتماعية والاشتراكية لدولة الوحدة .

اتحدت كل هذه المصالح الداخلية والمطامع الخارجية ضد إرادة الوحدة والتي عبرت عنهما

(١) المصدر السابق : محمد حسنين هيكل ، كتاب ما الذي حدث في سوريا ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٢.

الثقافة والإلتزام.. ودور المثقف:

المثقف ملتزم. . الإلتزام الوحيد هو الإلتزام بالإرتقاء بالمجتمع، وبالإرتقاء بالحياة، عن طريق المشاركة في العمل، والتوجيه السياسي والفكري.

ويؤدي المثقف هذا الدور بالإقتراب وبالإندماج في المجتمع. . وحتى يؤدي هذا الدور لا بد للمثقف من دراسة أحوال المجتمع، ويعاني ما يعانيه المجتمع، ويستوعب مشاكل المجتمع، ويستوعب مشاكل المجتمع وأماني المجتمع، ويحلل حركاته واتجاهاته.

وبهذا يكون المثقف فعلاً يؤدي دوره كمثقف ثوري يعمل لمصلحة الجماهير، ولمصلحة الشعب، ولمصلحة الحياة.

إن الثورة الثقافية هي سلاح قوى لجماهير الشعب. والثورة الثقافية لها أهمية كبرى بالنسبة للحركة التطبيقية الثورية. من أجل إقامة مفاهيم لنا تنبع من ضميرنا وتنبع من مصالح أمتنا بمجموعها، لا من مصالح فئة قليلة من أبنائها.

جيش الثقافة. . جماهير الشعب في كل أنحاء الجمهورية. بهذه الثقافة نستطيع أن نتغلب على الحرب التي تشنها ضدنا الدوائر الإستعمارية.

(خطاب في ٢٨/ ١٢/ ١٩٦١)

المثقفون عليهم واجب كبير. . الشعب دائماً ينظر بأمل، لأنهم الناس اللي وجدوا الفرصة ليتعلموا. . عليهم واجب كبير بالنسبة للناس اللي موجدوش الفرصة.

الشعب ينظر للمثقفين بأمل، لأنه يعلم أنهم مش أبراج عاجية وحيكونوا معبرين عن إرادته، ومعبرين عن أمانيه وحيكونوا مدافعين عن حقه في الحرية والحياة، على بناء المجتمع السعيد، المجتمع الذي ترفرف عليه الرفاهية.

(خطاب في ٢٧/ ٧/ ١٩٧٢)

لا بد للثورة الثقافية، أن تفرض وجودها، لأن الثورة الثقافية إنما هي الثورة الفكرية التي تمكننا من أن نحافظ على انتصارنا، وتمكننا من أن نقضي على الإستبداد السياسي وتمكنا من أن نضع مطالب الشعب موضع التنفيذ. وتمكننا من أن نقيم بين ربوع بلادنا حياة كريمة. حياة نشعر فيها بالعدالة الإجتماعية. حياة متحررة من الظلم الإجتماعي.

(خطاب في ٢٨/ ١٢/ ١٩٦١)

العربية.. سوف تدفعه من دماء أبنائها، وسوف تدفعه إلى الأبد من فرقتها وانقسامها.. ففي لحظة الإشتباك يمكن أن تتحول المعركة إلى «مصري» وإلى «سوري» خصوصاً عندما يبدأ الدم يسيل أنهاراً في سهول الشمال ورباه.

وبعد السؤالين.. وبعد الإجابة عليهما.. أوقف جمال عبد الناصر بنفسه كل التحركات العسكرية:

١ ـ الطائرات التي كانت في طريقها لإنزال قوات المظلات صدرت إليها الأوامر بإيقاف عمليات الإنزال.

٢ ـ الطلب من القوات التي أنزلت أن تتقدم لأقرب موقع سوري لتقدم نفسها له.

٣ ـ الطلب إلى قوات الأسطول وكانت قد وصلت إلى قبرص العودة مجدداً إلى قواعدها البحرية في الإسكندرية وبور سعيد.

ولما قيل لجمال عبد الناصر في تلك اللحظة:

ولكن هناك قوات من الجيش الأول تطلب النجدة وترفض إطاعة أوامر التمرد الصادرة لها من دمشق، وأن هناك مظاهرات شعبية جارفة في كل سوريا تتعرض للضرب والتنكيل.

لما قيل ذلك كله.. كان رد جمال عبد الناصر:

ـ تلك كلها تفاصيل، يسقط ثلاثة أو أربعة في المظاهرات الشعبية أمام قوى التمرد بدل أن يسقط الآلاف في الصدام العسكري ثم تكون فرقة الدم، بل يستتب الأمر كله لأعداء الأمة العربية.

في تلك اللحظات الحاسمة كانت خارطة القوى الخارجية المعادية لتيار الوحدة والقومية العربية تتأهب للتدخل لتأكيد النجاح لقوى التمرد ـ الإنفصالي:

الأسطول الأمريكي السادس كانت أوامره: التحرك بأقصى سرعة باتجاه شرق البحر المتوسط، تركيا حشدت قوات ضخمة على حدودها الجنوبية معلنة حالة الإستنفار القصوى بين صفوفها. إسرائيل تتابع الموقف لحظة بلحظة مُستنفرة بكل أجهزتها لمواجهة الموقف.

المهم في تلك اللحظات الحاسمة.. وعلى حد ما قال جمال عبد الناصر:

«أن تكون لنا قدرة الرجال.. على مواجهة العدو.. وعلى مواجهة أنفسنا..».

نص خطاب الرئيس جمال عبد الناصر

في يوم ١٩٦١/٩/٢٩ من إذاعة القاهرة

أيها المواطنون.. أتحدث إليكم من دار الإذاعة في القاهرة هذه هي أول مرة أنتقل فيها إلى دار الإذاعة لأتحدث إلى الشعب...

في كل الظروف التي قابلتنا لم أنتقل إلى دار الإذاعة.. وكلنا اليوم نقابل ظروفاً تؤثر على الأهداف الكبرى التي كافحنا من أجلها.. فقد قامت بعض قوات الجيش في دمشق صباح اليوم وهي قوات صغيرة بالتحرك من معسكر قطنة واستولت على الإذاعة في دمشق وحاصرت مقر القيادة وأذاعت بيانات متتالية.

هذا العمل يؤثر على وحدتنا الوطنية هذا هو ما دعاني إلى أن أنتقل إلى الإذاعة لأتحدث إليكم.. في سنة ١٩٥٦ تعرضنا للعدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي مانتقلتش إلى الإذاعة علشان كنت أعرف أن علينا واجبات مقدسة نحو حماية بلدنا.. ولكني أتحدث اليوم من الإذاعة لأن ما حدث اليوم أخطر مما حدث في ١٩٥٦.. ما حدث في ١٩٥٦.. كان عدوان.. خارجي.. ما حدث اليوم هو عمل يؤثر على كفاحنا الطويل في سبيل عروبتنا وفي سبيل أمتنا العربية.. وهو عمل يؤثر على دعوة القومية العربية.. اللي استشهد من أجلها الآباء واستشهد من أجلها الأجداد.. هو عمل يؤثر على كل الشعارات اللي إحنا رفعناها.. هو عمل يؤثر على حاضرنا ومستقبلنا...

أي إنقسام في الوحدة الوطنية هو أخطر بكثير من أي عدوان خارجي.. الوحدة الوطنية كانت دائماً لنا طلب مقدس وهدف عزيز.. الوحدة الوطنية كانت دائماً هي الدرع الواقي لهذه الجمهورية العربية المتحدة ضد أعدائها اللي قاموا من أول يوم لقيامه والقضاء عليها.. الوحدة الوطنية هي اللي دعتني النهارده إلى أني أتحرك إلى الإذاعة لأتحدث إليكم.

العدوان الخارجي لم يدعوني بأي حال إلى أن أتحرك إلى الإذاعة لأتحدث.. الوحدة الوطنية هي أمال هذه الجمهورية.. تحركت بعض القوات من الجيش حاصرت قيادة الجيش.. استولت على الإذاعة وأعلنت بيانات متعددة.. أربع بيانات...

هو جمال عبد الناصر ولا تنحصر في أفراد آخرين.. هم من يعملون مع جمال عبد الناصر.. ولكنها تمثل الشعب العربي..

القومية العربية هي أنتم هنا في دمشق.. وأخوة لكم في بغداد.. وأخوة لكم في القاهرة.. وأخوة لكم في عمان.. وأخوة لكم في بيروت.

القومية العربية أخوة لكم في السودان.. وأخوة لكم في اليمن.. وأخوة لكم في ليبيا هذه هي القومية العربية التي لن تستطيع أية قوة في العالم أن تحطمها أو تقضي عليها..

ليست القومية العربية من وحي رجل واحد.. أو من وحي فرد واحد.. ولكنها من وحيكم أنتم ومن وحي آبائكم.. من وحي أولئك الذين استشهدوا في سبيل هذه الأيام التي نعيشها، لنرى فيها الأمة العربية وهي تتحرر.

(خطاب بدمشق ١٨/٧/١٩٥٨)

ينبغي الفصل بين الوحدة العربية كتيار تاريخي قديم ومستمر، وبين أي فرد يتحمل في لحظة من اللحظات مسئولية العمل من أجلها.. أن دعوة الوحدة العربية بدأت من قبل جمال عبد الناصر.. وستبقى بعد جمال عبد الناصر.

(حديث صحفي ٥/٧/١٩٦٤)

إن الحرية السياسية والحرية الإجتماعية مقدمات ضرورية للوحدة.. وليس معنى هذا أنه يتعين علينا الإنتظار حتى يتحقق ذلك كله تماماً في كل أرض عربية.. لكي نبدأ الحديث أو العمل من أجل الوحدة.. أهداف النضال متداخلة.. أهداف النضال تعطي لبعضها، وتأخذ من بعضها، وتعزز إحداها الأخرى، وتتعزز بها.

(عيد الوحدة ٢٢ فبراير ١٩٦٧)

إن تجربة الوحدة بين مصر وسوريا.. علمتنا الكثير.. علمتنا أن الوحدة ممكنة.. فلقد تحققت بالفعل في سنة ١٩٥٨.. وغيرت خريطة الشرق الأوسط.. بغير إرادة الذين تحكموا طويلاً في الشرق الأوسط.

ففي يوم واحد سنة ١٩٥٨، استطاع الشعب العربي في مصر، والشعب العربي في سوريا، في يوم واحد، من أعز أيام التاريخ العربي الحديث، وأغلاها.. أن يقوما بعمل واحد مشترك.. يقتحمان الحواجز والموانع والمؤامرات والخطط، ويتحديان جميع أعداء الوحدة، ويصنعان دولة الوحدة العربية الأولى «الجمهورية العربية المتحدة»..

وإذا كان أعداء الوحدة العربية، هؤلاء الأعداء جميعاً، قد استطاعوا أن ينظموا صفوفهم بعد اليوم العظيم.. وأن يحشدوا جيوشاً ضخمة من قوى الشر.. وأن يهددوا دولة الوحدة في

سحب التمويل أن السد العالي لن يبنى. ان إحنا حنركع على رجلينا ونستجدي ونشحت علشان يبنوا السد العالي. إحنا شعب عمره ما ركع على رجليه ولا أستجدى ولا شحت.

السد العالي علشان ينبنى خضنا معارك.. تأميم قنال.. التهديد.. الحصار الإقتصادي، تجميد أموالنا.. العدوان الثلاثي.. الحرب النفسية.. المؤامرات..

(١٩٦٥/٣/٨)

معركة تأميم قناة السويس:

إننا لن نكرر الماضي .. سنقضي على الماضي بأن نستعيد حقوقنا من قناة السويس، هذه الأموال.. وهذه القناة ملك لمصر لأنها شركة مصرية. ولهذا فقد وقعت اليوم ووافقت الحكومة على القانون الآتي:

باسم الأمة.. رئيس الجمهورية.. مادة واحد.. تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية..

(١٩٥٦/٧/٢٦)

حينما أممنا قناة السويس، كنت أعلم أن تأميم القناة يدخلنا في حرب مع بريطانيا وفرنسا، ولكن كان علينا أن نستخلص حقنا المغتصب وكنا نعتقد أننا قد نتعرض للعدوان ورغم هذا كنت على ثقة من أن هذا الشعب سيقاتل في سبيل الحرية والكرامة وفي سبيل المبادىء التي آمن بها.. والشعب لم يتوان ولم يتأخر.. حينما واجهنا الإنذار البريطاني والفرنسي بأنهم يطلبوا تسليم بور سعيد والإسماعيلية والسويس في ١٢ ساعة فسيتدخلوا في الحرب اللي كانت بقالها ٢٤ ساعة ما بيننا وبين إسرائيل.. رفضنا هذا الإنذار.. بعد كده بدأ العدوان علينا في اليوم التالي. وكنا نواجه معركة مع إسرائيل، وفي نفس الوقت في انتظار عدوان.. أما في بور سعيد أو في الإسكندرية أو عن طريق ليبيا لأن القوات البريطانية موجودة في ليبيا ولم نشعر أبداً بأننا قد نخسر هذه المعركة أمام دولتين من الدول الكبرى هي فرنسا وبريطانيا ومعهما إسرائيل.

(١٩٦٥/٣/١٠)

في أول سنة ١٩٥٧ وجدنا أو بالأحرى أممنا المصالح الأجنبية كلها الإقتصادية.. ابتدينا بالإنجليزية والفرنسية وكانت تمثل الجزء الأكبر، ثم بعد هذا البلجيكية ده قبل قرارات يوليو ١٩٦١. رغم هذا ورغم الحصار اللي عمل علينا ما قدرناش نجيب قمح.. ما قدرناش نجيب أدوية.. استطعنا ان إحنا نعيش ونطلع من المعركة منتصرين.

من المعركة وفي بور سعيد، ومن قلب النار.. خرجت قرارات التمصير الإقتصادي لأصحاب البلد الحقيقية. قوى الشعب العاملة، اللي خرجوا يدافعوا عن البلد بأرواحهم..

العربي؟؟. ولمصلحة من تسفك الدماء؟؟ ولمصلحة من نحارب بعضنا البعض وهناك الأعداء يتربصون بنا؟؟ فأصدرت الأوامر قبل منتصف الليل بقليل بالأمس، بأن تعود جميع الطائرات التي كانت متجهة إلى اللاذقية.. ولكن صدر الأمر بعد أن أسقط ١٢٠ فرداً بالبراشوت في اللاذقية ولكن الباقين .. باقي الألفين، ادينا لهم أوامر بالرجوع أو عدم التحرك.. وكانت قوات المظلات التي تحركت بالأمس، قوة فيها مصريين وسوريين.. لأن فيه هنا قوة مظلات سوريين.. كتيبة مظلات سوريين فيه أفراد هنا قالوا لازم نروح.. دي معركتنا، ودي بلدنا، ودي أهدافنا، ودي قوميتنا.

... ألغيت هذه الأوامر كلها وعادت القوات التي كانت تحركت بالأمس وعادت القوات اللي كانت محملة بالطائرات.. وأنا اليوم أيها الأخوة ونحن نواجه هذه اللحظات الحاسمة في تاريخ الوطن العربي والأمة العربية.. أريد في هذه اللحظات أن يعرف الشعب العربي هنا في مصر أنه ليس هناك وقت يدعونا إلى التمسك بعروبتنا أكثر من هذا الوقت، أكثر من هذه اللحظات.

... أيها الأخوة المواطنون: إن الوحدة هي إرادة شعبية، ولن أرضى من جانبي بأي حال من الأحوال أن أحول هذه الوحدة إلى عملية عسكرية.. وهذا هو السبب في إصدار الأوامر بإلغاء العمليات العسكرية بالأمس.. الوحدة إرادة شعبية.. ولا يمكن للوحدة أن تكون عملية عسكرية..

إن الجمهورية العربية المتحدة أيها الأخوة المواطنون ستسير في الطريق وهي أشد قوة.. قلعة للحرية العربية.. وقلعة للنضال العربي.. فتمسكوا بالمبادىء في سبيل خلق مجتمع ترفرف عليه العدالة الإجتماعية.. والله يوفقنا جميعاً.. أيها الأخوة والسلام عليكم ورحمة الله.

خطاب الرئيس جمال عبد الناصر

في ١٩٦١/١٠/٦

أيها الأخوة في جميع أرجاء الوطن العربي.. هذه أول مرة أسمح فيها لنفسي أن أوجه الخطاب إليكم جميعاً على هذا النحو الرسمي ولكني أشعر أن من حقكم علي ومن واجبي حيالكم أن أطلعكم على فكري وأن أفتح أمامكم قلبي في هذه اللحظات الحاسمة من نضال الأمة العربية ومن كفاحها في سبيل مثلها الأعلى في الوحدة والحرية.. أنني لا أوجه هذا الحديث إلى شعب الجمهورية العربية المتحدة وحده لأني أعتبر أن الساعات التي تعيشها الآن ليست ملكنا وحدنا إنما ملك تاريخ سبى وملك حاضر يسيل الدم والعرق.. وملك مستقبل نحاول تحريكه في ضمير الغيب وملك حاضر يبنيه الدم والعرق.. وملك إلى الأبد من أجل هذه الأمة العربية ومن

أجل عزتها.. لهذا أريدكم جميعاً أن تكونوا معنا وأن تعيرونا كل الفكر الواعي منكم والإهتمام..

أيها الأخوة.. لقد وقع في سوريا ما تعرفون جميعاً.. تعرفون ما حدث بالأمس وتعرفون ما يحدث اليوم وإذا كنت أقول لكم أنني أتابع تطورات الحوادث بقلب جريح فإنني أقول لكم في نفس الوقت أن ما يشغل بالي ليس هو ما حدث حتى الآن وإنما يشغل بالي أكثر منه ما يمكن أن يتداعى وراء ذلك من أخطار على الأمة العربية وعلى كيانها وعلى مستقبلها..

وأقول لكم الآن أنني أكاد أرى الأمة العربية مقدمة على محنة رهيبة وأشعر أن واجبي يحتم علي أن أفعل كل ما في وسعي كي أجنب الأمة العربية هذه المحنة لكي يبقى لها دائماً تنبهها إلى الأخطار المحيطة بها وقدرتها على النضال من أجل أهدافها لا يشغلها عن ذلك شيء ولا يحد اهتمامها منه أي اعتبار محلي مؤقت وإني لأقول لكم جميعاً بضمير راض وقلب مستريح أنني لا أقبل مهما كانت الظروف أن أرى الشعب هنا والشعب في سوريا أطراف معركة وأصحاب خلاف وشقاق، لا أستطيع أن أتصور القاهرة ودمشق إلا أخوة كفاح وإلا زملاء معركة وإلا شركاء قدر ومصير مع كل عاصمة عربية أخرى.. مع كل مدينة عربية.. مع كل قرية عربية. ولقد شعرت خلال الأيام الأخيرة أن ما حدث كله قد فتح فرصة واسعة أمام الأمة العربية من قوى الإستعمار.

واليوم أعلن إليكم جميعاً أنني إذا كنت قد رفضت أن تكون الحرب العسكرية وسيلة إلى تدعيم الوحدة فإنني أرفض الآن أن تكون الحرب الأهلية بديلة لذلك.. ولعلكم تذكرون أن الإجماع الكامل كان من الشروط الأساسية في قبول قيام الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير سنة ١٩٥٨..

ولقد تمت خلال ثلاث سنوات ونصف من الوحدة أعمال حقيقية لم تشهدها سوريا في كل تاريخها أقول ذلك لكي أتفاخر به أو أتباهى وإنما أقول كأمر واقع تشهد به الأرقام وتؤكد به قدرة الشعب السوري على بناء نفسه إذا ما أتيحت له فرصة لتركيز جهوده وإحسان توجيهها.. في هذه السنوات الثلاث والنصف حاولنا بكل جهدنا توجيه الشعب في اتجاه البناء بناء الوطن وبناء المواطن.

أيها الأخوة في جميع أرجاء الوطن العربي.. إنني أشعر في هذه اللحظات.. أنه ليس من المحتم أن تبقى سورية قطعة من الجمهورية العربية المتحدة ولكن من المحتم أن تبقى سورية...

إنني أشعر أن الذي يشغل بالي ليس هو أن أكون رئيساً للشعب العربي في سورية ولكن الذي يشغل بالي هو أن يكون الشعب العربي في سورية وأن يصان له كيانه.. ولست أتصور أن أقبل بحال من الأحوال أن أرى فتنة تهدد الشعب السوري أو خطراً يتربص به أو شاغلاً يشده ويبعثر

لقد كان أعظم الملامح في تجربتنا الفكرية والروحية.. إننا لم ننهمك في النظريات بحثاً عن حياتنا، وإنما انهمكنا في حياتنا ذاتها بحثاً عن النظريات.

إنه ينبغي لنا مهما كان الثمن ألا نسمح بظهور طبقة جديدة تظن أن الإمتيازات إرثاً لها.. بعد الطبقة القديمة.

وعلينا أن نقاوم مثل هذا الإنحراف ونقومه، ونثور عليه إذا اقتضى الأمر، ونجرده من أي سلاح يكون قد حصل عليه.

لا بد أن نتحقق من أن الأعداء لا يتكالبون علينا إلا لأنهم يشعرون أننا نتقدم.. وأننا نحقق وأننا ننجز..

لو كنا في مكاننا قابعين لما اهتم بنا أحد..

الحرب ضدنا دليل على سلامة طريقنا.

لا بد أن نصمم على خلق التطور الإقتصادي والتطور الإجتماعي.. طريقاً للحرية وللإشتراكية.

إن ٥ يونيو كان صدمة.. ولكن جماهير شعوب الأمة العربية، أثبتت عملياً وصممت على الرفض.. رفض الهزيمة.. ويجب أن نلح على الرفض.. أنها أثبتت عملياً لكي تفرق بين الرفض الإرادي، والرفض الإنفعالي الذي يصدر عن العاطفة وحدها.. أن الأمة العربية حينما خرجت تعلن عن تصميمها على القتال كانت تعبر عملياً عن رفضها للهزيمة وعن استعدادها للتضحية وعن استعدادها لتقديم دمائها وأرواحها فداء لكرامتها.. وفداء لأراضيها وفداء لشرفها وفداء لوطنها.

(عيد العمال ١/ ٥/ ١٩٧٠)

الثقافة والجماهير

إن العلم في جميع المجالات، هو بمثابة المصابيح الكاشفة، نوجهها إلى كل ما حولنا للننسج بالنور تصورنا لشكل المستقبل، ثم لنخطو بالنور وصولاً إليه.

فبغير المصابيح الكاشفة للعلم في جميع المجالات فإن تصورنا للمستقبل وحركتنا إليه، تصبح تحسساً أو تخبطاً في المجهول وفي الظلام.

(خطاب في ١٤/ ١٢/ ١٩٦٤)

الجزائر. كانت فرنسا تريد إخضاع القاهرة، وكانت تعتقد أنها بذلك تستطيع إخضاع ثورة الجزائر.

(عيد النصر في بور سعيد ٢٣/١٢/١٩٦٦)

إن ما حدث في فلسطين خطير. يوازي في خطورته ما يحدث أمامنا الآن في روديسيا الجنوبية.. إن لم يزد عنه خطورة. فإن الإستعمار اغتصب متخفياً وراء الحركة الصهيونية المتحالفة معه، قطعة من قلب الأمة العربية وطرد شعبها.. وأقام عليها وسط الأرض العربية قاعدة عدوانية مسلحة تهدد مطالب الحرية العربية، مطلب الوحدة العربية ومطلب التقدم العربي.

(مؤتمر عدم الإنحياز ١٥/١٠/١٩٦٤)

ففي الواقع فإن إسرائيل إلى جانب ما تحتويه من عدوان عنصري.. فهي أيضاً عدوان إستعماري، بل إنه لولا العدوان الإستعماري، ما تمكن العدوان العنصري من الإعتداء الذي اغتصب به ما اغتصب من الأرض الفلسطينية العربية.. وذلك يعني أننا نواجه ما نواجه من ظروف المرحلة، ضرورة تبين جبهة العدو على امتدادها، ومهما كانت أساليب التخفي والتمويه، فينبغي أن يدرك أننا لا نمارس مواجهتنا للمهمة وللمرحلة في فراغ..

(مؤتمر القمة العربي الثالث بالدار البيضاء ١٣/٩/١٩٦٥)

روديسيا العنصرية

إن مشكلة روديسيا ليست بعيدة عنا.. بل لربما كنا نحن أقرب إخواننا الإفريقيين إلى فهم طبيعتها، فهي في صميم الأمر تكرار لمؤامرة إسرائيل.. أقلية غريبة، تدعي لنفسها عنصرياً حقاً في وطن شعب آخر.. وتحت ظل الإستعمار.. تتقدم لتمسك بمفاتيح الثورة الوطنية والسلطة الفعلية.

ثم تفرض بالقوة سيطرتها، إلى حد إعلان استقلال مزعوم، ويتظاهر الإستعمار بعدم الرضا.. مع أنه يملك فرصة التغيير ووسائله، ولكنه في الواقع شريك نفس المخطط العدواني مهما تظاهر، ومهما كان التنويع في الأدوار..

إن تجارب الماضي.. وتجارب الحاضر.. تنطق أمامنا بالعبرة الأولى للتاريخ.. وهي أنه لا يقوم سلام إلا على العدل.. لا بالقوة ولا بتوازن القوى.. ولا بموازين الرعب..

وإنما بالعدل وحده.. يقوم ويدوم السلام..

(مجلس الأمة ٢٥/١١/١٩٦٥)

وتحقيق السيطرة للطيران الإسرائيلي على أجواء المنطقة الأمر الذي سهل اندفاع القوات البرية الإسرائيلية في سيناء والضفة الغربية والجولان، رغم كل البطولات الخارقة التي سجلت من قبل القوات العربية على أرض المعركة والتي خاضت حرباً غير متكافئة بفعل السيطرة الإسرائيلية الجوية الكاملة مما اضطر هذه القوات العربية للإنسحاب إلى مواقع دفاعية جديدة.

بيان التنحي للرئيس جمال عبد الناصر عن القيادة

١٩٦٧/٦/٩

«أيها الأخوة»:

لقد تعوَّدنا معاً في أوقات النصر، وفي أوقات المحنة، في الساعات الحلوة وفي الساعات المرّة، أن نجلس معاً وأن نتحدَّث بقلوب مفتوحة وأن نتصارح بالحقائق مؤمنين أنه من هذه الطريق وحدها نستطيع دائماً أن نجد اتجاهنا السليم مهما كانت الظروف عصيبة ومهما كان الضوء خافتاً.

ولا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة. لكنني واثق أننا جميعاً نستطيع وفي مدة قصيرة أن نجتاز موقفنا الصعب وإن كنا نحتاج في ذلك إلى كثير من الصبر والحكمة والشجاعة الأدبية ومقدرة العمل المتضامنة.

لكننا أيها الأخوة نحتاج قبل ذلك إلى نظرة على ما وقع لكي نتتبَّع التطورات وخط سيرها في وصولها إلى ما وصلت إليه.

إننا نعرف جميعاً كيف بدأت الأزمة في الشرق الأوسط في النصف الأول من أيار الماضي. كانت هناك خطة من العدو لغزو سوريا وكانت تصريحات ساسته وقادته العسكريين كلهم تقول بذلك بصراحة، وكانت الأدلَّة متوافرة على وجود الكثير. كانت مصادر إخواننا السوريين قاطعة في ذلك، وكانت معلوماتنا الوثيقة تؤكِّده، بل وقام أصدقاؤنا في الإتحاد السوفياتي بإخطار الوفد البرلماني الذي كان يزور موسكو في مطلع الشهر الماضي بأن هناك قصداً مبيَّتاً ضد سوريا. ولقد وجدنا واجباً علينا ألاّ نقبل ذلك ساكتين. وفضلاً عن أن ذلك واجب الأخوة العربية فهو أيضاً واجب الأمن الوطني بأن البادىء بسوريا سوف يثنّي بمصر.

ولقد تحرَّكت قواتنا المسلحة إلى حدودنا بكفاءة شهد بها العدو قبل الصديق. وتداعت على أثر ذلك خطوات عديدة منها إنسحاب قوات الطوارىء الدولية ثم عودة قواتنا إلى موقع شرم الشيخ المتحكِّم في مضائق تيران والتي كان العدو الإسرائيلي يستعملها كأثر من آثار العدوان الثلاثي الذي وقع علينا عام ١٩٥٦. ولقد كان مرور علم العدو أمام قواتنا أمر لا يحتمل فضلاً عن دواعٍ أخرى تتصل بأعز أماني الأمة العربية.

ولقد كانت الحسابات الدقيقة لقوة العدو تظهر أمامنا أن قواتنا المسلحة بما بلغته من مستوى في المعدات وفي التدريب قادرة على ردّه وعلى ردعه. وكنا ندرك أن احتمال الصراع بالقوة المسلّحة قائم، قبلنا بالمخاطرة. وكانت أمامنا عوامل عديدة وطنية وعربية ودولية منها رسالة من الرئيس الأمريكي ليندون جونسون سلّمت إلى سفيرنا في واشنطن يوم ٢٦ أيار تطلب إلينا ضبط النفس وألاّ نكون البادئين بإطلاق النار وإلاّ فإننا سوف نواجه نتائج خطيرة.

وفي الليلة نفسها فإن السفير السوفياتي طلب مقابلتي بصفة عاجلة في الساعة الثالثة والنصف من بعد منتصف الليل وأبلغني بطلب ملح من الحكومة السوفياتية بألاّ نكون البادئين بإطلاق النار.

تصفية الحسابات مع حركة القومية العربية

وفي صباح يوم الإثنين الماضي الخامس من حزيران جاءت ضربة العدو، وإذا كنا نقول الآن بأنها جاءت بأكثر مما توقعناه فلا بدّ أن نقول في الوقت نفسه وبصفة أكيدة أنها جاءت بأكبر مما يملكه، مما أوضح منذ اللحظة الأولى أن هناك قوى أخرى وراء العدو جاءت لتصفّي حساباتها مع حركة القومية العربية.

ولقد كانت هناك مفاجآت تلفت النظر:

أولاً: إن العدو الذي كنا نتوقعه من الشرق ومن الشمال جاء من الغرب، الأمر الذي يقطع بأن تسهيلات تفوق مقدرته وتتعدّى المدى المحسوب لقوته قد أعطيت له.

ثانياً: إن العدو غطّى في وقت واحد جميع المطارات العسكرية والمدنية في الجمهورية العربية المتحدة، ومعنى ذلك أنه كان يعتمد على قوة أخرى غير قوته العادية لحماية أجوائه من أي رد فعل من جانبنا كما أنه كان يغطي بقية الجبهات العربية بمعونات أخرى استطاع أن يحصل عليها.

ثالثاً: إن الدلائل واضحة على وجود تواطؤ استعماري معه، يحاول أن يستفيد من عبرة التواطؤ المكشوف السابق عام ١٩٥٦ ليغطي نفسه هذه المرة بلؤم وخبث. ومع ذلك فالثابت الآن أن حاملات طائرات أمريكية وبريطانية كانت بقرب شواطىء العدو تساعد في مجهوده الحربي.

كما أن طائرات بريطانية أغارت في وضح النهار على بعض المواقع في الجبهة السورية وفي الجبهة المصرية إلى جانب قيام عدد من الطائرات الأمريكية بعمليات الإستطلاع فوق بعض مواقعنا. ولقد كانت النتيجة المحقّقة لذلك أن قواتنا البرية التي كانت تحارب أكثر المعارك عنفاً وبسالة في الصحراء المكشوفة، وجدت نفسها في الموقف الصعب لأن الغطاء الجوي فوقها لم يكن كافياً إزاء التفوق الحاسم للقوى الجوية المعادية بحيث أنه يمكن القول، دون أن يكون في ذلك أي أثر للإنفعال أو المبالغة، إن العدو كان يعمل بقوة جوية تزيد ثلاث مرات عن قوته

حرب مضنية نفسية واقتصادية وسياسية.. ثم يشترون من داخل دولة الوحدة ذاتها، بعض عناصر الخيانة لكي تكون الضربة من الداخل طعنة خنجر في الظهر وفي الظلام.. فإن هذا مهما كان نجاحه المبدئي أو الظاهر عمل ضائع مقضى عليه بالفشل قد يعطل المسيرة بعض الوقت.. لكنه لا يعرقلها.. قد يعوق الوحدة لبضع سنوات، لكنه لا يحطمها..

إن دولة الوحدة، التي ضربت من الظهر والظلام في سوريا بقيت مرددة نشيدها، رافعة أعلامها، ماضية في طريقها.. تناضل من أجل ما هو حق وخير.. وتناضل بقوة مضاعفة تأكيداً للأمل وتعويضاً على النكسة..

(عيد الوحدة ٢١/ ٢/ ٦٥)

دور مصر الطليعي

إننا جزء لا يتجزأ من أمة عربية واحدة.. تاريخها واحد.. ونضالها واحد.. ومصيرها واحد.. وإذا كنا قد وصلنا بالكفاح إلى حيث يكون مقدورنا أن نعطي وأن نساند. فإنه من الضروري أن نعرف واجبنا.. ونقبل بأعبائه. إن سلامة الأمة العربية الواحدة لا تتجزأ.. والعدوان على أي جزء منها عدوان على الكل.. وإذا كان غيرنا يتعرض لظروف لا تمكنه من الإسهام في الكفاح المشترك إلا بقدر محدود.. ولنذكر باستمرار أن الجميع يقاتلون بما في أيديهم.. لتكون لهم القدرة غير المحدودة على الإسهام في معركة المصير المشترك.. وكان في أيدينا من وسائل الكفاح أمضى وأفعل.. فذلك شرف لنا بقدر ما هو أمانة..

إن الإستعمار لن يحمل عصاه على كاهله ويرحل من كل الأرض العربية بالإقناع.. وبالمنطق.. كذلك فإن إسرائيل لن تنزاح من مكانها في وسط الأمة العربية رضا وسلاما.. وإذا كان الجزء الأكبر من المسؤولية في هذه المرحلة علينا.. فإن قوى الطليعة العربية تتزايد كل يوم وسوف تتكامل طاقاتها باستمرار النضال اليومي للجماهير على كل أرض عربية..

(بيان مجلس الأمة ٢٠/ ١/ ١٩٦٥)

إن وجود مصر ضعيفة.. ضعف للنضال العربي كله.. ووجود مصر مغلولة.. شلل للنضال العربي كله.. وليست هذه حقيقة جديدة.. وإنما هي استقراء التاريخ والطبيعة، ولعل ذلك من وجهة نظر السياسة الإستعمارية من بين الأسباب التي قصدها الذين مهدوا للعدوان الإسرائيلي.. بين أسبابهم في هذه المؤامرة.. أن يعزلوا مصر وراء حاجز الصحراء في سيناء عن الشرق العربي كله، ليمنعوا اتصالها به. وليسهل على إسرائيل أن تواجه جبهات عربية ممزقة ومتباعدة. وليسهل عليهم بدورهم أن يتعاملوا مع عالم عربي مشطور في منتصفه..

إن تأكيد الذات العربية لمصر.. وجه ضربة ضد المخطط الإستعماري.. ثم بدأت عملية بناء القوة الذاتية المصرية ثورياً تعمل على تصحيح آثاره.. وتوقف تداعيها.. والأمل معلق

إنني بذلك لا أصفّي الثورة. ولكن الثورة ليست حكراً على جيل واحد من الثوار. وإن بإسهام هذا الجيل من الثوار حقّق جلاء الإستعمار البريطاني، وحقّق استقلال مصر، وجسد شخصيتها العربية وحارب سياسة مناطق النفوذ في العالم العربي، وقاد الثورة الإجتماعية وأحدث تحولاً عميقاً في الواقع المصري، وأكّد تحقيق سيطرة الشعب على موارد ثروته وعلى ناتج العمل الوطني، واسترد قناة السويس، ووضع أسس الإنطلاق الصناعي وانتصر وبنى السد العالي ليغرس الخضرة الخصبة على الصحراء المجدبة، ومدّ شبكات الكهرباء المحركة فوق وادي النيل الشمالي كله، وفجّر موارد النفط بعد انتظار طويل. وأهم من ذلك وضع على قيادة العمل السياسي، تحالف قوى الشعب العاملة الذي هو المصدر الدائم لقيادات متجدّدة تحمل أعلام النضال الوطني والقومي مرحلة بعد مرحلة وستبني الإشتراكية وتنتصر.

إنها ساعة للعمل وليست ساعة للحزن

إن ثقتي غير محدودة بهذا التحالف القائم للعمل الوطني: الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية. إن وحدته وتماسكه والتفاعل الخلاّق داخل إطار هذه الوحدة قادر على أن يصنع بالعمل، والعمل الجاد، وبالعمل الشاق كما قلت أكثر من مرة معجزات ضخمة في هذا البلد ليكون قوة لنفسه والأمة العربية ولحركة الثورة الوطنية وللسلام العالمي القائم على العدل.

إن التضحيات الذي بذلها شعبنا وروحه المتوقّدة خلال فترة الأزمة والبطولات المجيدة التي كتبها الضباط والجنود تبقى شعلة ضوء لا تنطفىء في تاريخنا وإلهاماً عظيماً للمستقبل وآماله الكبار. لقد كان الشعب رائعاً كعادته أصيلاً كطبيعته مؤمناً صادقاً مخلصاً وكان أفراد قواتنا المسلّحة نموذجاً مشرفاً للإنسان العربي في كل زمان ومكان. لقد دافعوا عن حبّات الرمل في الصحراء إلى آخر قطرة من دمهم وكانوا في الجو برغم التفوّق المعادي أساطير للبذل وللفداء وللإقدام للإندفاع الشريف إلى آداء الواجب أنبل ما يكون عزاؤه، إن هذه ساعة للعمل وليست ساعة للحزن. إنه موقف للمثل العليا وليس لأية أنانيات أو مشاعر فردية. إن قلبي كله معكم وأريد أن تكون قلوبكم كلها معي.

وليكن الله معنا جميعاً أملاً في قلوبنا وضياء وهدى. والسلام عليكم ورحمة الله.

بيان العودة إلى القيادة

١٩٦٧/٦/١٠

«السيد رئيس مجلس الأمة»:

لقد كنت أتمنّى لو ساعدتني الأمة على تنفيذ القرار الذي اتخذته بأن أتنحّى، ويعلم الله أنني لم أقصد في اتخاذ هذا القرار أي سبب غير تقدير المسؤولية تجاوباً مع ضميري ومع ما أتصوّر أنه

واجبي. وإني لأعطي هذا الوطن راضياً وفخوراً كل ما لديّ حتى الحياة إلى آخر نفس فيها.

*

«. إن الشعب المصري لم يفقد في تاريخه إيمانه بربه أو بنفسه أو بأمته أو بالأهداف العزيزة التي وقف عنها مدافعاً ومجاهداً. ليست إلاّ أياماً قليلة واستعاد الشعب المصري إرادته في القتال وخاض جيشه معركة رأس العش بعد مرور أقل من شهر واحد على هذه النكسة ثم واجه العدو في البحر وأغرق أكبر وحداته البحرية وهي المدمّرة إيلات ثم مضى يتصاعد في مقاومته للعدو.

والآن أيها الأخوة المواطنون في كل مكان، أيديكم معي ولنبدأ مهمتنا العاجلة، وليمنحنا الله جميعاً تأييده وهداه».

حرب الاستنزاف
(١٩٦٧ ـ ١٩٧٠)

لم تستطع النكسة أن تبدل من قناعات جمال عبد الناصر بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بغيرها فأخذ يعطي الأولوية القصوى لإعادة بناء القوات المسلحة لتكون قادرة على مواصلة واستمرارية المعركة مع إسرائيل رغم ما خلفته الهزيمة من تدمير كاملة للقدرة العسكرية المصرية.

وفي فترة البناء هذه والتي مهدت بعد غيابه لانتصار أكتوبر ١٩٧٣ كانت الجبهة مع إسرائيل مشتعلة لا تعرف حدوداً محددة في الأرض والجو والبحر كما في ملاحقة العدو أينما وجد في بقاع العالم.

معركة رأس العش: إنتهت معركة يونيو ٦٧ واحتل العدو شبه جزيرة سيناء عدا جزء صغير من الأرض شرق وجنوب مدينة بور فؤاد تمركزت فيه وحدات صغيرة من الصاعقة والمشاة.

قام العدو بسلسلة هجمات للقضاء على الموقع المتبقي من جزيرة سيناء بيد القوات المصرية يوم ٦٧/٧/١ لكن كل هجماته البرية والجوية باءت بالفشل للدفاع الصعب والشرس الذي بذله المدافعون مما كبد القوات الإسرائيلية خسائر باهظة في الآليات والأفراد.

بقي هذا الموقع صامداً طوال فترة حرب الإستنزاف وحتى تحرير سيناء في أكتوبر ٧٣.

السيطرة الجوية على القناة:

يوم ٦٧/٧/١٤، اشتدت المواجهات الجوية بين الطيران المصري والإسرائيلي فوق قناة

العربي.. بقيام الثورة فيها.. وقيام الثورة في ليبيا لا يمكن أن يقدر بمال.. نجاح الثورة في ليبيا، كسب بغير حدود.. دخول ليبيا إلى مطار الدول العربية المتحررة التقدمية المناضلة.. هو أمل بدأ في مثل هذه الظروف كأنه خيال ولقد حققت الثورة فعلاً ما كان يبدو خيالاً.

ظهرت المقاومة الفلسطينية، واستطاعت المقاومة أن تحرك الشعب الفلسطيني من شعب من اللاجئين، إلى شعب من المقاتلين. واستطاع العمل الفلسطيني أن يفرض نفسه على كل العالم.

إن البعث الذي حدث لشعب فلسطين ظاهرة تكاد لا تصدق. ولكن هذه الظاهرة دليل حياة لا تموت، وأصالة لا تتحول. ولا نستطيع في هذا أن ننكر دور جماهير الشعب الفلسطيني. الشعب الفلسطيني الذي يرزح تحت الإحتلال يناضل نضالاً مستمراً.

ليس هناك معيار أوفى، ولا أدق، من الموقف الذي يتخذه أي فرد أو أي جماعة، أو أي حكومة، من قضية المقاومة ومساعدتها، والتمكين لها، وتدعيم جهودها.

النضال ضد الإستعمار والتخلف:

إننا ندرك، أن القوى المعادية لحرية الشعوب، لن تستطيع إيقاف ساعة التاريخ.. ولن تستطيع إعادة عقاربها إلى الوراء..

وأن أقصى ما تستطيعه هذه القوى، المعادية لحرية الشعوب، لا يمكن أن يكون أكثر من عارض عابر. ومع ذلك، فإننا لا نستطيع أن نعتمد على حركة التاريخ وحدها.. وإنما لا بد من تدعيمها بنضال مشترك عميق ومتسع..

أممت قنال السويس، وعادت القنال إلى أهلها.. إلى الشعب المصري إلى الشعب العربي.. وأخذ الحقد يتأجج في النفوس.. في نفوس أعدائنا. فقرروا العدوان، ولكن لم يكن من السهل عليهم أن يعتدوا بدون ذريعة.. بدون حجة.. ففكروا في إسرائيل.. أن تكون إسرائيل الذريعة.. وأن تكون إسرائيل الحجة.

وكانت بريطانيا تريد الحيلولة دون قيام قوة ذاتية وطنية في مصر، اقتصادية وسياسية وعسكرية.

وتريد أن تقمع بالإرهاب احتمالات تفاعل التأثير والتأثر، بما يخلق قوة كبرى في هذه المنطقة، تتحدى سيطرة الإستعمار عليها اقتصادياً وسياسياً.

فرنسا كانت تريد بالدرجة الأولى ضرب مصر، باعتبار مصر قاعدة لحركة الثورة العربية.

وكانت فرنسا تريد أن تحول دون مصر وأداء دورها المشروع والحق، في تأييد شعب

التوغل داخل خطوط العدو حيث كمنت لسيارة عسكرية إسرائيلية داخلها ضابط ويدعى دان أفيدان وسائقه.

توفي السائق بعد إصابته بالمكمن وتم أسر الضابط ونقله للضفة الغربية للقناة.

معركة بور توفيق:

في ١٠/٧/١٩٦٩ أصدرت القيادة العسكرية أمراً للكتيبة ٤٣ /صاعقة: التسلل ليلاً إلى منطقة بور توفيق حيث يعتبر هذا الموقع المحتل منطقة حساسة وهامة ومصدر تهديد مباشر لقواتنا ولمنشآتنا النفطية. تمكنت الكتيبة ٤٣ من التسلل ليلاً لمواقع العدو الحصينة حيث دمرتها تدميراً كاملاً وعادت دون أي خسائر تذكر.

كانت هذه المعركة فاتحة معارك لقوات الجيش الثالث الميداني والتي توالت بنجاح بعد ذلك.

عملية عيد العمال:

في أول مايو أيار ١٩٧٠ اقتحمت قوة من الصاعقة المصرية موقعاً إسرائيلياً محصناً شرقي القنطرة حيث احتفظت بالموقع ليوم كامل بعد قتل جميع عناصر العدو وكمنت هذه القوة للدوريات الإسرائيلية حيث استطاعت الحاق خسائر كبيرة في الأفراد والمعدات.

السبت الإسرائيلي الحزين:

في ٣٠ مايو ١٩٧٠، اجتازت قناة السويس مجموعة كوماندوس مصرية تقدر بثلاثين عنصراً هدفها إنشاء مكامن للعدو على الضفة الشرقية المحتلة وإحضار أسرى أحياء للعدو وذلك بهدف جمع أكبر قدر ممكن من معلومات حول تحركات ومواقع العدو.

واجهت مجموعة الكوماندوس رتلاً إسرائيلياً مكوناً من ٤ دبابات و ٤ عربات نصف مجنزرة تحميه طائرتا ميراج. تمّ تدمير الرتل الإسرائيلي بالكامل وسقوط عناصره جميعاً بين قتيل وجريح. واستطاعت مجموعة الكوماندوس اعتقال اثنين من جيش العدو تم نقلهم أحياء إلى القاهرة.

عمليات ومعارك القوات الجوية:

في ٢٤/٧/١٩٦٩. سلسلة غارات جوية ناجحة على المواقع الإسرائيلية في أم خشيب مركز قيادة العدو الأمامي.

في ١١/٩/١٩٦٩. قيام أكثر من ١٠٠ طائرة مقاتلة قاذفة مصرية بالإغارة وليوم كامل على المحور الشمالي لسيناء المحتلة من رمانة حتى مصقف والمحور الجنوبي في متلا والحيطان.

في تشرين الثاني ١٩٦٩. هجمات منسقة للطيران المصري طوال شهر أكتوبر على منطقة الساحل الشمالي لسيناء حيث مراكز ايواء وتدريب وإعاشة وتشويش للعدو.

بداية عام ١٩٧٠. بدأ الطيران الحربي المصري في الإغارة على العمق للأراضي المحتلة في سيناء وكانت غاراته مركزة على منطقة «ناحل يام» غربي العريش.

فبراير ١٩٧٠. رداً على الضربات الجوية والبرية المركزة للقوات المصرية وما ألحقته من خسائر فادحة في صفوف العدو قام الطيران الإسرائيلي بشن عدة غارات على مواقع مدنية ثأراً لخسائره، حيث سقط أكثر من ٧٠ شهيداً من العمال في قصفه لمصنع أبو زعبل.

في ١٨/ ٤/ ٧٠ وحتى ٢٨/ ٤/ ٧٠ شن الطيران المصري هجمات جوية ناجحة وطوال ١١ يوماً على مواقع قيادة العدو في سيناء والتي شملت تدمير مواقع صواريخ الهوك ورادارات القوات الجوية ومناطق تجميع الدبابات.

٣٠/ ٥/ ١٩٧٠. تمكنت صواريخ الدفاع الجوي غرب القناة من إسقاط طائرة استطلاع جوي الكتروني وعلى متنها ١٢ خبير فني إسرائيلي قتلوا جميعاً.

يوليو ١٩٧٠. تم وضع اللمسات الأخيرة على خطة عمليات القوات الجوية لتحرير سيناء والتي كانت جاهزة لتصديق القائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس جمال عبد الناصر عليها.

من ٣٠/ ٦ لغاية ٦/ ٧/ ٧٠ . اصطادت الصواريخ المصرية المضادة للطائرات أكثر من ١٨ طائرة وأسرت ٥ طيارين أحياء عدا عن إصابة أكثر من ٥٠ طائرة إصابات مختلفة.

عمليات ومعارك القوات البحرية:

تدمير وإغراق المدمرة إيلات:

يوم ٢١/ ١٠/ ٦٧ اخترقت أكبر قطع الأسطول الإسرائيلي «المدمرة إيلات» المياه الإقليمية المصرية باتجاه بور سعيد، فتم إصدار الأوامر للقوات البحرية بالتصدي للمدمرة وإغراقها. تم تدمير المدمرة دون خسائر في زورقي الطوربيد المصريين اللذين توليا المواجهة. إغراق المدمرة أغرق معه ٢٥٠ عسكرياً بحرياً إسرائيلياً هو طاقم المدمرة.

أمام عجز القوات الإسرائيلية بالرد العسكري لجأت إلى ضرب وقصف الأهداف المدنية والإقتصادية ثأراً لإغراق المدمرة «ايلات» فقصفت منشآت البترول في السويس مما جعل الحكومة المصرية تعمد إلى إجلاء سكان المدن الرئيسية من منطقة غرب قناة السويس (نحو مليون ونصف مواطن) إلى مناطق إيواء واعاشه داخل الجمهورية.

يوم ١٩٦٩/٩/٩. قامت مدمرتين بحريتين مصريتين بالإغارة من البحر على معسكرات رمانة والتي كانت مخصصة كمراكز للتدريب والراحة.

كذلك قامت القوات البحرية بالإغارة على عمق مواقع العدو في سيناء بمنطقة المساعيد وعلى قصف ميناء نصراني في شرم الشيخ ومنطقة أبو رديس وسدر. . واستطاعت القوات البحرية تقييد الملاحة الإسرائيلية في البحر الأحمر وخليج العقبة.

عمليات القوات الخاصة:

منتصف العام ١٩٦٩ : قامت القوات الخاصة المصرية بالتعاون مع فدائيين فلسطينيين في الأردن وقطاع غزة بالتخطيط لضرب مواقع العدو في المنطقة بين ميناء اسدود على البحر الأبيض وميناء ايلات على خليج العقبة مع التركيز على ميناء ايلات.

واستطاعت هذه القوات التحرك من الساحل الشرقي لخليج العقبة بواسطة قوارب مطاطية باتجاه ميناء ايلات حيث تسللت إلى داخل الميناء واستطاعت هذه القوات تدمير منشآت الميناء البترولية فضلاً عن تدمير ناقلات البترول والتي كانت راسية فيه وكذلك تدمير محطات الضخ البترولية وتدمير مواسير ضخ البترول في وادي عرابة.

كذلك تمت عمليات مماثلة عبر خليج السويس حتى حقل علما وفي سدر وأبو زنيمة والطور.

تدمير الحفار كينتخ في أبيدجان:

قامت إسرائيل بالتعاقد مع شركة كندية امريكية لاستئجار حفار بحري ضخم أطلق عليه إسم «كينتخ» لاستخراج بترول خليج السويس على الشاطىء الشرقي، تحرك الحفار بقاطرة هولندية من غرب أوروبا حيث رصد في القنال الإنجليزي متجهاً إلى غرب أفريقيا في أوائل ١٩٧٠ تمهيداً لدخوله للبحر الأحمر. تمت دراسة الموقف بالنسبة للحفار ومدى استغلال إسرائيل لاستخراج بترول سيناء بأي وسيلة وبأكبر كمية وبسرعة.كما درس الموقف العسكري والموقف السياسي للدول والتي سيمر عليها الحفار وتمت موافقة الرئيس عبد الناصر على ضرب الحفار قبل وصوله إلى مياه البحر الأحمر. وتابعت إدارة المخابرات العامة تحركات الحفار الإسرائيلي.

تم التنسيق لخطة تدمير الحفار الإسرائيلي بين وزارة الحربية وبين المخابرات العامة وتحركت وحدة ضفادع بشرية من القوات البحرية جوّاً إلى أبيدجان (ساحل العاج) حيث رسى الحفار في مينائها.

قامت مجموعة الضفادع البشرية بتدمير الحفار ليلة ٧٠/٣/٨ تدميراً جعله غير صالح لاستكمال مهمته.

حصيلة حرب الإستنزاف (٦٧ ـ وحتى وقف إطلاق النار المؤقت ١٩٧٠) والتي خرجت من رحم هزيمة ٦٧ أثبتت قدرة العسكري العربي بالتصميم على إزالة جو النكسة ومحوها، ونظراً لما خلفته من خسائر فادحة للجانب المحتل الإسرائيلي إلا أنه يبقى ما قاله العدو الإسرائيلي ممثلاً بأحد قادته العسكريين أبا إيبان أكبر مثال على حجم الهول والرعب الذي خلفته هذه الحرب في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية:

يقول أبا إيبان في شهر سبتمبر ١٩٧٠:

«إن قصف المدفعية المصرية مع الغارات الجوية عبر قناة السويس كان يسبب خسائر قاسية في القتلى بمثل ما كان يتسبب لنا من خسائر في أي حرب»

«إن وقف إطلاق النار تم استقباله في إسرائيل بشعور الرضا حيث يتساوى مع لو كنا قد توصلنا إلى تسوية سلمية.. أن نشرات الأخبار الحزينة تخبرنا بأسماء الشبان القتلى في المعركة وأن خسائرنا في القوات والمعدات الثمينة (يقصد طائرات الفانتوم والسكاي هوك) قد جعلت حرب الإستنزاف غالية التكاليف لنا.

وبالمعنى نفسه كتب العميد الإسرائيلي والمعلق الصحافي ماتي بيليه:

«إن فشل الجيش الإسرائيلي من الناحية العسكرية في حرب الإستنزاف يمثل أول معركة يهزم فيها في ساحة القتال منذ قيام إسرائيل لدرجة أننا في إسرائيل قبضنا على أول قشة ألقيت لنا ـ أي وقف اطلاق النار المؤقت.

الباب الخامس

الوداع الأخير

٢٨ سبتمبر/أيلول ١٩٧٠

... أنا مش حارقد المرة دي ... أنا عندي مواعيد شغل كتير الفترة اللي جاية ".

" .. الحمد لله أنا دلوقت استريحت ".

جمال عبد الناصر

١٩٧٠/٩/٢٨

وقائع الزيارة الأخيرة (١)

بعد ظهر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، اتصل بي السيد فؤاد عبد الحي، من الأمانة الخاصة للرئيس جمال عبد الناصر، وقال لي أن الدكتور الصاوي موجود عند الرئيس، ويطلب حضورك فوراً لأن الرئيس متعب.

توجهت في الحال، إلى منزل الرئيس. ووصلت في الرابعة وخمسين دقيقة. وبعدي بدقائق، وصل الدكتور زكي الرملي الذي كان الدكتور الصاوي قد استدعاه أيضاً.

أبلغني الدكتور الصاوي، في كلمات سريعة موجزة، أن الرئيس قد أحس بالتعب أثناء توديعه لأمير الكويت في المطار، وأنه قام بفحصه وأجرى له رسماً كهربائياً للقلب. فتبيّن وجود جلطة جديدة في الشريان التاجي، مصحوبة باضطراب في ضربات القلب، وأنه بدأ العلاج فوراً.

دخلت حجرة الرئيس، فوجدته راقداً في سريره مرتدياً البيجامة. كان يبدو عليه الإرهاق الشديد، وكان متعباً من ضربات القلب. ولكنه كان رابط الجأش لا تبدو عليه أية أعراض للقلق.

بادرني مبتسماً: «إزاي عرفوا يجيبوك دلوقت؟».

ثم استطرد، مشيراً إلى الإسبوع الذي قضاه في مؤتمر القمة في الهيلتون: «الحقيقة إنهم تعبوني جداً في الأيام اللي فاتت».

قمنا بفحصه على الفور، واستمرّ العلاج المركّز.

كنا، فريق الأطباء، نخرج وندخل كثيراً بين غرفة نومه وبين حجرة مكتبه الملاصقة، حيث

---

(١) للدكتور منصور فايز، الطبيب الخاص للرئيس ناصر، كتاب مع عبد الناصر، طبعة١، دار الملتقى – بيروت.

كنا نحتفظ بجميع الأجهزة والإستعدادات، لعلاج جلطة الشريان التاجي، إثر إصابته بالنوبة الأولى قبل عام.

كانت وجوهنا جادة، تعكس التفكير والتركيز. بينما ظل جمال عبد الناصر على هدوئه، مسيطراً على أعصابه.

لم يسألني ما الخبر؟ ولم يستفسر عما أصابه؟ فلقد كان يعرف.. وأظنه أراد أن يفسح لنا المجال لنؤدي واجبنا دون أسئلة منه.

ولكني أذكر أنه قال لي، وأنا منهمك في علاجه: «أنا مش حارقد المرة دي.. أنا عندي مواعيد وشغل كتير الفترة اللي جاية».. قالها وجهاز رسم القلب لم يزل متصلاً بذراعية وبساقيه.

وفي تمام الساعة الخامسة، مدّ جمال عبد الناصر يده إلى جهاز المذياع بجانب سريره، واستمع إلى موجز نشرة الأخبار من إذاعة القاهرة. وقال «ما فيش حاجة». ثم طلب قفل المذياع، واستطرد: «نيكسون كان عامل لي مظاهرة في نابولي وكنت عايز أعرف إيه الأخبار».

وكان نيكسون قد حضر بنفسه إلى نابولي، لحضور مناورة تقوم بها أقوى قطع الأسطول السادس. وذلك من باب التهديد لجمال عبد الناصر.

وانتظمت ضربات القلب. وقال جمال عبد الناصر: الحمد لله.. أنا دلوقت استريحت».

.. وكانت تلك آخر كلماته.

فما هي إلا لحظات حتى توقف القلب فجأة.

ولم يستجب قلب جمال عبد الناصر لمحاولاتنا اليائسة، بالتدليك وبالصدمات الكهربائية، ليعود إلى نبضه.

وأدركت أن الأمر قد قضي.. وأن جمال عبد الناصر أصبح في رحاب الله.

وفي لحظة واحدة توقف القلب.. وتدخلت الإرادة الإلهية..

وكان جمال عبد الناصر قد أمضى، قبل ذلك، فترة مشحونة بالتوتر والإنفعالات؛ أثناء انعقاد مؤتمر القمة العربي في فندق الهيلتون، لوقف إطلاق النار بين الأردن والمقاومة الفلسطينية.

وخرجنا من حجرته. ليدخل إليها أبناؤه، في وداع أخير.

نزلنا إلى ردهة الإستقبال الذي كان جمال عبد الناصر يستقبل فيه زواره وسألني أنور السادات: هل أوصى الرئيس بشيء؟ فقلت: لا.

ثم مال على حسين الشافعي، وقال له ما العمل بالنسبة لكيان الدولة؟ وأعقب ذلك، باقتراح أن ينعقد مجلس قيادة الثورة.

ولكن الرأي انتهى إلى الأخذ باقتراح هيكل، أن ينعقد إجتماع مشترك للجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء.

وانعقد الإجتماع في المساء. وحضر معظم الوزراء من الجبهة مباشرة، حيث كانوا في زيارة هناك، حسب تعليمات جمال عبد الناصر. وكان الجميع واجمين من هول الصدمة. وكان الجو حزيناً كئيباً. أعلنت التقرير الطبي وسبب وفاة الرئيس، ثم انصرفت.

كانت الإذاعتان قد بدآ، منذ الرحيل، يذيعان آيات متصلة من القرآن الكريم. فأحس الناس بأن شيئاً خطيراً قد وقع. ولكن لم يتصور أحد أن جمال عبد الناصر الذي ملأ حضوره العالم كله، قد رحل عن وطنه وعن الدنيا كلها.

وفي السابعة والنصف، ظهر أنور السادات، يعلن النبأ الجلل.

وما أن انتهى من أول جملة في بيانه، حتى عمّ البكاء كل شوارع مصر. فقد نزل الخبر على شعبها نزول الصاعقة.

زحفت الجماهير إلى بيت عبد الناصر، في منشية البكري. وحين سرى بينها الخبر أن الرئيس، قد نقل إلى قصر القبة، تحولت الجماهير إلى هناك. وانتشرت حول القصر من كل جانب وسدت الشوارع المؤدية إليه.

وباتت جماهير شعب مصر ليلتها، حول القصر، تحيط بجمال عبد الناصر.

وفي كل المدن، من المحيط إلى الخليج، كان تصرّف الشعب العربي عنيفاً إزاء النبأ. خرجت الجماهير في كل مكان إلى الشارع، مفجوعة برحيل بطلها. وفي بيروت ظلت طلقات الرصاص تدوي طوال الليل، تعبيراً عن الحزن، ورمزاً للحداد.

وأعلن عن تشييع جنازة جمال عبد الناصر يوم الأول من أكتوبر ١٩٧٠، لإتاحة الفرصة، لرؤساء الدول الراغبين في المشاركة فيها، بالحضور.

وعلى مدى ثلاثة أيام عاشتها مصر والحزن والصمت يخيّمان عليها، توافد إليها رؤساء الدول العربية والدول الصديقة في أوروبا وآسيا والإتحاد السوفييتي ووفود تمثل حكومات معظم دول العالم.

وفي أول أكتوبر ١٩٧٠، كانت مصر حديث العالم كله، ومحط أنظاره. بينما إذاعاته وشبكات المرئية فيه تنقل، على الهواء، صورة حية لشوارع القاهرة.

كان مشهداً غير مسبوق لتعبير شعب عن الحب والوفاء لزعيمه ولخروج أمة في وداع قائدها.

فما إن طلعت شمس ذلك اليوم، إلاّ وكانت القاهرة كبحر من البشر. زاد على ملايينها ملايين أخرى من المواطنين، جاؤوا إليها بالقطارات والسيارات وبكل أنواع المواصلات. بدأ الآلاف منهم مسيرتهم إلى العاصمة، من ليلة أول أكتوبر سيراً على الأقدام، ليكونوا فيها في الصباح.

كان شعب مصر ملء شوارعها، ليعبّر عن حبه لزعيمه في لفتة أخيرة.

وظهرت في سماء القاهرة، طائرة عمودية تقلّ جثمان الزعيم من قصر القبة إلى الجزيرة، لتخرج جنازته من المبنى الذي كان مقراً لمجلس قيادة الثورة.

كانت الجماهير مصطفة، على طول الطريق، من مبنى مجلس قيادة الثورة في الجزيرة إلى جامع عبد الناصر في مصر الجديدة، وكان النظام يبدو دقيقاً.

وخرجت عربة مدفع، من مبنى مجلس قيادة الثورة، تحمل النعش ملفوفاً بعلم الجمهورية العربية المتحدة ومن خلفها مباشرة سار، أبناؤه، يليهم رؤساء الدول المشاركة في الوداع المهيب.

وسارت الجنازة، وسط نحيب الجماهير، إلى كوبري قصر النيل. وما أن تعدت الكوبري واتجهت إلى شارع النيل، أمام فندق هيلتون، حتى هجمت الجماهير تربت بأيديها على النعش، لتلمسه للمرة الأخيرة.

كانت الجنازة تكاد ألا تسير، من فرط الازدحام، وتدافع الجماهير نحو عربة المدفع.

وبعد عدة ساعات، وصلت الجنازة إلى منطقة غمرة. وبدا واضحاً أن النعش الذي تم تغيير العلم الذي يلفه عدة مرات خلال هذه الفترة، لن يصل قبل الليل. فتم نقله إلى عربة مدرعة.

ولكن الجماهير ظلت من حول الرئيس، تحيط بالعربة المدرعة، حتى وصل إلى جامع عبد الناصر بعد الظهر.

وشُيع جمال عبد الناصر إلى مثواه الأخير، في وداع لم يسبق له مثيل في تاريخ مصر الحديث.

ومع مصر ارتدت عواصم ومدن الدنيا وبالذات العربية منها السواد وسارت في كل قرية ومدينة وبلد مسيرات الأسى والحزن على بطل الحرب والسلام وبدت هذه العواصم في حداد استمر لأسابيع عديدة. أعطى الجماهير كل جهده وحبه وبادلته كل التقدير وأوكلته زعامتها وقيادتها وكان الابن البار لأمانيها في العزة والكرامة والوحدة.

عاصفة البرق والرعد(١)

سرى نبأ وفاة جمال عبد الناصر كعاصفة برق ورعد وزلزال يهز البحر الأبيض ـ قلب الدنيا وبؤرة التاريخ ـ من أعماق الأعماق إلى ذرى الأمواج العالية .

وفي شرق البحر الأبيض ـ في عمان ـ تسمرت الدبابات في أماكنها وخرج رجال المقاومة من خنادقهم يصرخون وينادون عليه .

وأجهش الرئيس حافظ الأسد وزير الدفاع السوري حينها بالبكاء وهو يقول : كنا نتصرف كالأطفال ، وكنا نخطيء .. وكنا نعرف أنه هناك من يصحح ما نفعل ويرد عنا آثاره .

وفي شرق البحر الأبيض ـ في تل أبيب ـ كان النبأ أخطر من أن يصدق للوهلة الأولى، قالت غولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل : " من الذي أطلق هذه النكتة السخيفة ؟ "

ثم تأكد النبأ ، وخرجت غولدا مائير تشارك شعب إسرائيل فرحته بالخلاص من أعدى أعداء إسرائيل .

وأصدر موشي دايان أمره إلى القوات المعدة للتدخل الإسرائيلي ـ الأميركي أن تتفرق ..

وفي شمال البحر الأبيض ، كان الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون قد صعد لتوه إلى ظهر حاملة الطائرات ساراتوجا ... ثم توجه إلى كابينة القيادة التي سيحل بها أثناء مناورات الأسطول الأمريكي السادس ، التي كان الهدف منها أن يسمع جمال عبد الناصر في القاهرة ، صوت مدافعه .ودخل عليه مساعده هالدمان بالنبأ .

وذهل نيكسون ... ثم كان قوله بعد قليل : "لا داعي الآن لهذه المناورة كلها " .

وصمتت قعقعة السلاح على قطع الأسطول الأميركي السادس، وطأطأت المدافع رؤوسها للحدث الخطير الذي يتعدى بآثاره كل الحدود .

وفي الوطن العربي وخارجه خرجت الجماهير التي أحبها وأحبته ، في موجات شعبية هيستيرية تكاد لا تصدق غياب قائدها وزعيمها .

وران على البحر الأبيض ـ قلب الدنيا وبؤرة التاريخ ـ سكوت كثيف وهدأت العواصف وارتمت الأمواج على الشواطيء وقد استنفذت كل قواها .

(١) بقلم محمد حسنين هيكل ، كتاب جمال عبد الناصر الـ ٢٤ ساعة الأخيرة .

وانتهى زمن التحدي والكبرياء:

مساء يوم ٢٨ أيلول ١٩٧٠ وفي الساعة الخامسة تحديداً توقف قلب جمال عبد الناصر عن الخفقان وأصبح في رحاب الله. ومساءً في السابعة والنصف توجه الخلف الرئيس أنور السادات إلى مبنى الإذاعة ليعلن النبأ الجلل:

«فقدت الجمهورية العربية المتحدة وفقدت الأمة العربية، وفقدت الإنسانية كلها رجلاً من أغلى الرجال وأشجع الرجال، هو الرئيس جمال عبد الناصر الذي جاد بأنفاسه الأخيرة في الساعة السادسة والربع من مساء اليوم ٢٧ رجب ١٣٩٠ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بينما هو واقف في ساحة النضال يكافح من أجل وحدة الأمة العربية ومن أجل يوم انتصارها.

«لقد تعرض البطل الذي سيبقى ذكره خالداً إلى الأبد في وجدان الأمة والإنسانية لنوبة قلبية حادة بدت أعراضها عليه في الساعة الثالثة والربع بعد الظهر. وكان قد عاد إلى بيته بعد انتهائه من آخر مراسم إجتماع مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذي انتهى بالأمس في القاهرة، والذي كرس له القائد والبطل كل جهده وأعصابه ليحول دون مأساة مروعة دهمت الأمة العربية.

«إن اللجنة التنفيذية العليا للإتحاد الإشتراكي العربي ومجلس الوزراء وقد عقدا جلسة مشتركة طارئة على أثر نفاذ قضاء الله وقدره لا يجدان الكلمات التي يمكن بها تصوير الحزن العميق الذي ألم بالجمهورية العربية المتحدة وبالوطن العربي والإنساني إزاء ما أراد الله امتحانها به في وقت من أخطر الأوقات.

«إن جمال عبد الناصر كان أكبر من الكلمات وهو أبقى من كل الكلمات ولا يستطيع أن يقول عنه غير سجله في خدمة شعبه وأمته الإنسانية مجاهداً عن الحرية، مناضلاً من أجل الحق والعدل، مقاتلاً من أجل الشرف إلى آخر لحظة من عمره.

«ليس هناك كلمات تكفي عزاء في جمال عبد الناصر.

«إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفي بحقه وبقدره هو أن تقف الأمة العربية كلها الآن وقفة صابرة صامدة شجاعة قادرة حتى تحقق النصر الذي عاش واستشهد من أجله إبن مصر العظيم وبطل هذه الأمة ورجلها وقائدها.

«يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.»
«والسلام عليكم ورحمة الله».

ملاحظة: (تصادف يوم رحيل الرئيس جمال عبد الناصر مع ذكرى الإسراء والمعراج وكذلك مع ذكرى انفصال سوريا عن مصر يوم ٢٨ أيلول ١٩٦١.)

رسالة إلى
جمال عبد الناصر

شعر: نزار قباني

ـ ١ ـ

هذا خطابٌ عاجلٌ إليكْ
من أرضِ مِصْرَ الطيِّبَه
مِنْ ليلها المشغُولِ بالفيروز والجواهِرِ
ومن مقاهي سيِّدي الحُسَيْن، من حدائقِ القناطرِ
من تُرَعِ النيل التي تَركْتَها.. حزينةَ الضفائرِ
هذا خطابٌ عاجلٌ إليكْ
من الملايين التي قد أدْمَنَتْ هَوَاكْ
من الملايين التي تُريدُ أن تَراكْ
عندي خطابٌ كُلُّهُ أشْجانْ
لكِنَّني.. لكِنَّني يا سيِّدي
لا أعرفُ العُنوانْ..

ـ ٢ ـ

الزَرْعُ في الغيطان، والأولادُ في البَلَدْ
ومَوْلدُ النبيِّ،
والمآذِنُ الزرقاءُ،
والأجْراسُ في يوم الأحَدْ
وهذه القاهرةُ التي غَفَتْ
كزهْرَةٍ بيضاءَ في شَعْرِ الأَبَدْ
يُسَلِّمُونَ كُلُّهُمْ عليكْ
يُقَبِّلُونَ كُلُّهُمْ يَدَيكْ
ويسألونَ عنكَ كلَّ قادمٍ إلى البَلَدْ

متى تَعُودُ للبَلَدْ؟ . .

ـ ٣ ـ

حَمائِمُ الأزْهَرِ، يا حَبِيبَنا، تُهْدِي لكَ السلامْ
مُعَدِّياتُ النيلِ، يا حَبِيبَنا، تُهْدِي لكَ السلامْ
والقطنُ في الحقولِ، والنخيلُ، والغَمَامْ
جميعُها . . جميعُها . . تُهْدِي لكَ السَلامْ
كُرْسِيُّكَ المهجورُ في (مِنْشِيَةِ البكريِّ) يبكِي فارِسَ الأحلامْ
والصبرُ لا صبرَ لِهُ . .
والنَّـوْمُ لا ينامْ . .
وساعةُ الجدار، من ذُهولِها، ضيَّعتِ الأيَّامْ
يا مَنْ سَكَنْتَ الوقتَ، والتاريخَ، والأيَّامْ . .
عندي خطابٌ عاجلٌ إليكْ . .
لكِنَّني يا سيِّدي . . لا أجدُ الكَلامْ

ـ ٤ ـ

الحزنُ مَرسُومٌ على الغيوم، والأشجار، والستائِرِ
وأنتَ سافَرْتَ . . ولم تُسَافِرِ . .
فأنتَ في رائحةَ الأرض، وفي تَفَتُّحِ الأزَاهِرِ . .
في صوت كُلِّ موجةٍ، وصوت كُلِّ طائرِ . .
في كُتُبِ الأطفال، في الحُرُوفِ، في الدفاترِ
في خُضْرَةِ العيونِ، وارتعاشَةِ الأساوِرِ . .
في صدرِ كلِّ مؤمِنٍ، وسيفِ كُلِّ ثائِرِ
عندي خطابٌ عاجلٌ
لكِنَّني . . لكِنَّني . . يا سيِّدي
تَسْحَقُنِي مشاعِرِي . .

ـ ٥ ـ

يا أيُّها المُعَلِّمُ الكَبِيرْ
كَمْ حُزْنُنا كَبِيرْ

كَمْ جرْحُنا كَبيرْ
لكنَّنـا . .
نُقْسِمُ بالله العليِّ القديرْ
أن نَحْبِسَ الدُموعَ في الأحداقْ
ونخنقَ العَبْرَهْ . .
نُقْسِمُ بالله العليِّ القديرْ
أن نَحْفَظَ الميثاقْ
ونحفَظَ الثورَهْ . .

شعر نزار القباني

ـ ٦ ـ

وعندما يسألُنا أولادُنا
مَنْ أنْتُمْ؟
في أيِّ عصرٍ عِشْتُمْ؟
في عَصْرِ أيِّ مُلْهَمٍ؟
في عَصْرِ أيِّ ساحِرٍ؟
نُجيبُهُمْ: في عَصْرِ عبدِ الناصِرِ
الله . . ما أرْوَعَها شهادةً
أن يُوجدَ الإنسانُ في زمانِ عبدِ الناصرِ

٢٥/١٠/١٩٧٠

الرجل ذو الظل الأخضر..

شعر : محمود درويش

نعيش معك
نسير معك
نجوع معك
وحين تموت
نحاول ألاّ نموت معك!
ولكن،
لماذا تموت بعيداً عن الماء
والنيل ملء يديك؟
لماذا تموت بعيداً عن البرق
والبرق في شفتيك
وأنت وعدت القبائل
برحلة صيف من الجاهلية
وأنت وعدت السلاسل
بنار الزنود القوية
وأنت وعدت المقاتل
بمعركة.. ترجع القادسية
نرى صوتك الآن ملء الحناجر
زوابع
تلو
زوابع..
نرى صدرك الآن متراس ثائر
ولافتة للشوارع
نراك
نراك
نراك..

طويلاً

. . . كسنبلة في الصعيد

جميلاً

. . . كمصنع صهر الحديد

وحراً . .

كنافذة في قطار بعيد . .

ولست نبياً،

ولكن ظلك أخضر

أتذكر؟

كيف جعلت ملامح وجهي

وكيف جعلت جبيني

وكيف جعلت اغترابي وموتي

أخضر

أخضر

أخضر

أتذكر وجهي القديم؟

لقد كان وجهي يحنط في متحف إنجليزي

ويسقط في الجامع الأموي

متى يا رفيقي؟

متى يا عزيزي؟

متى نشتري صيدلية

بجرح الحسين . . ومجد أمية

ونبعث في سد أسوان خبزاً وماء

ومليون كيلو واط من الكهرباء؟

أتذكر؟

كانت حضارتنا بدوياً جميل

حاول أن يدرس الكيمياء

ويحلم تحت ظلال النخيل

بطائرة . . . وبعشر نساء

ولست نبياً
ولكن ظلك أخضر . .
نعيش معك
نسير معك
نجوع معك
وحين تموت
نحاول ألأ نموت معك
ففوق ضريحك ينبت قمح جديد
وينزل ماء جديد
وأنت ترانا
نسير
نسير
نسير

سوف نظل دائماً تحت علم التحرير..

وسوف نظل دائماً تحت علم الإستقلال الوطني.

وسوف نظل دائماً تحت علم الوحدة العربية.

وسوف نظل دائماً تحت علم الإشتراكية.

وسوف نظل دائماً تحت علم عدم الإنحياز.

وسوف نظل دائماً تحت أعلام الحرية البانية

للتقدم والسلام القائم على العدل

لشعبنا ولكل شعوب الأرض

جمال عبد الناصر

أهم المراجع للكتاب

ـ جريدة السفير ـ لبنان، أعداد مختلفة.

ـ جريدة الأنوار ـ لبنان، أعداد مختلفة.

ـ كتاب ما الذي حدث في سوريا ـ محمد حسنين هيكل ـ الدار القومية ـ مصر.

ـ كتاب مع عبد الناصر ـ أمين هويدي ـ دار الوحدة ـ لبنان.

ـ كتاب عبد الناصر والثورة الإفريقية ـ محمد فايق ـ دار المستقبل العربي ـ مصر.

ـ كتاب عبد الناصر.. هذا المواطن ـ محمود فهيم ـ مصر.

ـ كتاب عبد الناصر.. بين يدي التاريخ ـ ابراهيم العربي ـ شركة المختار ـ مصر.

ـ أشهر القادة السياسيين ـ تركي ضاهر ـ دار الحسام ـ طبعة ٤ ـ لبنان.

ـ عبد الناصر والاستعمار العالمي ـ عودة بطرس عودة ـ مؤسسة ناصر للثقافة ـ لبنان.

ـ عبد الناصر الفكر والطريق ـ منظمة الشباب الاشتراكي ـ مصر.

ـ مع عبد الناصر ـ منصور فايز ـ دار الملتقى ـ لبنان.

ـ جمال عبد الناصر في الـ ٢٤ ساعة الأخيرة ـ محمد حسنين هيكل ـ دار الصياد ـ لبنان.

ـ الملف بالصور: ـ السجل بالصور ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر ـ مصر.

ـ صور مختارة من عدة مصادر عربية وأجنبية.

المحتويـــــــات

الإهداء، الشكر والتقدير ٥

المقدمـــــــــــة ٦

١ ـ دراسات وشهادات ومحطات حاسمة ١٠

• **الباب الأول** : البطل التاريخي، الإنسان والرئيس ١١

البطل التاريخي ، بقلم : محمد حسنين هيكل ١٣

مذكراتي ، بقلم : جمال عبد الناصر ١٥

السجل الحافل ، حياته ونضالاته ٢٥

عبد الناصر ، الإنسان بقلم : د. منصور فايز، محمود فهيم ٢٧

عبد الناصر ، الرئيس بقلم : أمين هويدي ٥٧

• **الباب الثاني** : دفاعاً عن الثورة وعبد الناصر ٦٥

وقبل مجيئه ، يا للهول بقلم : محمود السعدني ٦٧

ثورة يوليو بقلم : أحمد بهاء الدين ٧٠

السد العالي وعبد الناصر بقلم : كامل الزهيري ٧٢

ناصر بين جوهر الدين .. والاتجار به بقلم : جمال سليم ٣٧

الدولة النموذج التي أرادها عبد الناصر بقلم : د. علي الدين هلال ٧٦

قضايا العروبة وعبد الناصر بقلم : د. محمد أنيس ٨١

زعيم حقق أعظم الانتصارات ولحقت به أسوأ النكبات بقلم : انتوني ناتنج ٨٦

أحد صناع القرن العشرين بقلم : روبرت ستيفنـــز ٩٠

عبد الناصر ، الثورة مستمرة بقلم : محمد عودة ٩٧

عبد الناصر ، والثورة الإفريقية بقلم : محمد فايق ١١٢

عبد الناصر وحركة عدم الانحياز بقلم : د. سامي منصور ١٢٠

• **الباب الثالث** : من أقوال وخطب الرئيس جمال عبد الناصر ١٢٣

• **الباب الرابع** : محطات حاسمة في مسيرة الثورة (١٩٥٢ - ١٩٧٠) ١٤٥

الباب الخامس : الوداع الأخير ٢٨-سبتمبر ، أيلول ١٩٧٠ .... ١٩٧

وقائع الزيارة الأخيرة بقلم : د. منصور فايز ١٩٩

عاصفة البرق والرعد بقلم : محمد حسنين هيكل ٢٠٣

وانتهى زمن التحدي والكبرياء - يوم الرحيل ٢٠٤

رسالة حب إلى جمال عبد الناصر ، شعر نزار قباني ٢٠٥

الرجل ذو الظل الأخضر ، شعر محمود درويش ٢٠٨

٢ ـ الملـــــــــف بالصور ٢١٥

2

الملــــف بالصــــور

هذا الملف بالصور

لا يكتمل الحديث عن جمال عبد الناصر : الإنسان والرئيس ـ الدور والزعيم دون المقاربة من شخصيته المميزة والتي اكتملت ملامحها وشخصها بلا شك من التأييد الجارف والحب الكبير الذي منحته إياهما الجماهير العربية .

ما يقرب من عشرين عاما وعبد الناصر كان هو الحدث وكانت مصر والساحة العربية كلها من محيطها إلى خليجها بل ساحات أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية هي الصدى المدوي لهذا الحدث.

في مصر قام بالثورة وكانت فلسطين هي همه الأكبر وكانت الجزائر والعراق وسوريا ولبنان والجزيرة العربية والخليج العربي والمغرب العربي وكل أقطار هذا الوطن العربي الكبير ساحة صراع ضد الاستعمار والتخلف وكان البطل هناك يدعم ويساند ويمد بالسلاح والعتاد والرجال في سبيل التحرر والاستقلال . وفي أفريقيا لأول مرة سمع المواطن العربي بحركات تحرر في غينيا وغانا والكونغو وكينيا وتانزانيا وزامبيا وأنغولا وجنوب أفريقيا وكان للبطل أيضا هنالك صولات وجولات في دعم هذه الحركات التحررية ماديا ومعنويا وإعلاميا حتى أضحت لكل هذه الدول علمها واستقلالها .

لندع الصورة تتكلم عن جمال عبد الناصر ... كل صورة في هذا السجل تحكي قصة نضال وكفاح وكثير منها كانت تختزن في باطنها أحداثا جساما ومفاصل تاريخية هامة بحلوها ومرها لكنها مع ذلك بقيت وتبقى هي الحدث .

رحلة في مُلف جمال عبد الناصر ، صورة الأب والزوج والإنسان وصورة الرئيس والثائر والزعيم والبطل .

البطاقة الشخصية للرئيس جمال عبد الناصر

حاسمة في مسيرة الثورة : ٦ مايو / أيار ١٩٥٣ ـ وقف غاضباً يعلن قطع المفاوضات مع الإنجليز أثناء مباحثات الجلاء .

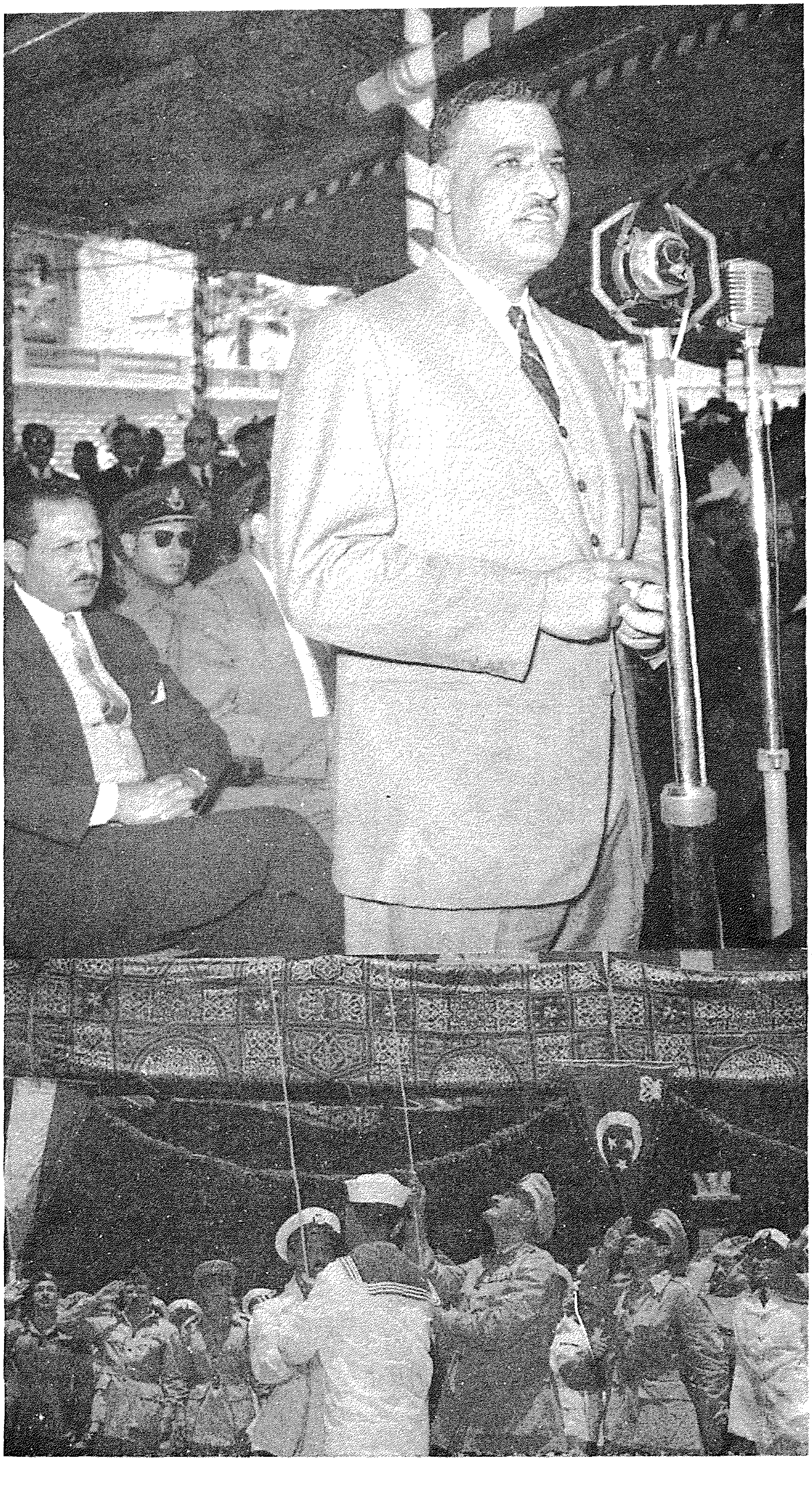

أعلى: يوم تأميم قناة السويس، ٢٦ يوليو ١٩٥٦
أسفل: يرفع العلم المصري بعد الجلاء عن بورسعيد

مع الرئيس السوري شكري القوتلي بعد إعلان الوحدة (٢٢ شباط/ فبراير ١٩٥٨)

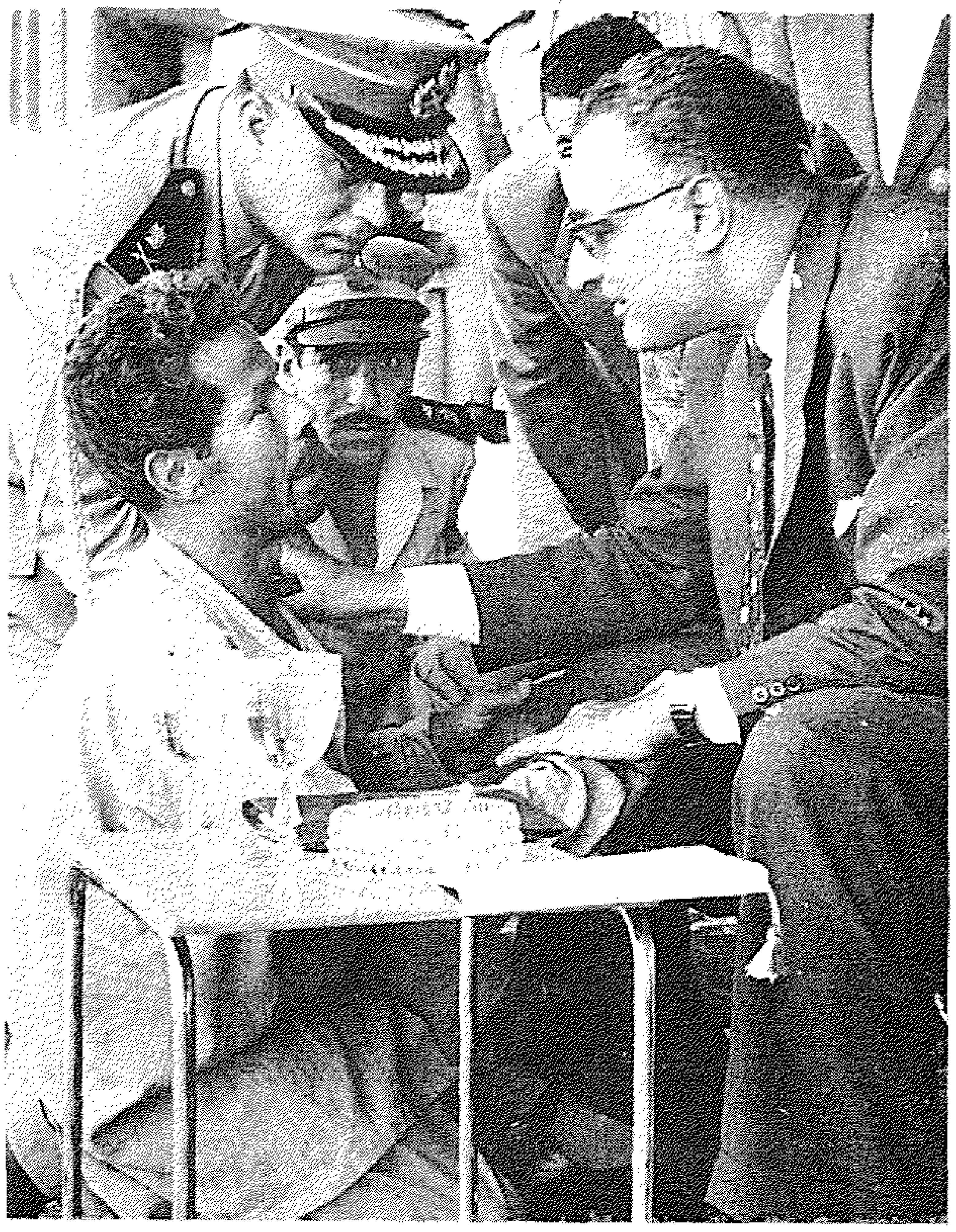

مواقف إنسانية: ـ يأمر رجال الأمن بالابتعاد عن المواطن الذي رغب بالحديث معه ونقل شكواه (أعلى)

ـ يستمع إلى شكوى المواطن الذي تسلَّل ليلاً واختبأ تحت منصة العرض العسكري (٥٩) وظهر فجأة، وطلب من رجال الأمن إحضاره إليه للاستماع لمطالبه بكل اهتمام.

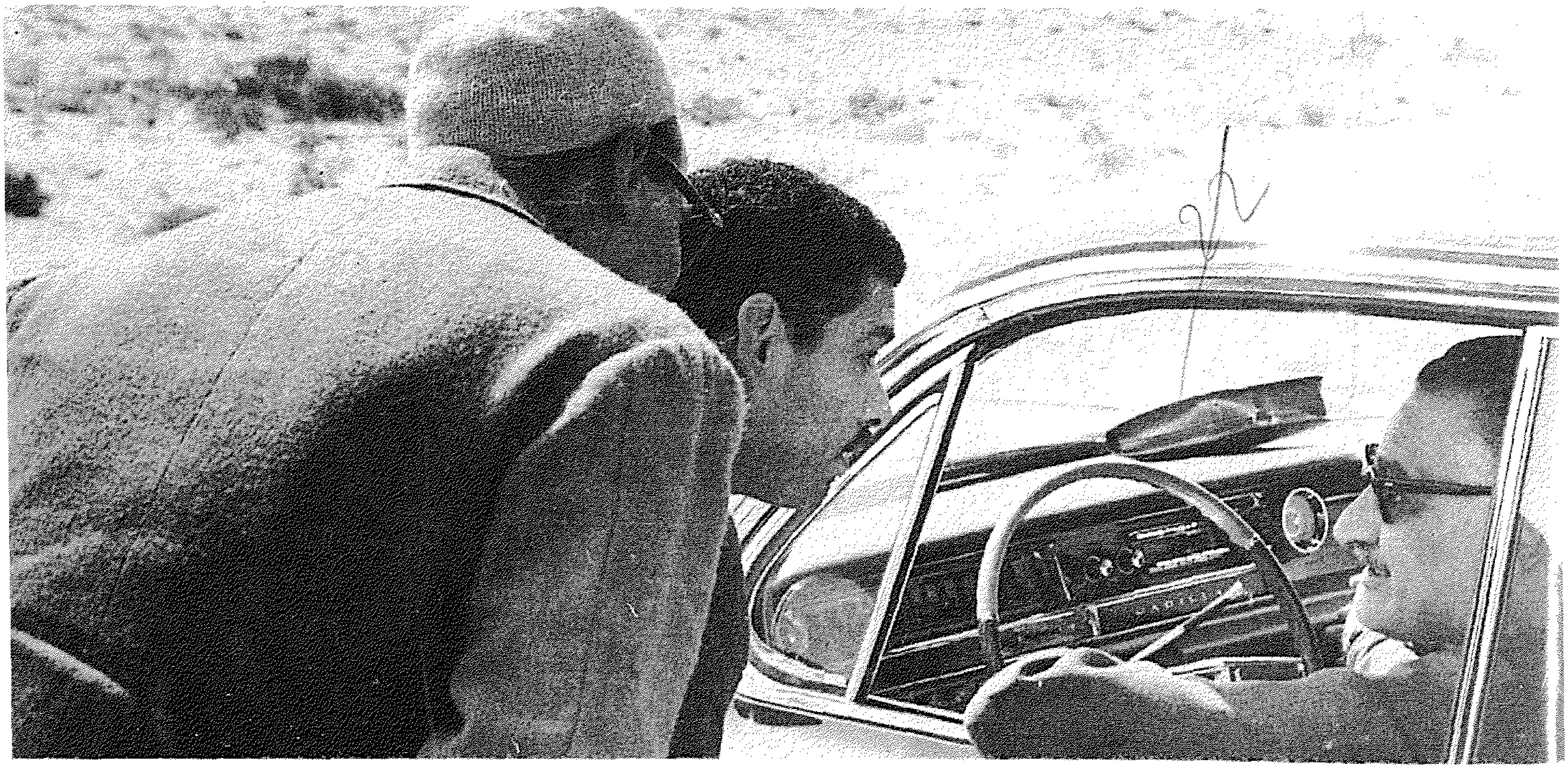

ـ في سـوريا ١٩٦٠ ، يسـتقبل جـندياً سورياً فقد بصره وتشوه وجهه خلال إحدى المواجهات العسكرية على الحدود ضد إسرائيل (أعلى) .

ـ خلال تجواله في الصحراء الغربية أوقف سيارته عندما شاهد لوري معطلة على الطريق سأل سائقي اللوري ، هل بإمكانه مساعدتهما (أسفل).

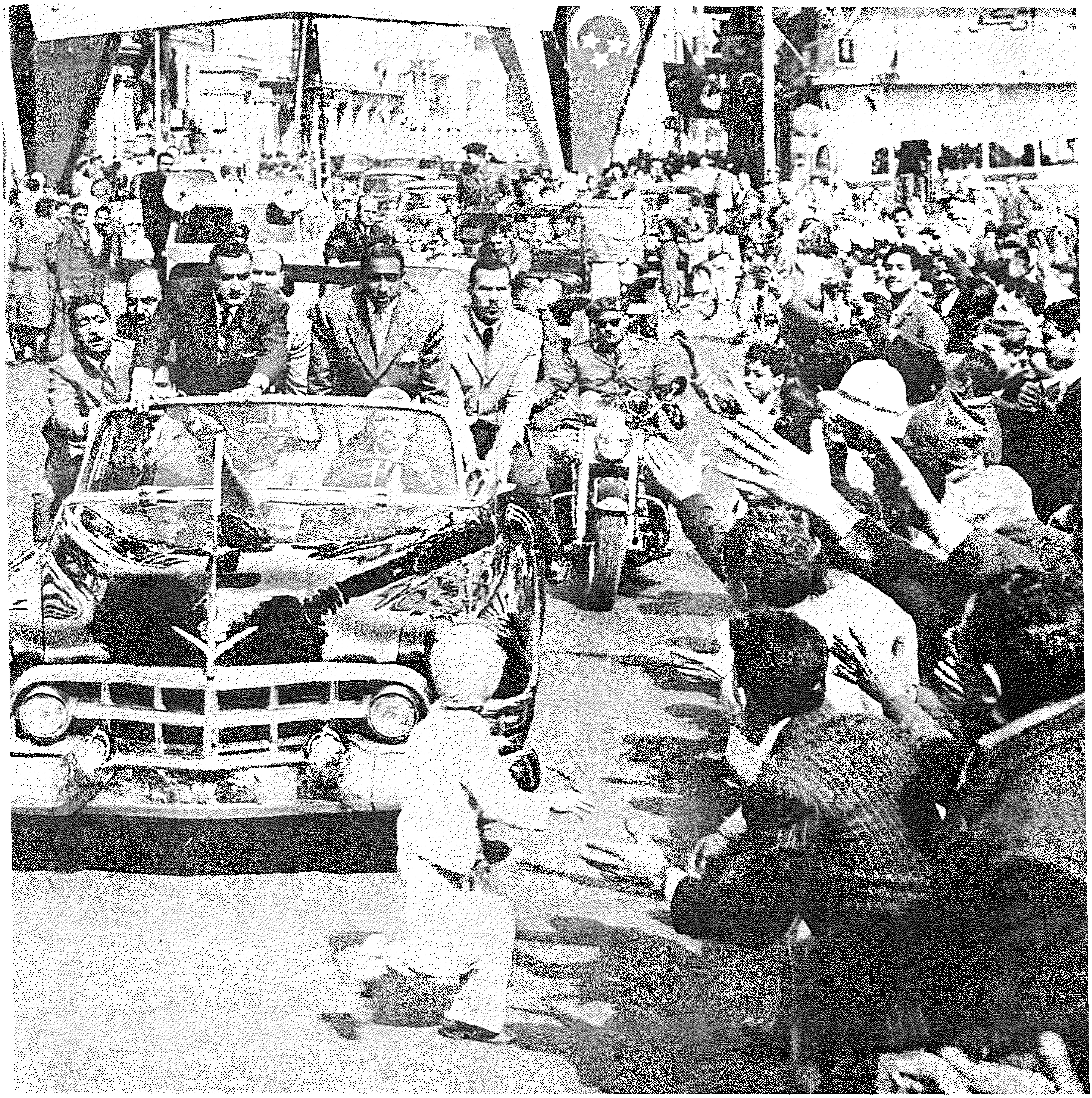

في القاهرة، وغداة إعلان الوحدة لم تجذبه الجماهير على جانبي الطريق بقدر ما جذبته سلامة طفل مرَّ بسرعة أمام سيارته فإذا بعلامات القلق والخوف على سلامة الطفل ترتسم على وجهه.

- يستمع بكل اهتمام إلى طفل شارك في العرض العسكري ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ ـ (أعلى)

- يحقق أمنية ابن الفلاح الذي حضر إلى المنصورة ـ ١٩٥٨ ـ ليلتقي بالرئيس (أسفل).

- ويتهامس مع طفل في المطار (١٩٦٤) جاء لوداعه.

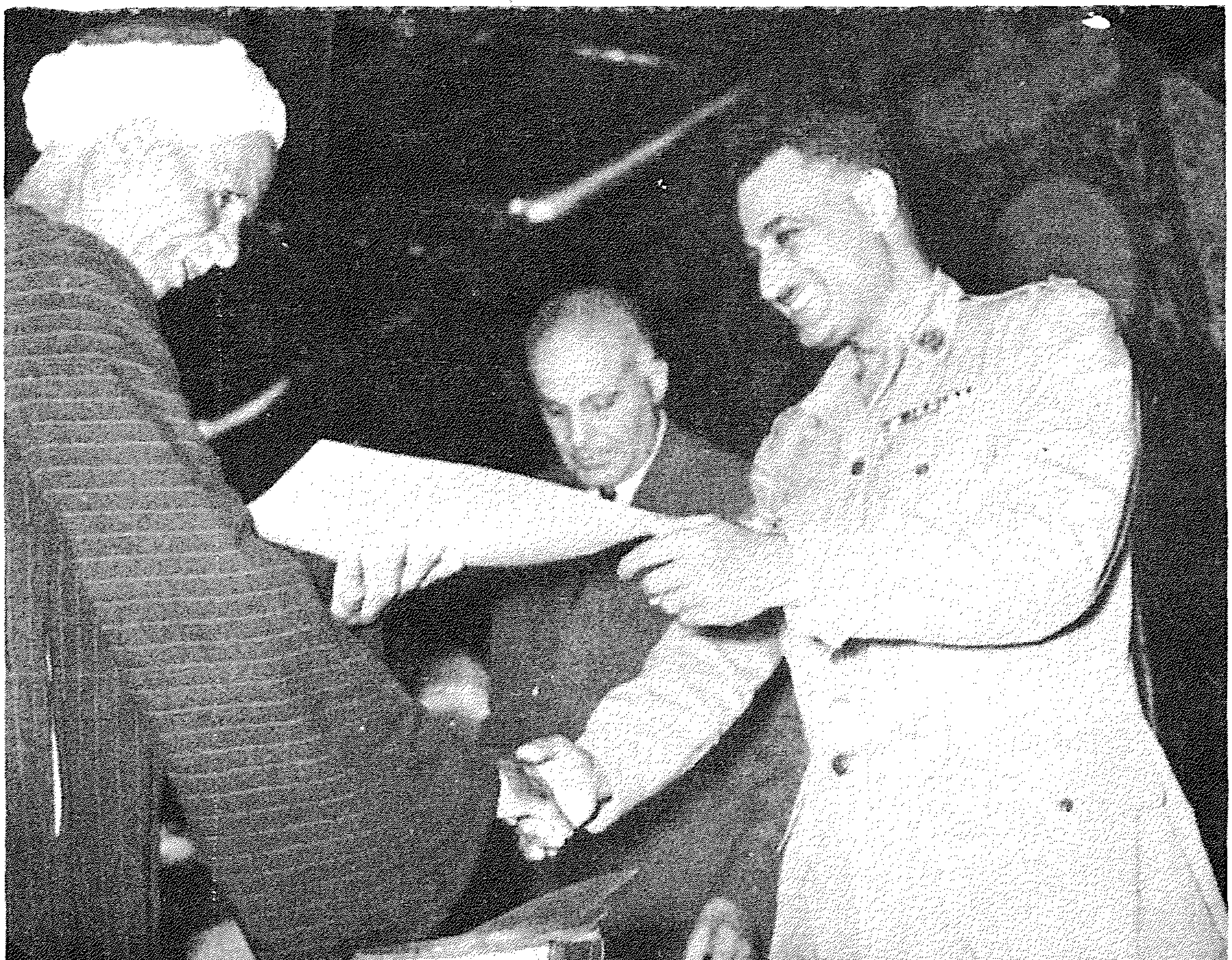

ـ الإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي وسندات الملكية على الفلاحين.

عندما كان يخاطب الجماهير بكل الصدق والالتزام: «أيها الإخوة المواطنون»

- في عيد الثورة ٢٢ يوليو/ تموز ١٩٥٩

تكريم الإبداع الأدبي والفني : ـ وسام لتوفيق الحكيم (١٩٥٨)، وجائزة الدولة لطه حسين (١٩٥٩) ولعباس العقاد (١٩٦٠)

ـ وجائزة الدولة ووسامان إلى عمالقة الفن العربي: محمد عبد الوهاب وأم كلثوم (عيد العلم ١٩٦٥).

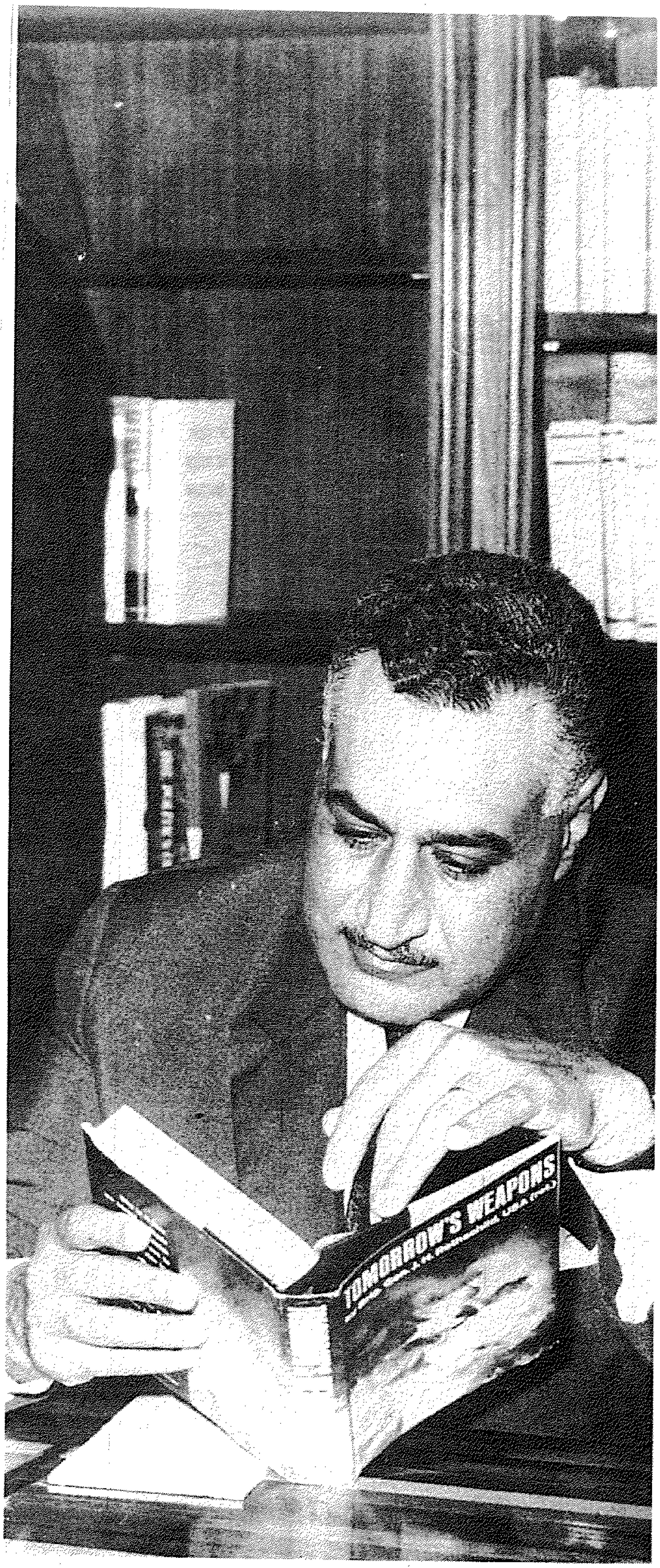

لم تكن القراءة والمطالعة مجرّد هواية بل هي مسؤولية القائد والزعيم

- في معرض الكتاب يتصفَّح أحدث الإصدارات (يميناً) - يطالع في كتاب جديد: أسلحة الغد (١٩٦٥)

النجم الساطع في كل المؤتمرات واللقاءات الدولية

- يلقي خطابه في أحد مؤتمرات القمة الإفريقية في أديس أبابا ١٩٦٣

ـ ويترأس جلساته

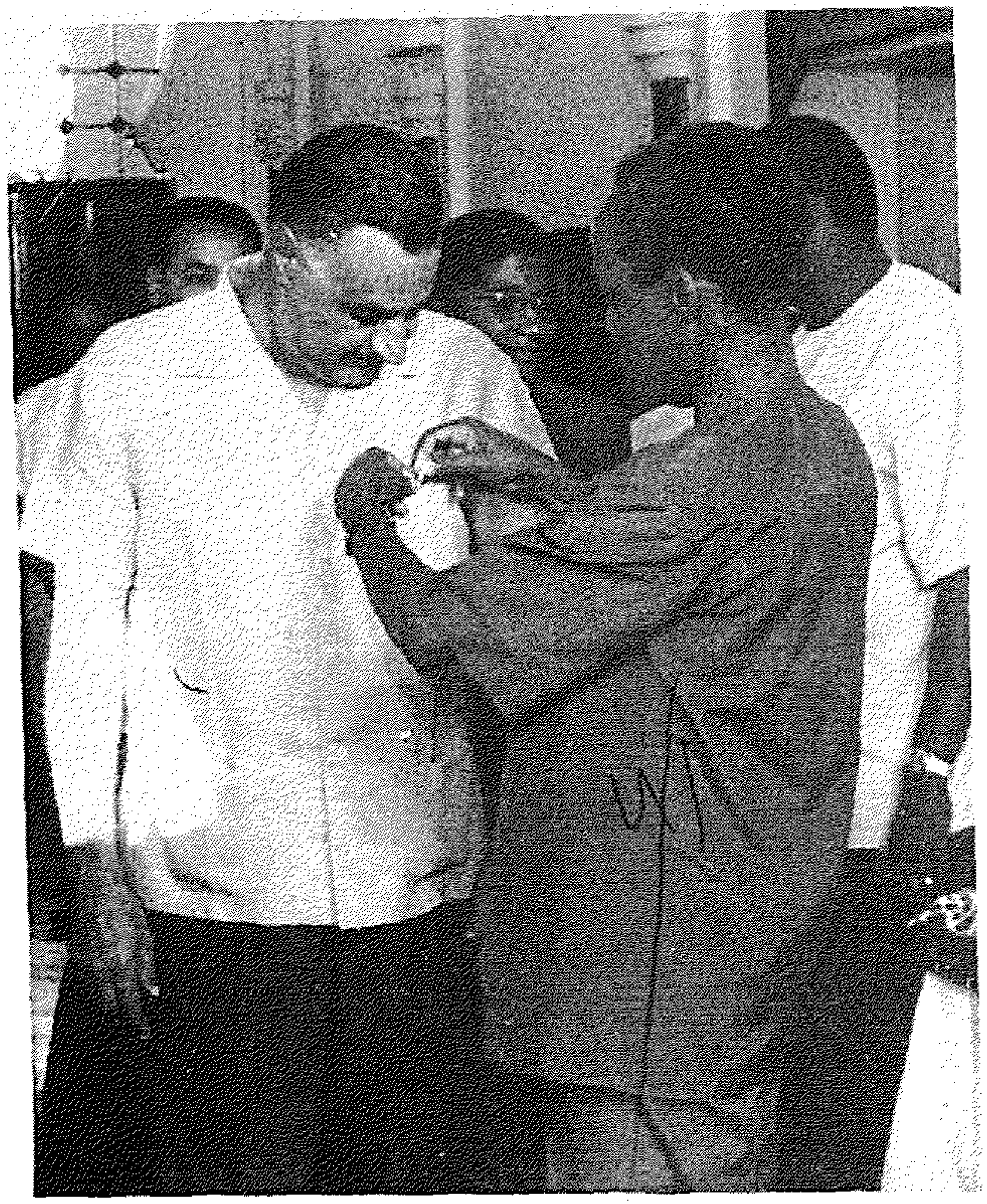

أوسمة العالم على صدره

- (أعلى يميناً): مع خروتشوف، الاتحاد السوفياتي، ١٩٦٤، ويساراً مع رئيس تانزانيا، جوليوس نيريري، ١٩٦٦.
- (أسفل يميناً): مع أحمد سوكارنو، اندونيسيا ١٩٥٨، ويساراً مع الملك محمد الخامس، المغرب، ١٩٦٠.

في يوغوسلافيا بكامل بدلته العسكرية وعلى صدره الأوسمة.

لقطة معبرة ومؤثرة أثناء لقائه مع رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي
في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٦٦

جولات ولقاءات ومؤتمرات عربية

الزيارة الأولى للمملكة العربية السعودية بعد قيام الثورة

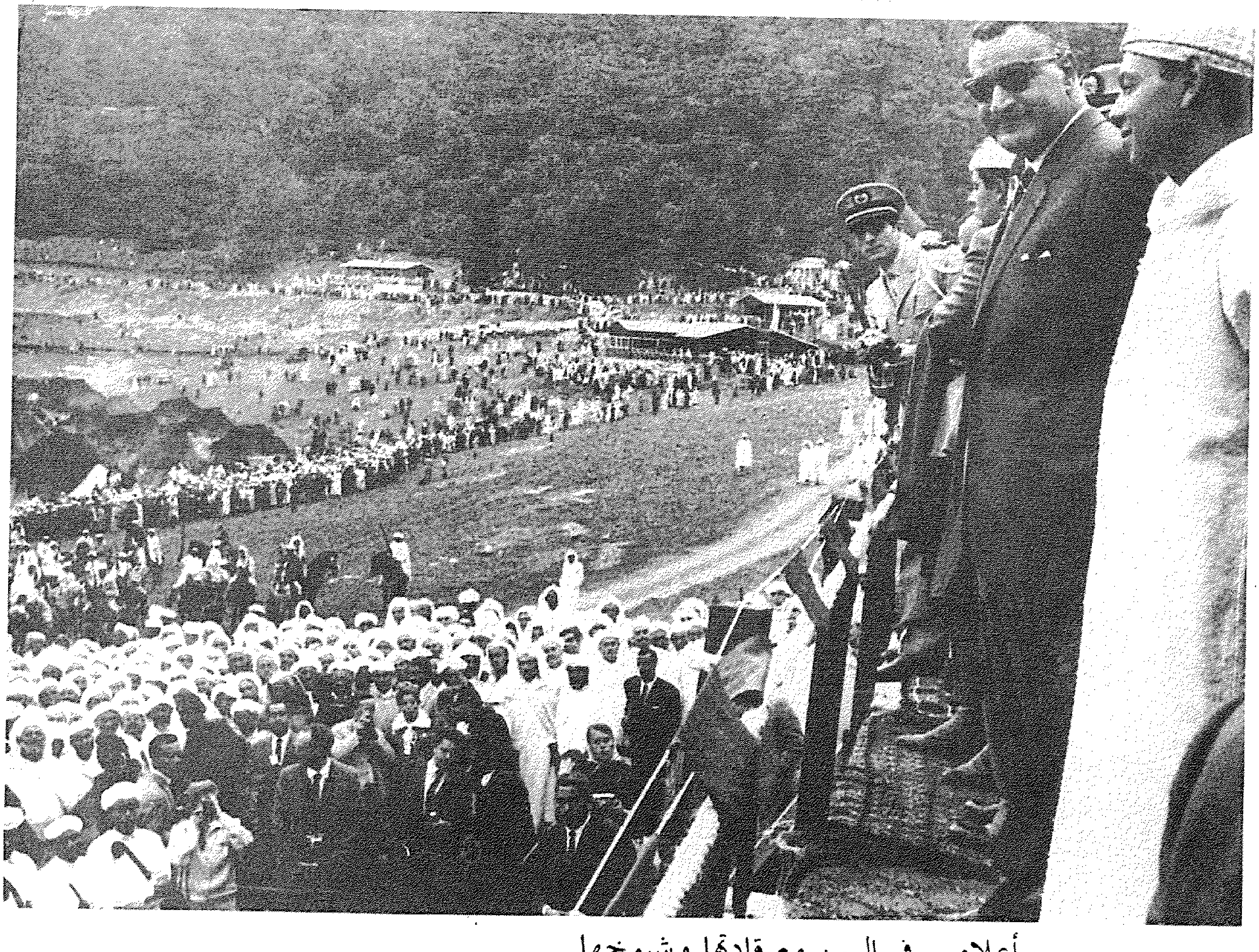

- أعلاه ـ في اليمن مع قادتها وشيوخها
- أسفل ـ في المغرب حيث خرجت القبائل طوابـير لاستقباله

- في الخرطوم - السودان ١٩٧٠

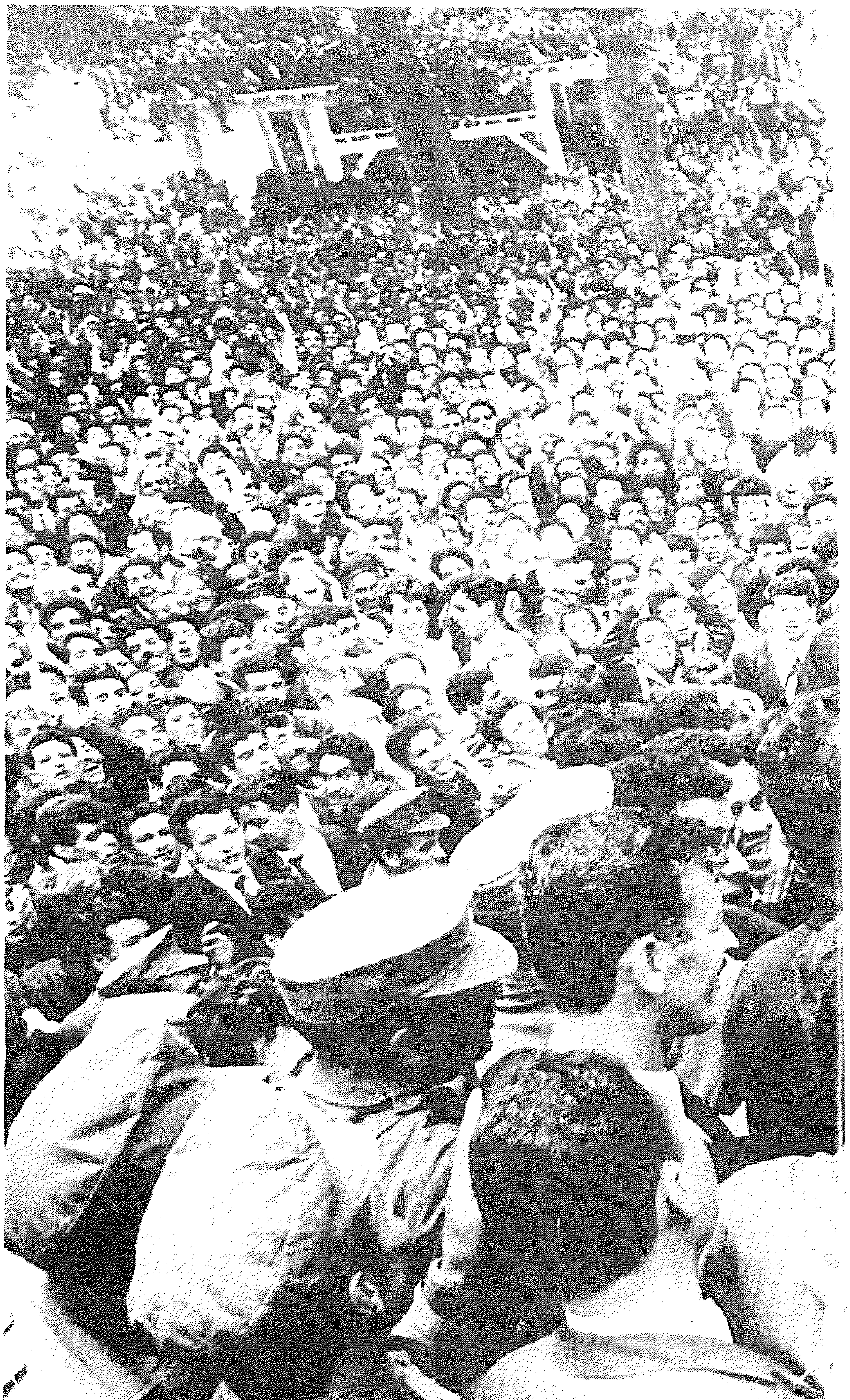

- في الجزائر ١٩٦٣

ـ مع العقيد معمر القذافي وأعضاء مجلس الثورة الليبي .

سوريا: لم يكتف الشاب بمصافحته بل راح وسط الزحام
في حماس بالغ من جذبه وتقبيله

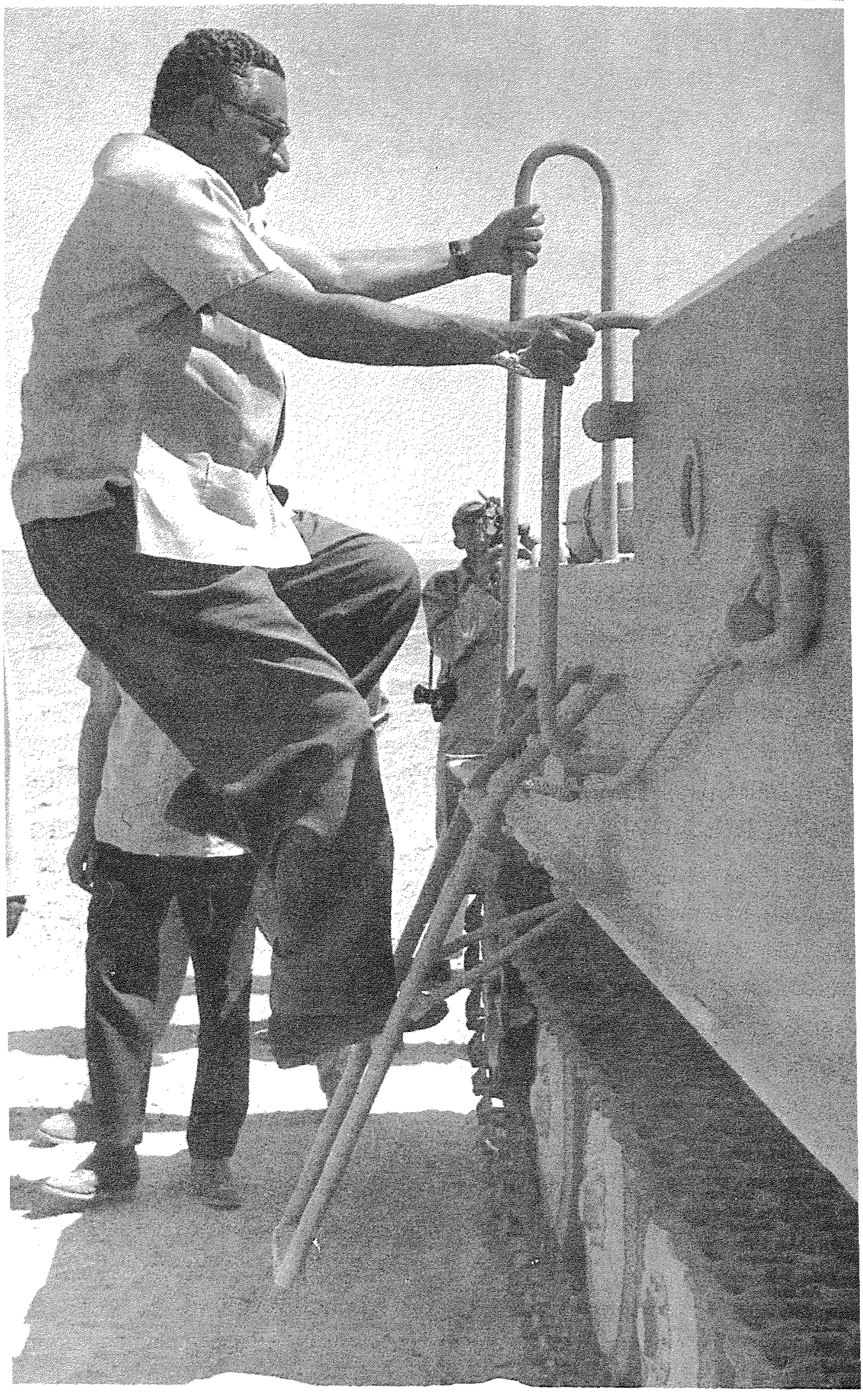

حرب الاستنزاف (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) ـ يصعد مجنزرة عسكرية على خط الجبهة

مباشرة على خط النار أمام العدو الإسرائيلي في الضفة الشرقية للقناة (١٩٦٨)

بين الحشود العسكرية الكل يتطلع لمصافحته والسلام عليه

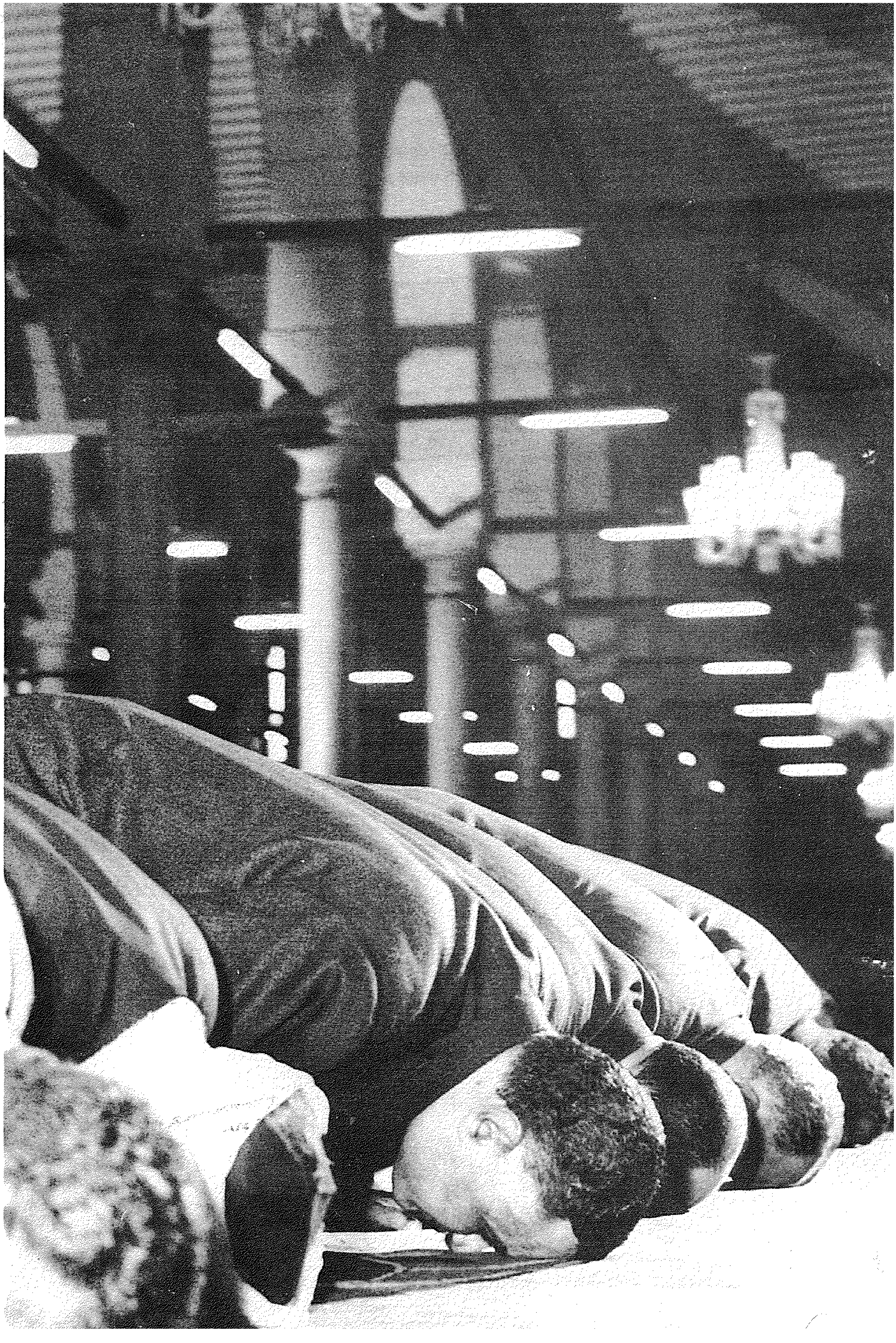

عباداته ـ الصلاة في مسجد الإمام الحسين بالقاهرة

ـ الدعاء على جبل عرفات

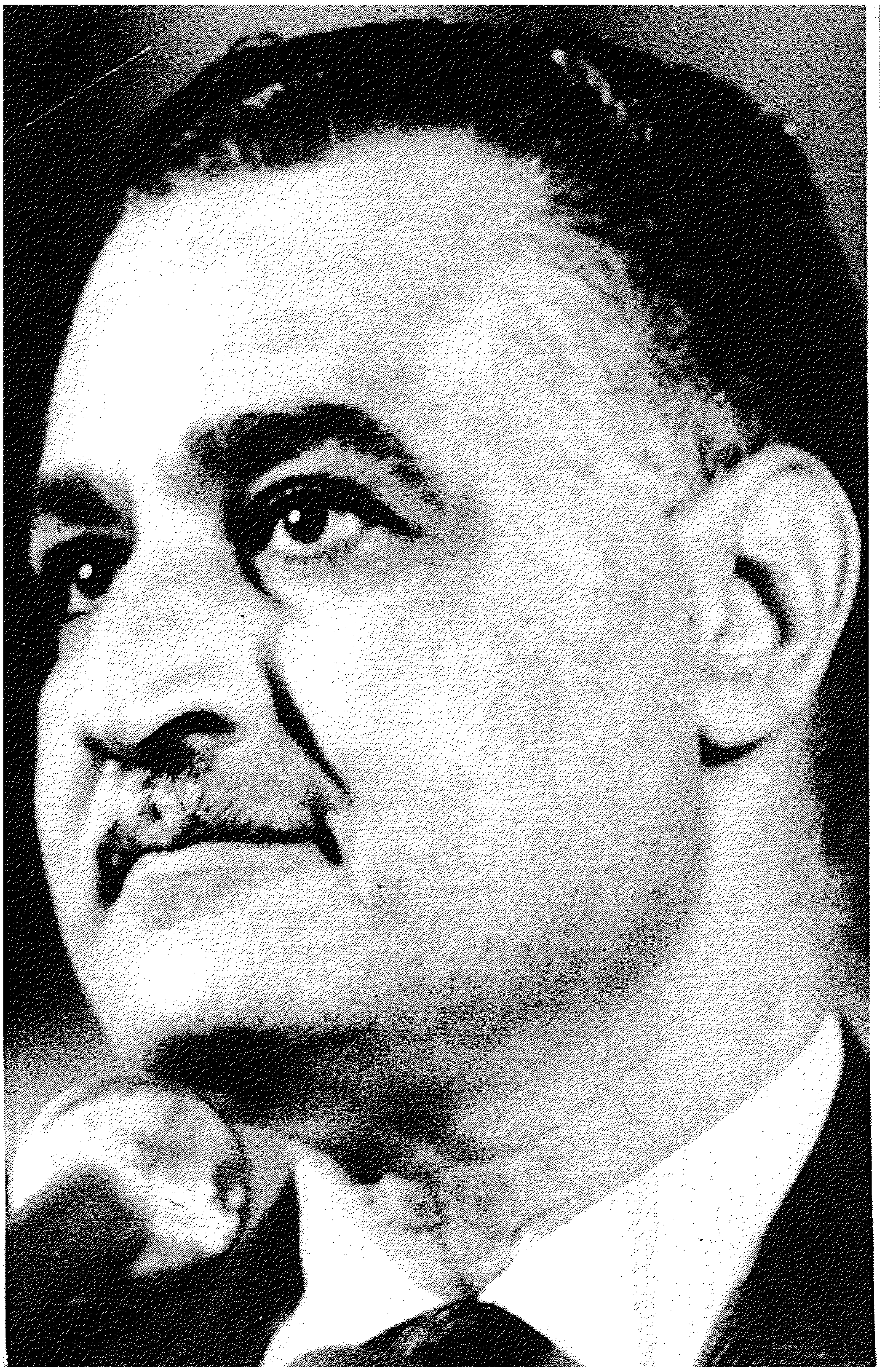

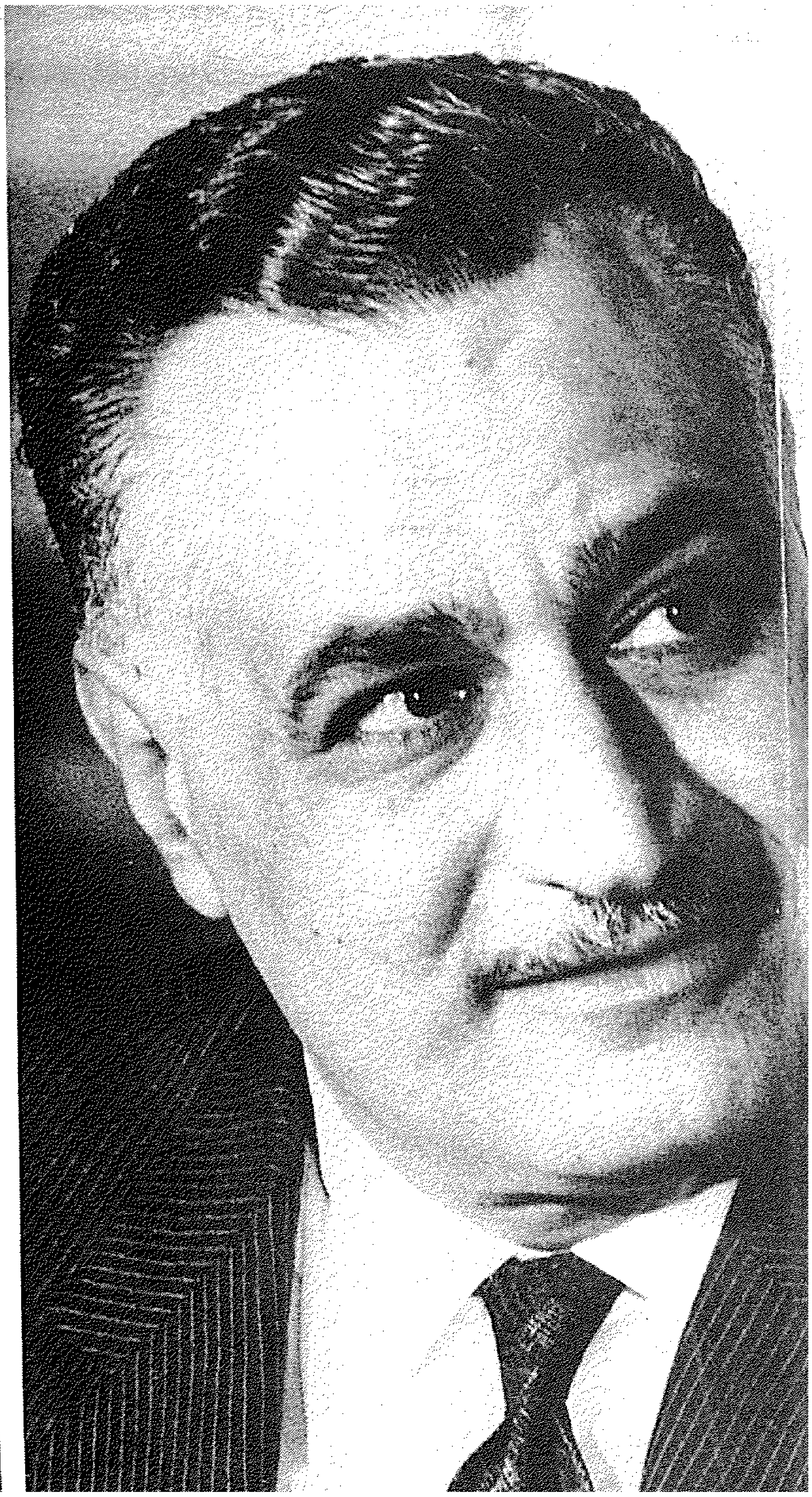

فارق كبير بين الصورتين. . رغم أن الأولى التقطت يوم ٢ يونيو قبل النكسة بثلاثة أيام. . أما الثانية فالتقطت بعد شهر ونصف من موعد الأولى، ورغم أن الفارق الزمني لم يتعدَّ هذه الفترة القصيرة ولكن آثار التعب والمأساة كانت واضحة في الصورة الثانية نتيجة الجهد الذي بذله لاحتواء آثار النكسة.

القمة العربية الأخيرة بالقاهرة :

ـ مع الملك فيصل وياسر عرفات (أعلى)

ـ حديث ودي مع الملك فيصل والرئيس أنور السادات (أسفل)

١٩٥٢ : في الأشهر الأولى للثورة لم يكن أحد قد عرف دوره كقائد للثورة وما لفت نظر المصوِّر الذي التقط هذه الصورة أنه كلما حضر إلى مجلس قيادة الثورة وقف الجميع احتراماً له، وبعد فترة عرف الجميع أنه قائد الثورة الفعلي: البكباشي جمال عبد الناصر.

عام ١٩٥٨

عام ١٩٦٣

عام ١٩٧٠

عام ١٩٦٧

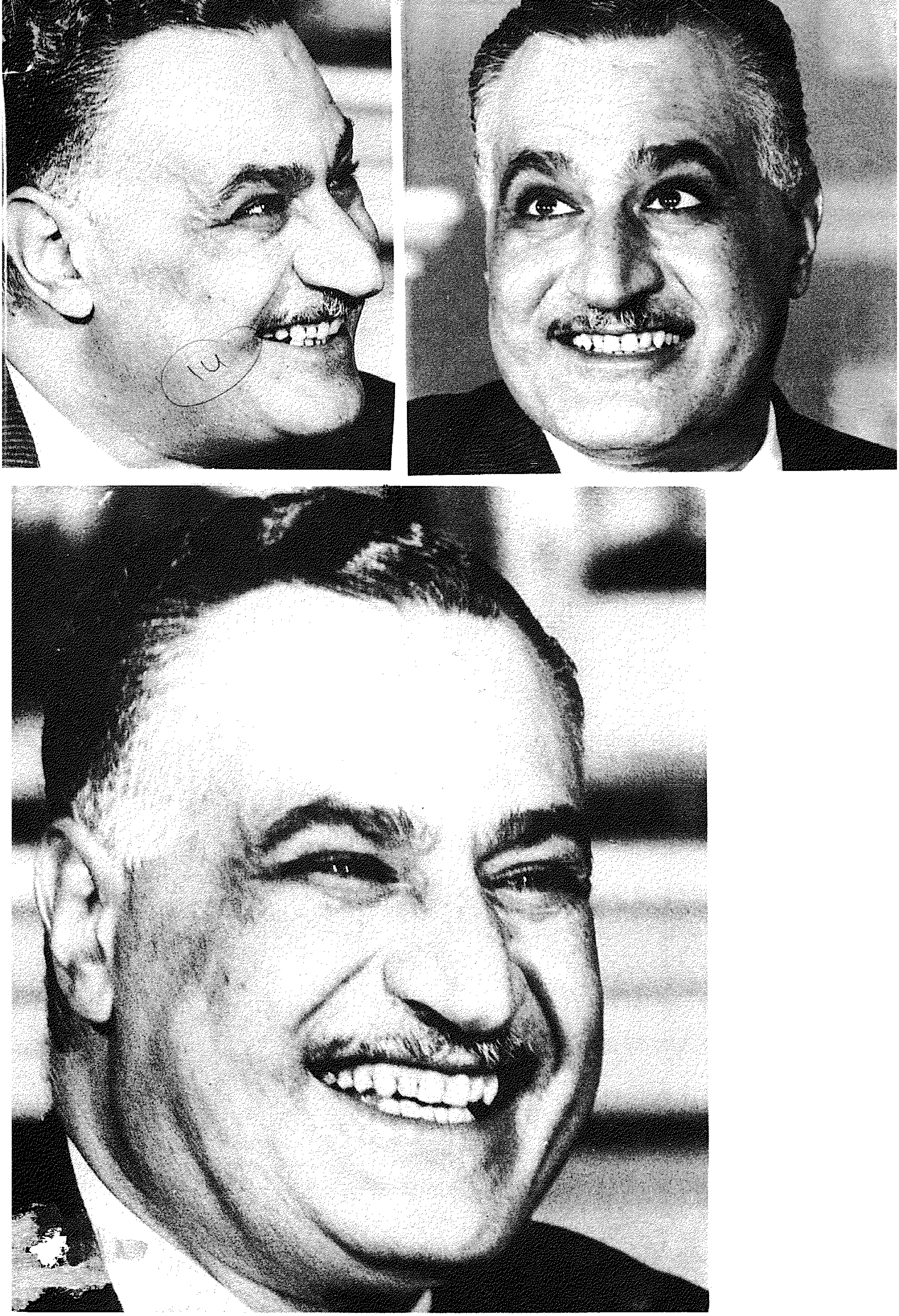

ملامح شخصية للبطل التاريخي

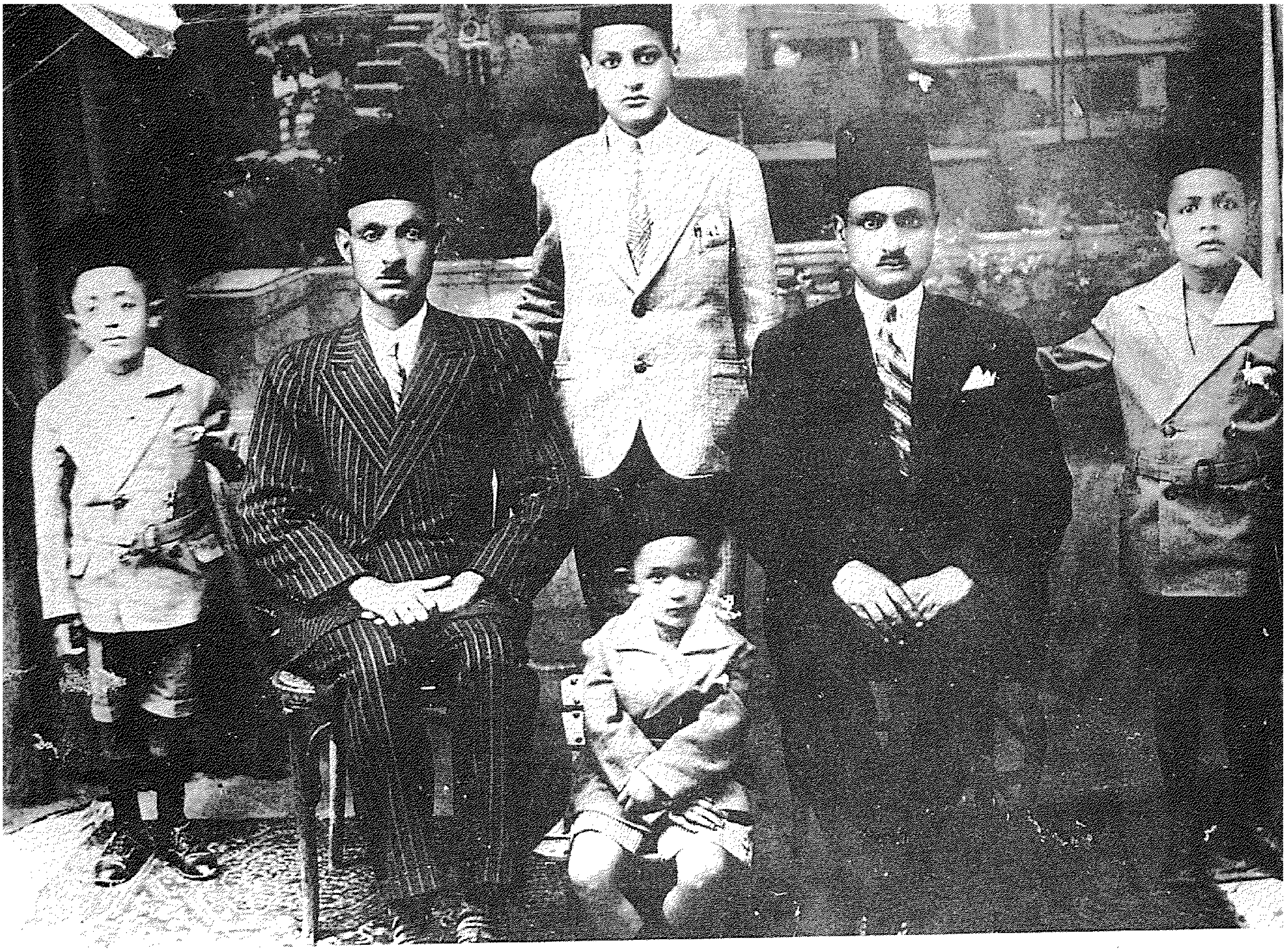

الشاب جمال عبد الناصر واقفاً بين والده وعمه وأشقائه الثلاثة: الليثي وعز العرب وشوقي

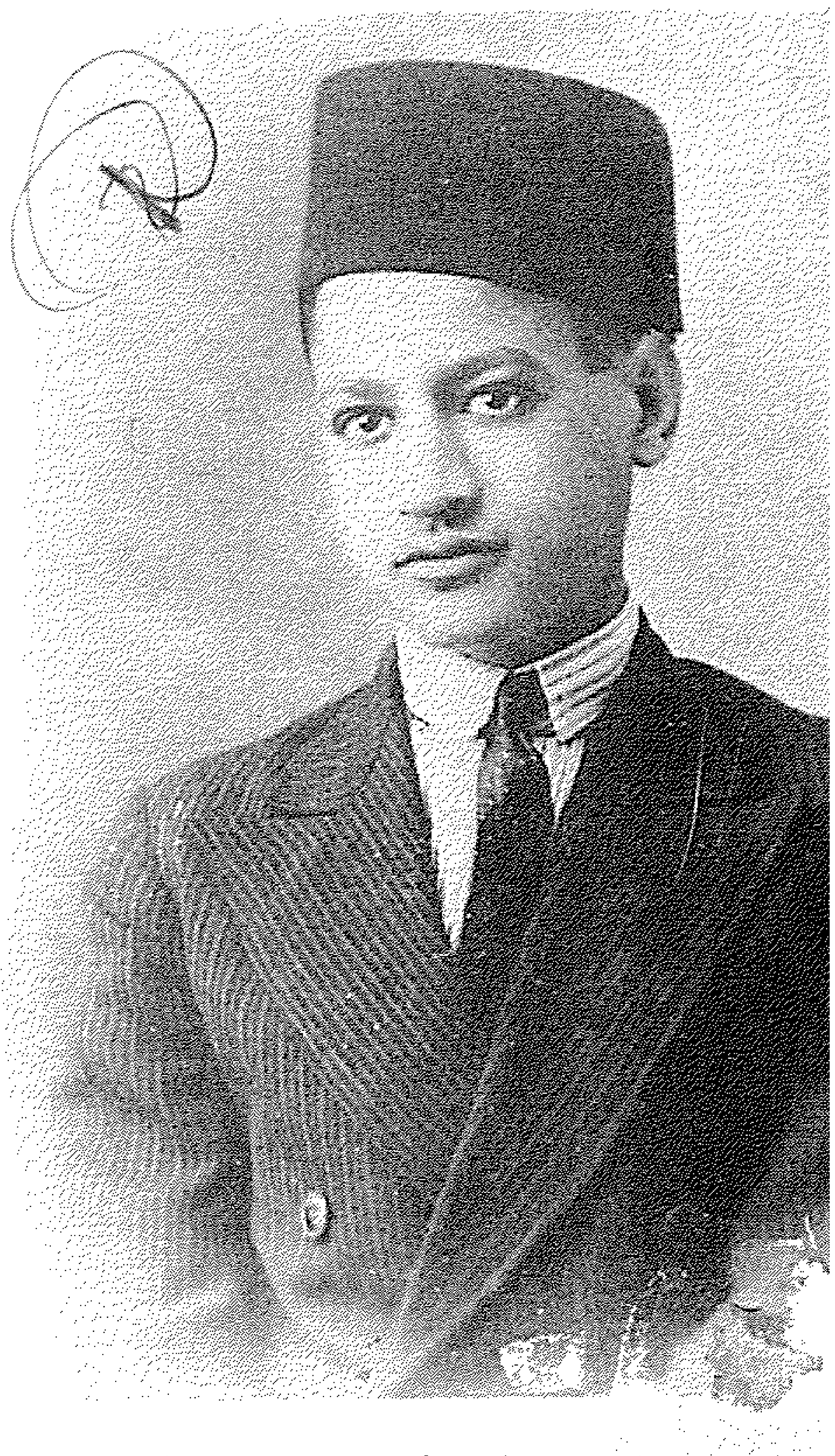

في المرحلة الثانوية: حلوان، ١٩٣١

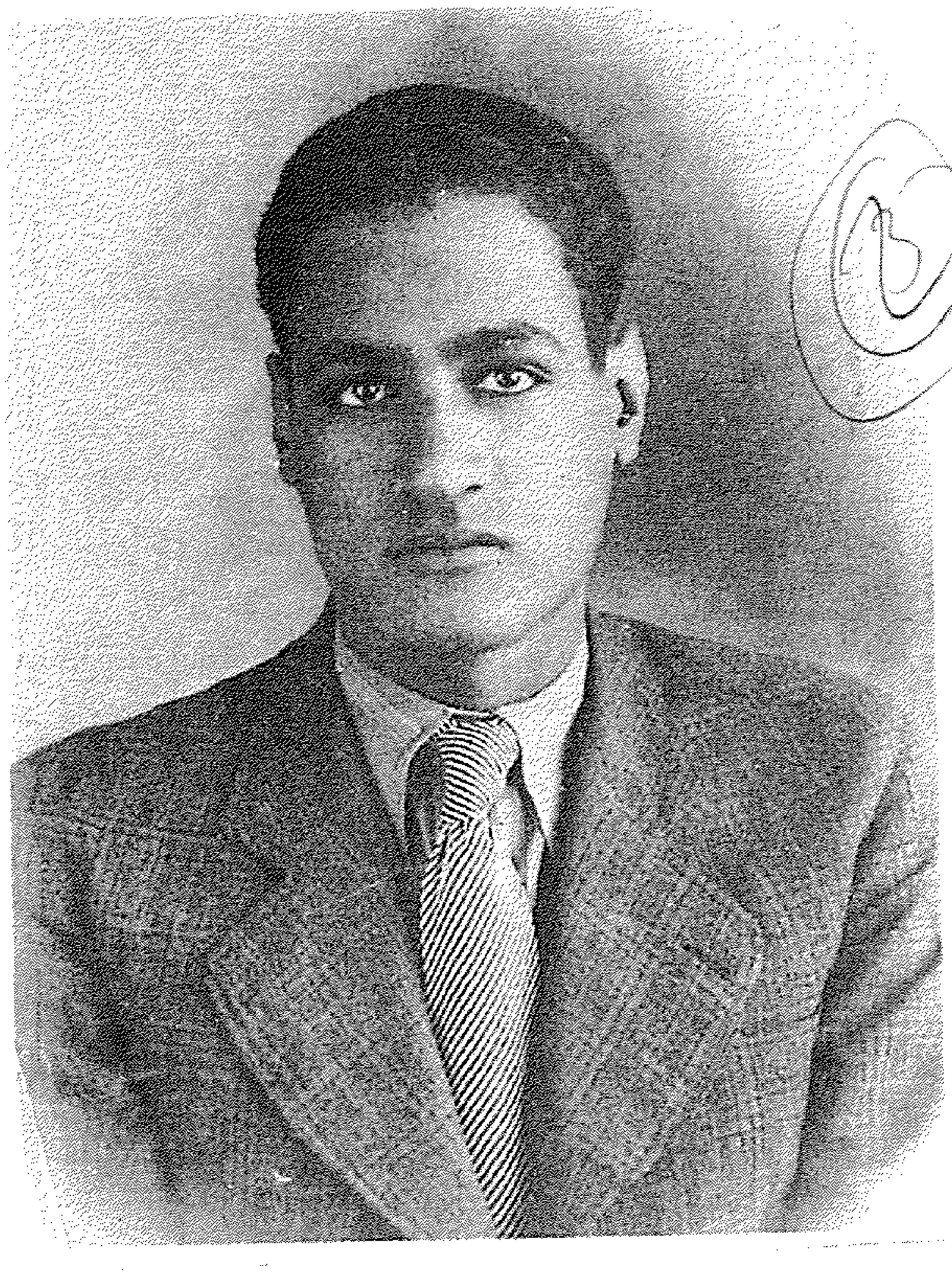

في مرحلة البكالوريا: الظاهر، ١٩٣٦

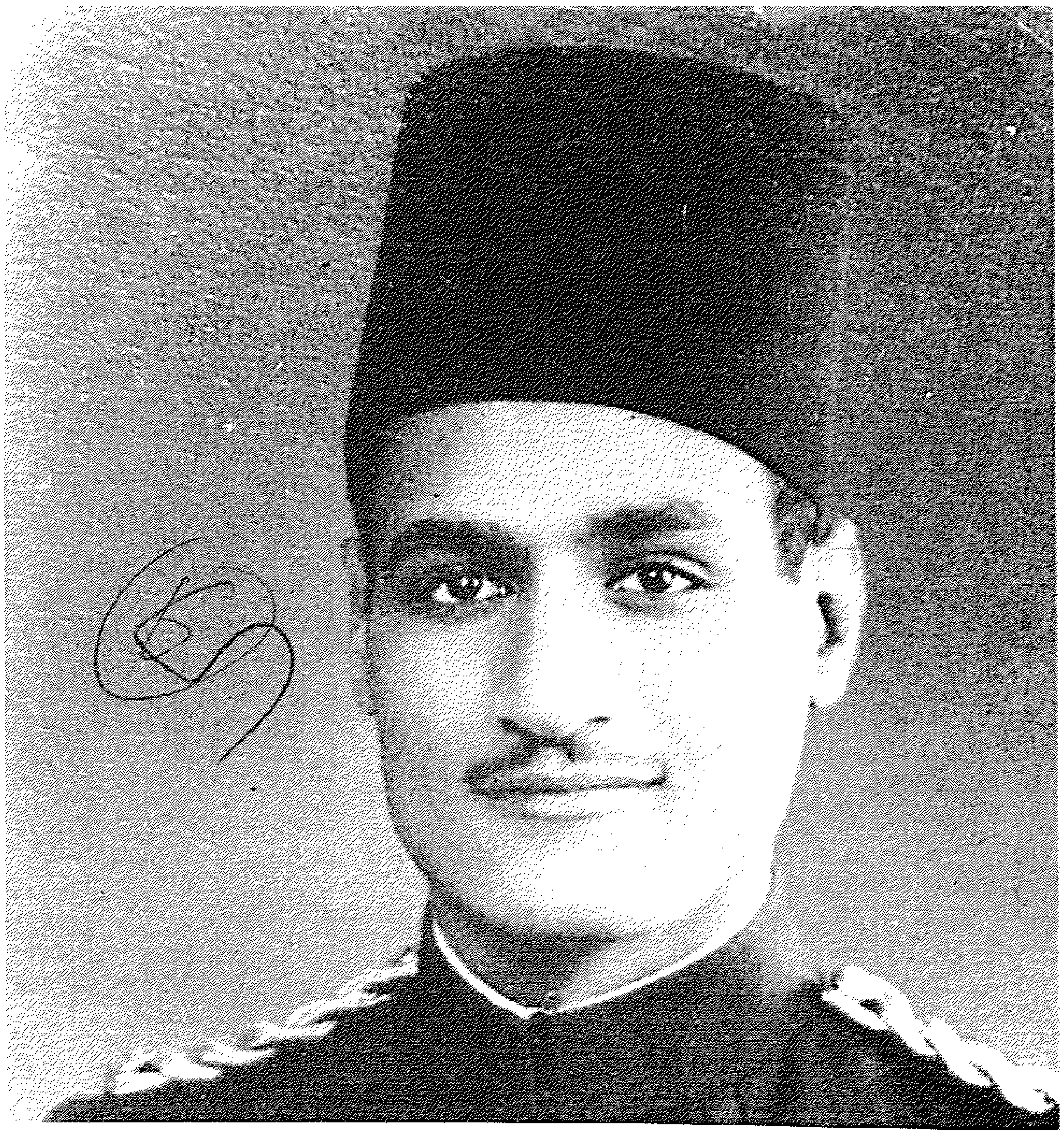

الطالب في الكلية الحربية: ١٩٣٧

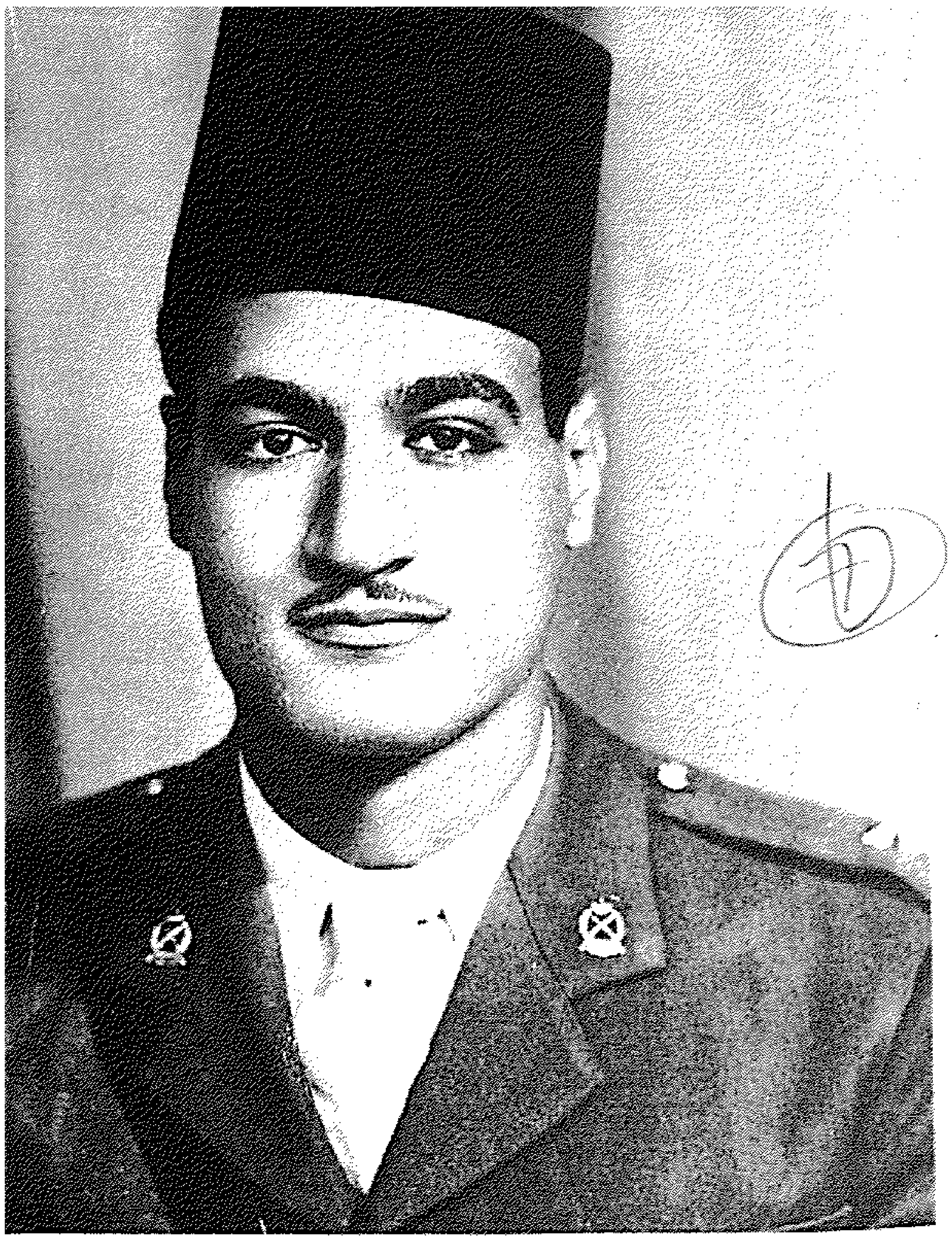

يوم التخرج ملازماً في الجيش: ١٩٣٨

حامل عِلم الكتيبة: ١٩٤٠

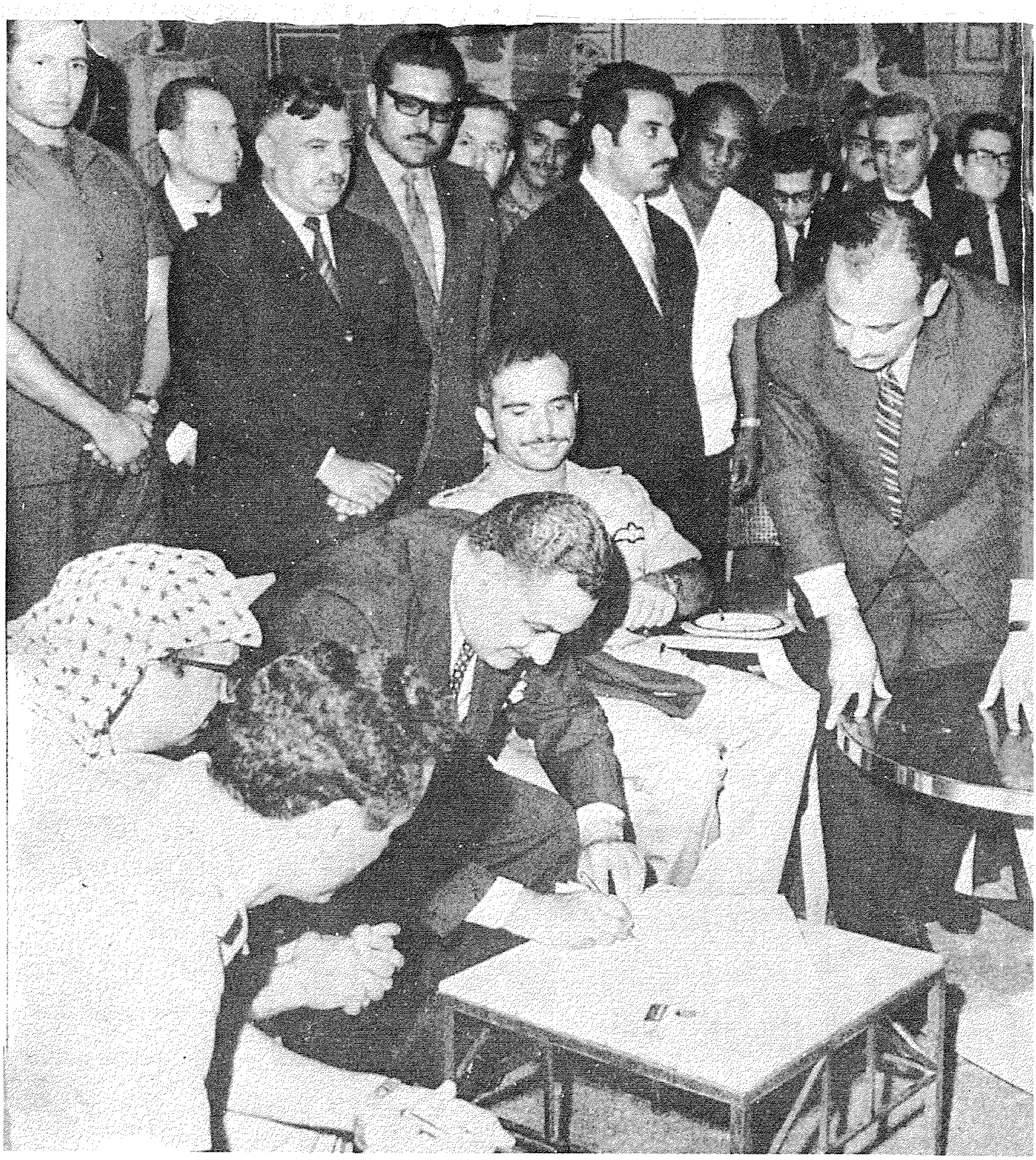

- يوقع على اتفاقية إنهاء القتال في الأردن بعد الجهود المضنية التي بذلها كشهادة له لآخر
جهد قومي بذله من أجل حقن الدماء بين المقاومة الفلسطينية والجيش الأردني

ف : 602 تاريخ استلام: 11/7/2006

ـــ في الكادر الصورة الاخيرة ٢٨ ايلول / سبتمبر ١٩٧٠ في وداع امير الكويت.

. الملايين في جنازة زعيمهم وقائدهم وحبيبهم جمال عبد الناصر.

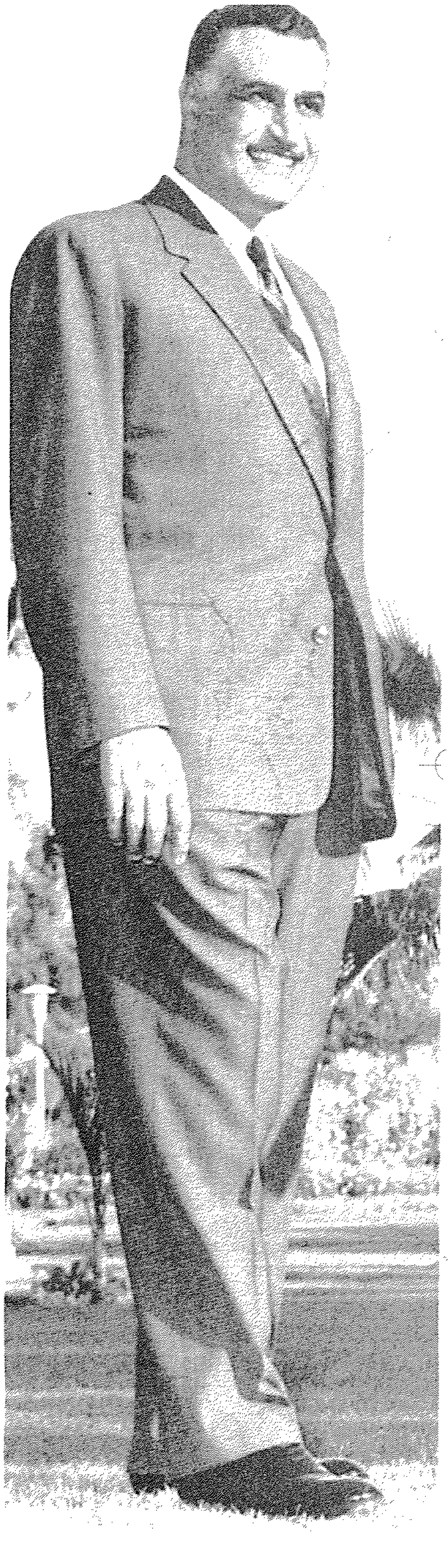

دار
الحسام
للطباعة والنشر
بيروت لبنان

Bibliotheca Alexandrina
05566433